ساحر الكتب

عمرو البدالي

ذئبستان

أخر ممالك الأرض

الكتاب : ذئبستان- أخر ممالك الأرض
المؤلف : عمرو البدالي
تصميم الغلاف : أحمد مسعد
تدقيق لغوي: دعاء مصطفى
تنسيق: أحمد مسعد
رقم الإيداع : 28001/ 2024
الترقيم الدولى : 978-977-778-377-4

---

30 عمارات العبور – طريق صلاح سالم – القاهرة
ت : 01096539633
noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع و النشر و التوزيع محفوظة
للناشر

«في زمان ما سيعم الخراب والدمار كل الأرجاء، وعلى الأنقاض، في مشارق الأرض ستشرق شمس ذئبستان.. إمبراطورية الذئب الكبرى،وتُوضع شرائعه القاسية.. لتُعلن آخر ممالك الأرض.. حينئذ ستغدو النهاية أقرب ما يمكن»

د.عمرو البدالي

«لن يُهزَم الشر إلا بالقوة ولا قوة إلا بعقلٍ وريثٍ، وقلبٍ عظيمٍ، وأربعين ليلة من الاغتراب»

عجائب الأمصار في ذئبستان

المؤلف:مجهول

في مهب الموت

(الصحراء الغربية)

امتلأت السماء بغيوم كثيفة تُنذر بليلةٍ ممطرةٍ بعد طول انقطاع وكأن السماء تلوح بالشفقة على ساكني الأرض بعد أن أصابها الجدب الشديد لأكثر من خمسة أعوام ندرت فيها الأمطار .. فماتت الزروع واقتربت الأنهار من الجفاف.

في كوخ صغير على أطراف الصحراء بالقرب من بئرٍ اقتربت مياهه على النضوب.. سالت دموع طفل في الثامنة من عمره بجوار جده العجوز المستلقي على حصيرٍ مهترىء وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ربت العجوز بيديه المتشققتين على وجه الطفل (حلم) ليخفف من روعته فقد اجتز المرض أرواح الكثيرين في أيام معدودة دون سابق إنذار وكأن أياديهم المتشبثة بالحياة قد قُطعت بغتة في آن واحد.. ابتسم العجوز بالكاد:

--لا تخف يا بني.. لا تجزع يا حلم.

--ستموت أنت أيضًا يا جدي.

--إنه موعدي المكتوب يا ولدي ولا نقوى على منعه أو تأجيله.

--ولكنني سأصير وحيدًا بعدك وأنا أبغض الوحدة.. أنت وعدتني بأنك لن تتركني قط.

--قلت لك الأمر ليس في يدي.. اسمعني الآن جيدًا.. الآن عُلقت في رقبتك مهمةٌ عظيمة يا بني.. عليك بالصمود حتى تُنجزها.

--أي مهمة تلك يا جدي؟

اشتدت الرياح وكادت أن تقتلع تلك الخيمة من مكانها.. كانت كآخر شجرة تُقتلع عنوة ضمن غابة جُرفت عن بكرة أبيها.. تنهد الجد وأشار هامسًا بصوت مرتجف ناحية جانب من الكوخ:

--هناك.. ستجد زيرًا مدفونًا تحت الرمال.. في ذاك الجانب.

ما في داخله أمانة.. احتفظ به واحمه حتى يأتي الوريث.

--أي وريث؟

--لن تفهم الآن يا حلم.. كل ما عليك فعله هو أن تحفظه حتى تلقاه.

--وكيف أجد ذلك الوريث؟

--هو.. هو من سيجدك.

ابتلع الجد ريقه بصعوبة بالغة.. وارتعشت يداه:

--اذهب واستخرج الزّير.

--الآن.

--الآن.

نظر الطفل (حلم) ناحية ما تشير إليه يد جده.. تحرك إلى هناك ونبش بيديه الصغيرتين الرمال.. وبدأ في الحفر.. أمسك طبق معدني صغير يساعده.. وبعد دقائق ظهر الزّير مُغلقًا بلفافة من القماش العلوي.. عافر الطفل ليزيل القماش بالكاد.. انتزعه بنجاح.. مد يده بحذر وترقب إلى داخل الزّير.. حشرات رملية في جوانبه فوق

كتاب.. أمسك الطفل بالكتاب في حذر وحمله إلى الخارج ونفخ التراب عنه.. أوراق صفراء قديمة يغلفها غلاف كرتوني سميك.. مسح بيديه على عنوانه.. حاول قراءته.. فقد علمه جده القراءة على الرغم من كل الفقر والجدب المحاصرين لهما منذ ولادته.. قالها زامًا شفتيه:

--الباحث عن الله.

اقترب من جده مُمسكًا بالكتاب

--ما هذا يا جدي؟

--إنها النسخة الأخيرة من هذا الكتاب على وجه الأرض.. احفظها جيدًا حتى تقابل الوريث.

إياك أن تُفرط فيها مهما تعرضت للصعاب.

--لا أفهم شيئًا يا جدي.

--ستفهم في حينه.

تعالى صوت العاصفة المرتقبة وبعدها ساد الصمت في تلك الخيمة للأبد.. فاضت روح الجد لتترك الطفل حلم وحيدًا مع جثة هامدة في مهب الرياح بعدما اقتلعت للتو خيمتهم الأخيرة.. صرخ عاليًا ليتردد صوته في أرجاء العالم الموحش:

--جدي.. جدي.. جدي.

العيد الوطني للذئب

ذئبستان

(السادسة صباحًا- عام ٢٠٥ بعد الإنشاء)

اقتربت السفينة المُعادية التابعة للمقاطعة التاسعة من ذئبستان إلى شواطئ المقاطعة العاشرة.. تُرفرف عليها الأعلام الخضراء المميزة لهم.

في ذئبستان عشر مقاطعات يحاربون بعضهم البعض طبقًا لشرائع الذئب, ورغباته منذ إنشاء تلك البلاد, ولا يجرؤ أحد على وقف تلك الحروب مهما كان.

وقف الرسول «ضرغام» في مقدمة سفينته الحربية متابعًا قوات المقاطعة العاشرة المتربصين على الشاطيء في استقباله على أهبة الإستعداد القصوى.. تتصارع تلك الأمواج العاتية في بحر ذئبستان العظيم المحاوط للمملكة من ثلاث جهات شرقًا وشمالًا وجنوبًا, بينما تنتشر الجبال الشاهقة في الصحراء الغربية قبل سور ذئبستان الذي يفصلها عن باقي العالم القديم.. وقفوا مُنتظريين مترقبين في توجس فقد أُرسلت إليهم إشارة منذ أيام في أقدام الحمام الزاجل تنبئ بوصول رسول المقاطعة التاسعة حاملًا رسالة سريّة وهدية لحاكم المقاطعة النبيل فهد.. فرك ضرغام يديه ليتغلب على ذلك الصقيع المتزايد في أعتى شهور السنة بردًا على الرغم من ذلك الدفء المتسلل عبر معطفه الأسود السميك المصنوع من فِراء الدببة.. ابتسم متذكرًا تلك الرسالة متخيلًا وقعها على المسئولين في

تلك المقاطعة المعادية:

«من المقاطعة التاسعة إلى العاشرة.. يصل إليكم رسولنا ضرغام صباح يوم العيد الوطني للذئب فأحسنوا استقباله طبقًا لشرائع الحرب»

الأمير مارق-حاكم المقاطعة التاسعة

ضرغام ذلك القصير القامة الأصلع الرأس من أفضل قوات البارون لدى مارق ويعتمد عليه في كثير من الشئون الدولية والداخلية.. يطلقون عليه لقب «المفترس» نظرًا لجسارته وشراسته المعهودة.. غير أنه شيخ المعلمين للبارون الجدد.. ويلقنهم فنون الحرب وشرائع الذئب في البلاد.

للحرب شريعة في ذئبستان فلا يجوز الصراع داخل المقاطعات بأي شكل من الأشكال وإنما تدور الحروب بمواعيد مسبقة في الحدود الصحراوية الفاصلة بين المقاطعات ولا تخرج عنها أبدًا، وأي محاولة لجذب النزاعات خارج تلك الحدود يُعاقب فاعلها بالعزل على الفور.

أشعل ضرغام غليونه ونفث نفسًا عميقًا متأملًا ذلك الشاطئ القريب.. كم تمنى أن يعيش هنا!

منذ أكثر من عشر سنوات وقع في حب ذئبستانية من المقاطعة العاشرة أثناء تنكره في مهمة استكشافية ناجحة لم تتعد الخمسة أيام.. كل ما يعرفه عنها أنها من الغرباء.. أولئك العبيد المنتشرين في كل المقاطعات يمشون على أربع.. الغرباء لا يستقيمون أبدًا.. هكذا

حكم عليهم الذئب بعدما عمّ الخراب كل العالم القديم وأصبحت ذئبستان هي المكان الوحيد الآمن على وجه الأرض، ولكن تحكمه الشرائع القاسية ومن يرغب في العيش بأمان عليه تقبل شرائعه.

في ذئبستان ثلاث فئات:

١-ورثة الذئب: وهم الطبقة الحاكمة والنبلاء وعائلاتهم.. من يسكنون القصور ويتمتعون بخيرات البلاد ولا يشغلهم غير تلك الحروب المفروضة عليهم.

٢-البارون : وهم الّذين يمتد نسبهم إلى البارون الأكبر مؤسس الفرق المسؤولة في بداية بزوغ شمس تلك المملكة عن تأمين مقاطعات ذئبستان وإدارة الحروب وهؤلاء وعائلاتهم يسكنون المدن في بنايات يكسوها اللون الأسود.

٣-الغرباء: أولئك العبيد، من جنسيات مختلفة.. من قبلوا بالعيش في ذئبستان طبقًا لشرائع قاسية لا يخرجون عنها.. ويسكنون القرى والنجوع.

كانت تلك الفتاة واحدة من الغرباء.. ما زال ضرغام يتذكر اللحظة الأولى التي وقعت عليها عيناه.. ذلك الجسد البضّ الذي لم يغلبه شقاء العمل.. وتلك الكسوتين الصغيرتين حول خصرها وصدرها السوداوين اللون.. كم تمنى أن ينعم برفقتها ما تبقى له من العمر في عش هادئ يجمعهما!

جلس وقتها في حانة المقاطعة المسماة(ليالي ذئبستان) وقد اندمج في الاستماع إلى تلك المعزوفة الموسيقية

الكلاسيكية(كونسرتار) متمنيًا تبديل المواقع مع عازفها بشدة فقد عشق ضرغام الموسيقى وأجاد العزف على البيانو بجدارة.. شخصية جديرة بالدراسة.. مفترس ذو قلب رقيق.. يهوى الدماء المنسابة من رؤوس أعدائه التي ينحرها بنفسه وكذلك الموسيقى الهادئة والورود.. يُعلّم الجميع شرائع الذئب ويكفر بأغلبها داخل عقله سرًا.. وبين النقيضين وُجد ضرغام.

(كونسرتار) مقطوعة تخطف قلبه وتشعره بالنشوة من دون سبب واضح.. ربما لأنه قتل مؤلفها من بارون الورثة ومارس الفضيلة مع زوجته رغمًا عنها في بداية حملاته البارونية.. أو لأنها كانت أول من تذوق من صنف النساء على أنغام تلك المعزوفة.

في ذئبستان يطلقون على العلاقة بين الرجل والمرأة في الغرف المغلقة: الفضيلة.

خشى ضرغام أن تلتفت إليه الأنظار هنا في المقاطعة العاشرة ولذلك اكتفى بتحريك أصابعه وكأنه يعزفها.. وجاءت هي لتقطع عزفه الوهمي وهي تُقدم له الخمر حاملة الكوب على ظهرها تمشي على أربع ككل الغرباء.. استقرت بين فخذيه ورفعت عينيها الرائعتين هامسة بصوت عذب:

--كأسك يا سيدي.

كانت كنجمة ملئت السماء بضيائها بغتة فالتفتت إليها عيون قلبه رغمًا عنه.. لها سحر لا يقاوم.. ابتسم ضرغام مربتًا على وجهها:

--ما اسمك يا فتاة؟

--حنين.

--اسم ذو مغزى.. هل تعملين هنا دائمًا؟

--نعم.

--ومعسكر الفضيلة؟

--لقد أنهيت خدمتي منذ عامين.

لم تكن علامات السن ظاهرة على حنين.. معسكر الفضيلة هنا إلزامي على كل الغرباء من النساء حتى سن الخامسة والثلاثين أو بعد عشرين حملًا أيهما أقرب.

ابتسم ضرغام ساخرًا من تلك الشرائع العجيبة التي تحكم ذئبستان.. في زمان آخر كانت تلك المعسكرات يطلقون عليها بيوتًا للبغاء.. أما الآن فهي وسيلة رئيسية قانونية لاستمرار نسل الغرباء العبيد.

--هل تريد شيئًا آخر يا سيدي؟

--كلا.

رمقته سريعًا وهي تلاحظ لهفته القافزة من عينيه.. اشتمت رائحة رغبته المفترسة.. ابتسمت له ابتسامة ذات مغزى في غنج ودلال.

هي ومعيلاتها خبيرات في رغبات الرجال ويرصدونها عن بعد.. فقد مارست الفضيلة مع ما يقرب من ألف رجل من غرباء معسكرات الفضيلة حتى أصبحت حياتهن غارقة في عبق تلك الرغبات.

استدارت وابتعدت وهو يتابعها بعينيه حتى اختفت عن ناظريه.

لو أن القانون يسمح بزواج البارونين من الغرباء لما تردد لحظة من الارتباط بها!

فقد زهد النساء الأنيقات الطيبات الرائحة المستقيمات.. يحيره كثيرًا أولئك المنحنيات على أربع الغارقة أجسادهن في الفقر والشهوة.

لكن هيهات.. فربما يتعرض للسجن أو الموت إن فعل ولو علاقة سرية معها..

للحق هناك من يخاطر ويستسلم لرغباته ولكنه يملك الكثير والكثير من الأسباب تشعره بالرهبة من المخاطرة بمستقبله.

لم يحاول حتى تتبعها أو لقائها سرًا بعيدًا عن عيون الذئب.

خمسة أيام يذهب إلى الحانة ويتابعها عن قرب.. يتخيل نفسه بين أحضانها من دون أن يقترب منها.. وانتهت مهمته بعد نجاح ساحق في اختراق النظام الأمنى للمقاطعة.

تمكن بطريقة ما معرفة كلمة السر المتغيرة على بارون الورثة أسبوعيًا.. وهذا ساعد قوات الحرب في تحقيق بعض الانتصارات في الحدود الحربية ذلك الأسبوع.

ذكرياتٌ تحملها إليه رياح الشتاء البارد كتلك الأيام الخمسة التي قضاها منذ سنوات في هذه المقاطعة.

رست به السفينة بالقرب من شاطيء المقاطعة العاشرة واستقل مركبًا صغيرًا إلى الخارج.. وطأت أقدامه أرض المقاطعة من جديد

بعد كل هذه السنوات.. حنينٌ جارفٌ يجتاح قلبه في تلك اللحظات. حنينٌ إلى حنين.. تلك المرأة المخلوقة من الغنج والدلال.. ظل طوال هذه الفترة يبحث عن حضور روحها بين أحضان النساء المسموح له بممارسة الفضيلة معهن من دون جدوى.. والعجيب أن أحدًا من نساء غرباء مقاطعته قد فعل فيه ما فعلته طلتّها.. وكأنها نموذجًا لم ولن يتكرر. اقترب منه وفد البارون الأحمر في حرص شديد:

--السيد ضرغام رسول المقاطعة التاسعة؟

--نعم.

قالها متنهدًا مُنتزعًا نفسه من غياهب العشق البعيد.

--أهلًا بك يا سيدي.. النبيل فهد في انتظارك.

ركب ضرغام في مقدمة حراسه من البارون الأخضر فوق عربات يجرها الغرباء.. فالغرباء هنا يعملون في كل شيء.. جمع المحاصيل الزراعية،توليد الكهرباء ذاتيًا بتحريك مولدات يدوية،أعمال النظافة، النقل والمواصلات.. حتى السفن تستقل بسواعد الغرباء الضاربة للأمواج مهما كانت المسافات.. والعربات يجرها الغرباء كالخيول.. وفي أياديهم نعال حديدية يرتدونه دائمًا لكونهم لا يستقيمون أبدًا إلا في بيوتهم.

تحركت العربات وسط المدينة المتأهبة للاحتفال بعيد الذئب السنوي.. ميعادٌ ثابتٌ تحتفل به كل المقاطعات على حده.. ذكرى إنشاء ذئبستان.

انتشرت قوات البارون الأحمر في زيهم الأسود وشاراتهم الحمراء

المميزة لهم يمارسون الأعمال الحربية الاستعراضية في شوارع المدينة.

يبارزون بعضهم البعض بالسيوف وسط الطبول الحربية والموسيقا البارونية،

يستعرضون قوتهم فوق العجلات الحربية التي يجرها الغرباء.

تنطلق الزغاريد من شرفات البنايات المطلية باللون الأسود وعلى أسطحها ترفرف أعلام ذئبستان.. علم أحمر اللون يتوسطه وجه الذئب.

في كل مقاطعة يتغير لون العلم تبعًا للون المقاطعة المميز الأخضر والأحمر والأصفر وغيرهم ماعدا اللون الأبيض فقد حظره الذئب من دون إبداء أي أسباب لذلك.

بحث بعينيه في وجوه نساء الغرباء العبيد طوال الطريق عن معشوقته حنين من دون جدوى..

تلك الوجوه المتشققة الغارقة في المذلة.. كباحث عن خيط رقيق فُقد في عرض البحر وابتلعته الأسماك المفترسة.. ربما تكون في إحدى القرى البعيدة عن ذلك الطريق الرملي الممهد إلى قصر النبيل فهد حاكم المقاطعة العاشرة.. أو أنها مازالت تعمل في حانة ليالي ذئبستان.. شعر قلبه بأنه سيراها وأقسم عقله بأنه لن يُفلتها هذه المرة.

انتهى به الطريق مرورًا بغابة كثيفة الأشجار ليظهر قصر النبيل فهد شاهقًا فوق جبل عالٍ.

صحبه البارون الأحمر نحو مجلس النبيل تأمينًا.

ترجل ضرغام داخل ذلك القصر المبني من الذهب الخالص المتلألأ وسط النهار كأنه الشمس لا تقوى على النظر إليه كثيرًا وإلا تفسد عينيك.. حاله كحال قصور النبلاء العشرة.. بينما بُنيت قصور باقي الورثة من الفضة المُرصعة ببعض من الذهب.

زم النبيل فهد شفتيه في مجلسه ناظرًا إلى طبيبه الخاص غاضبًا متحسسًا تلك البثور اللعينة التي تملأ وجهه:

--كل مساعيك فشلت أيها الطبيب.

--عذرًا سيدي ربما الأمر يحتاج إلى بعض الوقت.

--بعض الوقت!

--فلنكرر ذلك الدهان و..

قاطعه في حدة وعصبية:

--فلتذهب أنت ودهانك إلى الجحيم.

قاطع مجلس النبيل أحد البارونيين الحُمر:

--السيد ضرغام رسول النبيل مارق.

--فليتفضل.. انصرف أنت الآن.

قالها للطبيب مُتنهدًا.

وقف ضرغام أخيرًا أمام النبيل فهد الجالس على كرسي من الياقوت الخالص وسط رجاله من الورثة المقربين.. رجل شارف

على الأربعين من عمره ومازال يحلم بالوصول لأكبر منصب في ذئبستان.. النبيل الأكبر والنائب الأول للذئب.. ذلك الفوز العظيم.. ولم يعد أمامه ليفوز بهذا المنصب سوى الانتصار على المقاطعة التاسعة.. ويحقق حُلم عائلته المتوارث فيها منصب نبيل تلك المقاطعة منذ نشأة ذئبستان.. إن منصب كبير النبلاء لم ينجح أحد حتى اللحظة في الوصول إليه.. وطوال مئتى عام من الحروب بين المقاطعات لم يتسنّ لأحدهم الفوز القاطع على الجميع ونقل النّبالة الكبرى إلى عائلته وورثته.. بل بقى منصب النبيل الأكبر متوارثًا في عائلة واحدة غين كبيرهم وقت الإنشاء ويقال أن الذئب اختاره بنفسه ووثق فيه.. الأمر غاية في الصعوبة ومع ذلك بات الحلم قريب التحقق .. لم يتبق للنبيل فهد سوى الانتصار على مارق نبيل المقاطعة التاسعة ذلك الشاب العنيد.. فقد تغلب الاثنان على أغلب المقاطعات وأصبحا قاب قوسين أو أدنى على النّبالة الكبرى.. قوتان بارونيتان متكافئتان تتصارعان بضراوة, وخيانات لا حصر لها من الطرفين ,ودسائس من القوى الأخرى المهزومة سابقًا.. تلك هي حياتهم وعليهم تقبلها بكل ما فيها من خبث ودهاء غارقين في الدماء.

اعتدل فهد على عرشه متنهدًا ناظرًا لضرغام:

--هات ما عندك.

--أهذه هي أصول الضيافة؟

--وهل يستضيف الذئب الفئران؟

قالها ضاحكًا ساخرًا فضحك كل من في مجلسه ما عدا ضرغام

المقتضبة ملامحه:

--ما أنت بالذئب ولن تكون.

توقف الجميع فجأة عن الضحك.. نهض فهد من مجلسه وترجل ناحية الرسول واقترب منه

هامسًا:

--ماذا يريد سيدك مارق.. ها.. قل لي.. أيريد السلام ؟

أخرج ضرغام رسالة ورقية مطوية فوق بعضها البعض وأزال رباطها.. ناولها إلى فهد

--تلك الرسالة تخصك أيها النبيل.

فتحها فهد متذمرًا وبدأ في قرائتها متوجسًا:

«من النبيل مارق حاكم المقاطعة التاسعة.. إلى النبيل فهد..

نرسل إليكم تحياتنا وتهانينا بعيد الذئب الوطني ولا تمر تلك المناسبة من دون هدايا تليق بمقامكم السامي.. تجدها مع رسولنا الكريم.. وكل عيد للذئب وأنتم بخير»

--عن أي هدايا يتحدث مارق؟

--تلك.

أشار ضرغام إلى صندوق كبير يحمله أحد رجاله.. أعطى الإشارة إلى حامله ليضعه أمام فهد ويفتحه.. عاد فهد إلى الوراء فجأة وعلى وجهه علامات الغضب.. الصندوق ممتلئ برؤوس بشرية منحورة

ملطخة بالدماء المتجلطة.. جاحظة الأعين.

--ما هذا؟

--رجالك.. من أرسلتهم للتجسس على مقاطعتنا.

ارتبك فهد وتلعثم ولكنه حاول الثبات

--لا أعرف عن أي شيء تتحدث.

--لقد اعترفوا بأنهم من المقاطعة العاشرة وجنابك تعرف جيدًا أن التجسس مُجرَم في الحروب هنا في ذئبستان ويبلغك مولاي الأمير مارق أنه سيعرض الأمر في مجلس الورثة القادم.

--لا علاقة لي بهؤلاء.. ولا شأن لي بهم على الإطلاق.

يعرف فهد أنه من السهل إثبات أنهم من المقاطعة العاشرة.. فكل شيء في ذئبستان يدور أمام أعين الذئب المنتشرة في كل مكان ليرصد حتى أنفاس الجميع.. تلك العيون الحديدية الموصلة لقصر التحكم الضخم في أطراف ذئبستان.. قصر النبيل الأكبر ونائب الذئب الأول.. ويجري الأمر هكذا في كل مقاطعة.. عيون الذئب تتابعك وتعد أنفاسك وهناك من يراقب في قصور النبيل الأكبر.

ولكنه يدرك أيضًا أن الغابات خارجة عن سيطرة عيون الذئب.. لصعوبة رصد ما يدور فيها.. وقد حرص في تكليفه لهؤلاء الرجال أن يقابلهم في الغابة بعيدًا عن تلك العيون.. ولذلك من السهل عليه أن ينكر معرفته بالأمر.. سيخبر مجلس الورثة أنهم فعلوا ذلك لتوريطه.. وأن هناك تنظيمًا سريًا يهدف للإطاحة به والثورة ضد نظام الذئب ويُقدّم بعض من بارون الورثة بتلك التهمة.. تهمة الانقلاب.. وينتهي

الأمر.. ابتسم فهد بدهاء بعد أن ترتبت أفكاره جيدًا ناظرًا في عيني ضرغام:

--قل لمارق.. فلنرجيء هذا الأمر إلى مجلس الورثة القادم..

واليوم دعنا نحتفل بعيد الذئب.. هيا فلتكرموا ضيفنا وتجهزوا له

مقعدًا قريبًا مني في مسرح ذئبستان ليتابع معنا العرض عن قرب.

***

«أعزائي الذئبيستانيين، الورثة والبارون والغرباء: افرحوا وهللوا وارقصوا فاليوم عيدكم الوطني.. عيد الذئب الكبير»

تردد صوت الرجل في كل أنحاء المقاطعة العاشرة عبر مكبرات للصوت غلّقت في كل الشوارع والميادين والقرى والنجوع.. صوت أجش يملؤه الفرحة المصطنعة، ويتكرر منذ شروق الشمس ولا يتوقف حتى بدأ الاحتفال.. يتخلله موسيقى بارونيّة تشبه المارشات.

العروض البارونيّة على أشدها طوال اليوم والبارون يبذلون كل الجهد لربما يمر موكب النبيل الأكبر عبر مقاطعتهم.. في كل عام يختار النبيل الأكبر والنائب الأول للذئب إحدى المقاطعات ليمر موكبه في شوارعها متجهًا إلى المقر الرسمي للحكم في أطراف كل مقاطعة.. عشرة مقرات يتنقل بينهم ليتابع أحوال البلاد عبر عيون الذئب المنتشرة في كل مكان.

الأعلام الحمراء للمقاطعة العاشرة من ذئبستان ترفرف عاليًا فوق بناياتها السوداء.

الغرباء يسعون في الأرجاء على أربع كالخراف.. كلّ يتجه نحو عمله الشاق.

أولئك العبيد الّذين باعوا حريتهم مقابل الأمان الزائف بإرادتهم جيلًا بعد جيل.. بيد أن أجدادهم ارتموا شهورًا عديدة على حدود ذئبستان الغربية حيث بني الذئب سوره العظيم وأطلق عليه الناس (سور ذئبستان العظيم).. سور من الحديد والنحاس لا يمكن لأحد أن يهدمه أو يتسلقه وبواباته سرية تكمن تحت الأرض ولا يعرفها غير النبيل الأكبر بمفرده.. أولئك الأجداد كادوا أن يُقبّلوا أقدام قوات بارون الحدود الغربية ليسمحوا لهم بالعيش في أمان الذئب مهما كانت التنازلات.

يحكى أنهم وافقوا على تقديم زوجاتهم لممارسة الفضيلة مع قوات بارون الحدود كاختبار للطاعة بل ووقفوا يتابعونهن ويسمعون أناتهن وعلى وجوههم ابتسامات واسعة, جاهدوا كل ما فُطر عليه الإنسان حتى سمح لهم بدخول ذئبستان معصوبي الأعين.. أدركوا حقيقة أنه لم يعد في إمكانهم التراجع ولو أرادوا ذلك فالخراب يعمّ خارجها والموت يرفرف فوق الرؤوس فيما وراء السور.. أضحى اختيارهم الأوحد.

فرقٌ طوافةٌ من بارون الورثة-شعبة الإحتفالات الوطنية- ينشرون البهجة في شوارع المقاطعة فوق عربات يجرها الغرباء بكل حماس.. لُونت وجوههم باللون الأحمر كلاعبي السيرك.. يهللون ويصيحون عاليًا:

--فليحيا الذئب العظيم.

يقذفون ورودًا حمراء على المارة في كل مكان.. يتقدمهم عربة خشبية كبيرة عليها مجموعة من عازفي الموسيقى البارونيّة يعزفون المقطوعة الشهيرة للسيرك الممتزجة مع تلك المارشات البارونيّة النابعة من مكبرات الصوت.

« افرحوا وهللوا وارقصوا فاليوم عيدكم الوطني.. عيد الذئب الكبير»

نساء البارون تملآن الشرفات وتطلقن الزغاريد بين الحين والآخر.

الغرباء يصفقون بأيديهم كالقرود.. الغريب أنهم اعتادوا على التعايش جنبًا إلى جنب البارون والورثة على الرغم من تلك الشرائع الصارمة التي تفرق بينهم في كل شيء.. ربما جمعهم البحث عن الأمان.

--فليحيا الذئب العظيم.

يقفز القردة بين المارة ويتسلقون فقد دأبوا على العيش هم أيضًا في جوار الغرباء.. ربما لأنهم يشبهونهم في كل شيء.. وربما لكون الغابات جزءً لا يتجزأ من مقاطعات ذئبستان.. لا أحد يعرف السبب في تواجد الحيوانات دائمًا في مدن المقاطعات وريفها.. قرود وظباء وأفيال وغيرهم من ساكني الغابات.. ولكن القرد(بابون) يعرف السبب.. هكذا ينادونه في الغابة.. بابون القرد.

قرد شقي يجلب لهم المشاكل على الدوام.. ذات يوم قفز بابون في قصر النبيل فهد وتجول بين الطرقات حتى وصل إلى غرفة نومه.. رآه ينظر إلى نفسه في المرآة بعينين يملؤها الغضب إلى وجهه

الممتلئ بالبخور عن آخره.. كان يهمس متأثرًا:

--ما هذا القبح!

ثم أمسك بقنينة زجاجية وقذف بها زجاج المرآة ليكسره ونادي على حراسه:

--يا حراس.. لا أريد أي مرايا هنا في غرفتي.

--أمرك يا سيدي النبيل.

--الآن.

--حسنًا.

حينها لمح النبيل فهد ذلك القرد يتلصص عليه من شرفة غرفته.. فهرع ناحيته في عصبية صارخًا بعد أن قفز بابون على شجرة قريبة ومنها إلى باحة القصر.

--امسكوا هذا القرد.. أريده على العشاء اليوم مشويًا على الفحم.

إنهم يأكلون القرود بل والأفيال والخراف والخنازير وكل أنواع الحيوانات ولكن هذا جائز للورثة فقط.

لا يجوز للغرباء أو البارون تناول أي منها.. فأكل لحوم الحيوانات محظور إلا على ورثة الذئب,النبلاء وعائلاتهم.. بيد أنه يُسمح للبارون بتناول الدجاج والفئران فقط.. ولكن حتى هذا يتطلب موافقة كتابية من أحد الورثة أما الغرباء فإما نباتيون أو يأكلون بعضهم بعضًا بعد الحصول أيضًا على موافقة كتابية من النبيل شخصيًا تفيد بجواز أكل أحدهم وذلك في حالة تعذر المطلوب أكله

عن ممارسة عمله لفترة من الزمن لا تقل عن أسبوع إما لمرض أو لتمرد.

تمكن بابون من الفرار يومئذ من دائرة الخطر وعاد إلى الغابة يتسكع بين الأشجار.

قص ما رآه إلى كل قاطني الغابة وبعدها نهروه بشدة فربما يُرسل النبيل فهد قوات من البارون إلى الغابة ويقتلون أكبر عدد من القرود ليبيتوا ليلتهم في بطون الورثة طعامًا، ولكن مرت تلك الأزمة سريعًا لانشغال النبيل بما هو أهم.. حربه مع مارق، عدوه اللدود ومنافسه على لقب النبيل الأكبر.. تلك الحرب المتوارثة منذ أكثر من مئتي عام.

في نفس الليلة وقف بابون فوق أحد الأشجار ونادي على أقرانه بصوت جهوريّ فاجتمعت الحيوانات تباعًا واستمعوا إليه:

--أيها القرود الزملاء والأحباب.. أيها الحيوانات..

علام تنتظرون حتى تهبّوا هبّة حيوان واحد ضد الظلم والبهتان؟

إنسان يأكل قرد؟ يا للمهزلة!

يأكل ظبي! يأكل فيل! يأكل خرتيت! يأكل زرافة!

أي إنسان هذا؟ هل تعرفون من هم؟ أنا أعرف.. إنهم وزنه الذئب

الذئب ملك الغابة.. قال لي جدي أنه في قديم الزمان كان الأسد

هو ملك الغابة.. أتذكرون الأسود؟

هنا في ذئبستان يومًا ما قُتلت جميع الأسود في ضربة واحدة

وكذلك النمور.. لم يتبق منهم إلا ذكرى تخاف ألسنتنا من ذكرها..

ونادى منادٍ من الورثة بأنه من تلك اللحظة يصبح الذئب هو ملك الغابة..

عاش هنا أجدادنا يبحثون على طعام أطفالهم في أمان الملك القديم..

هل سمع أحدكم بأسود هاجمت أطفالًا؟ كان ملك شريفًا حين يُهاجم

ينبش أنيابه في أجساد الكبار لا الصغار..

أما اليوم، فأولئك الورثة قد يأكلون حيوانًا لم يمر عليه في

الدنيا غير ساعات معدودة.. إنهم يقتلون الأطفال.. يقتلون المستقبل.

لا بد أن نثور ونهاجمهم.. كفانا هروبًا إلى المدن والقرى.. كفانا احتماءًا بالبارون والغرباء.. من حُرم عليهم أكلنا، فلنعود إلى غابتنا في وضح النهار ونحارب الورثة..

إن بيننا القوي والسمين والمفترس..

إن اتحدنا سنقهرهم.. لماذا لا تجيبون؟ قولوا شيئًا.

انفض الجمع من حوله.. كانوا يعاملونه كالمجذوب.. أي حيوان هذا يستطيع الوقوف في وجه الذئب وورثته؟ وإن قتلوا كل ذئاب البلاد فكيف لهم التغلب على ذئبهم الكبير الذي لم يره أحد حتى تلك اللحظة ولا يعرف أي أحد شكله ولا مكانه.

لم يكن الوضع هكذا للبارون والغرباء حيث باتت الغابات هي المكان الآمن الوحيد في هذه البلاد.. كونها بعيدة عن أعين الذئب خاصة في داخل الأدغال.. تلك التي يهرع إليها الغرباء أحيانًا لينصبوا قامتهم ويمارسون علاقاتهم المُحرمة.. فكم من علاقة سرية تمت بين بارون الورثة ونساء الغرباء تحت ظلالها ! كم من ممارسة للفضيلة المُحرمة قانونًا حدثت بعيدًا عن أعين الذئب!

قفز القرد بابون في الشارع الرئيسي للمقاطعة متجهًا نحو المسرح الكبير.. لم يَكلّ من النظر في وجوه الغرباء باحثًا عن بصيص من الغورة.. أو حتى في وجوه البارون.. ربما يأتي من يغير كل شيء ويقضي على الذئب وأعوانه يومًا ما.

وقف القرد بابون على مقربة من التمثال الكبير للذئب أمام المسرح.. تمثال من الذهب الخالص يبلغ طوله أكثر من عشرة أمتار في السماء.. يسجد حوله في دوائر مجموعة من الغرباء والبارون و يتمتمون بترانيم ذئبية يحفظونها عن ظهر قلب لتكرارها في مكبرات الصوت ليلًا نهارًا:

--يا ذئبي الكبير اصفح عن زلاتي وضعفي..

يا ذئبي العظيم أنا مِلك لك فكن لي آمنًا وآمانًا من الخراب.

سالت دموعي تحت قدميك فاقبلها أيها الذئب..

أنت الملك والحاكم.. أنت الملاذ.

نظر بابون إلى التمثال بغلٍ متزايد وود أن يحطمه بيديه الصغيرتين..

موكب النبيل فهد يلوح في الأفق.. إنه يقترب.. صوت الطبول يتعالى إعلانًا لوصوله.

تتزايد المارشات البارونيّة مع نفير عام لقوات البارون استعدادًا لاستقبال النبيل وزوجته (فيروز) الحاملة في أحشائها الطفل الأول للنبيل فهد.

يتألقان في ثوبين أسودين مرصعين بالذهب مع وشاحين أحمرين يحيط خصرهما.

توقف الغرباء الجارين لعربات الموكب أمام مدخل المسرح الكبير على مقربة من تمثال الذئب وترجل فهد ومد يده لتتكئ زوجته عليها.. وقف الاثنان مرفوعي الرأس باعتزاز أمام الناس المهللين:

--فليحيا النبيل فهد.

--كلنا فداؤك يا فهد.

--فليحيا النبيل فهد.

رفع يده ليُحييهم ثم نظر سريعًا نحو التمثال وانحنى وزوجته له ودخلا المسرح في حراسة مشددة.

مسرح روماني ضخم بُني تحت الأرض وأحيط أعلاه بجدران ذهبية مفتوحة السقف.

جميع المقاعد ذهبية خالصة في دوائر متتالية حتى باحة المسرح الشاسعة في الأسفل.

مسرح ضخم سعته تكفي لمليون فرد من الورثة.

في ذئبستان حوالي مليار نسمة تبعًا للإحصائيات الأخيرة .. منهم ما يقرب من عشرة ملايين من الورثة في كل المقاطعات ومئتي مليونًا من البارون والباقي من الغرباء العبيد.

وعلى الرغم أن ذلك المسرح لم يشهد يومًا حضورًا أكبر من خمسين أو ستين ألفًا من ورثة تلك المقاطعة الذين يتم دعوتهم رسميًا لحضور احتفال العيد الوطني باختيار النبيل فهد.. إلا أن الجميع يدرك أن في هذه المقاطعة ما يقرب من مليون نسمة من الورثة على آخر تقدير مُعلن.

وقف الجميع تحيةً وإجلالًا للنبيل المتجه نحو الصف الأول السفلي عبر سلالم رخامية ينتشر في أنحائها قوات البارون الأحمر للتأمين.

جلس وزوجته إعلانًا لبدء الاحتفال.

صوت صافرة حادة تعلن البداية.

يظهر حاملي الطبول في خلفية المسرح ويبدأون بالدق بإيقاع ثابت يبعث في النفس الرهبة والترقب.

يدخل رجال يجرون قفصًا كبيرًا من الحديد الصدأ وفي داخله دب أبيض ضخم لا يتوقف عن القهقهة.

صوت رجل يتحدث في مكبر الصوت ليقدم الفقرة الأولى من الحفل:

--الدب اللعين.. العدو اللدود للذئب.

منذ قديم الأزل والدب يحارب ويحاول الانتصار.

والذئب يترك لكم الاختيار.. من شاء فليتبع الدب ومن شاء

فليتبع الذئب.. إنه خياركم أنتم وعليكم تحمل العواقب.

أصوات تهليل عالية تتردد:

--الذئب.. الذئب.. فليحيا الذئب العظيم

تتعالى دقات الطبول ويفتح أحد الرجال مزلاقًا حديديًا في القفص ليخرج الدب منه..

يستقبله عدد كبير من رجال البارون حاملين سهامًا وسيوفًا غرسوها في جسده الضخم و أرادوه قتيلًا في الحال.

--فليحيا الذئب العظيم.

انسابت دمائه على أرضية المسرح وهرع الرجال بتخضيب أياديهم بتلك الدماء الطازجة وتلطيخ وجوههم باللون الأحمر.

--ذئبستان.. ذئبستان.

قفز القرد بابون أعلى تمثال الذئب في الخارج ليكشف المسرح وما يدور فيه.

في لحظات اختفت جثة الدب وقفصه ونُظفت أرضية الباحة كأن شيئًا لم يكن.. واستمرت دقات الطبول معلنة عن الفقرة الثانية.

دخل عدد من البارون الأحمر-شعبة الكهنة- وجرجر بعضهم قفصًا آخر من الذهب في داخله ذئبًا مقدسًا هادئًا.

انتفض جميع الحضور في مكانهم ووقفوا صاغرين مهللين:

--فليحيا الذئب العظيم.

--فليحيا الذئب العظيم.

امتلأت مقدمة المسرح بأبخرة ذات رائحة طيبة وتعالت أصوات الطبول مع ترانيم جماعية يرددها الحضور مع كهنة الذئب:

--يا ذئبي الكبير اصفح عن زلاتي وضعفي..

يا ذئبي العظيم أنا مِلك لك فكن لي آمنًا وآمانًا من الخراب.

سالت دموعي تحت قدميك فاقبلها أيها الذئب..

أنت الملك والحاكم.. أنت الملاذ.

امتزجت الطبول بمقطوعة موسيقية راقصة وظهر معها مجموعة من الراقصات الشبه عاريات.

في ذئبستان مسموح فقط لنساء البارون الأرامل بالعمل كمشرفات على عمل الغرباء أو كراقصات وذلك بعد وفاة أزواجهن في مدة لا تزيد عن شهر.. أما في حياتهم فلا عمل لهن على الإطلاق.

تمايلت الراقصات بغنج متمسحات في قفص الذئب بحركات استعراضية مغريّة.

جلس الجميع يتابعون العرض الشيق.. دخلت من الجانب الآخر منصة خشبية على عجلات يجرها الرجال.. منصة فوقها قفص زجاجي ضخمًا فارغاً.

دخل بعدها عدد كبير من الغرباء يزحفون على أيديهم وأرجلهم رجالًا ونساءًا يطلقون خنخنة كالخنازير.

خنخنة لا تتوقف وهم يميلون برؤوسهم يمينًا ويسارًا.. والراقصات تلعق بألسنتهن قفص الذئب.. بينما الذئب هادئًا لا يتحرك.

أعداد ضخمة تصل لألف عارض ما بين الراقصات والغرباء والرجال على هذا المسرح الكبير.. تناغم حركي وموسيقي مثير بين الجميع.

انبهر القرد بابون بما يراه لأول مرة فلم يتجرأ للوصول إلى هذا المكان الممتلئ بالورثة المفترسين من قبل.

وقف أحد الرجال في منتصف المسرح ونادى بصوت جهوري:

--أيها السادة.. موعدكم الآن مع العرض المسرحي قائم في بلاد الحوافر.

تعالت أصوات ضحكات الحضور..

أخرج البعض من قوات البارون الأحمر سيوفهم وأشهروها في وجوه البعض الآخر ممن ارتدوا شارات خضراء وكأنهم ينتمون إلى المقاطعة المعادية التاسعة.. الأحمر ضد الأخضر

تبارزوا جميعًا بشكل استعراضي.. والنتيجة معروفة مسبقًا.. الغلبة للأحمر.

انفتحت صنابير جانبية علوية لتملأ القفص الزجاجي الكبير بالخمر عن آخره..

ظهرت مجموعة أخرى من الراقصات و خلعن ملابسهن بطريقة

مثيرة قطعة قطعة..

مازالت الأخريات تلعقن قفص الذئب في الجهة الأخرى وفي المنتصف يطلق الغرباء خنخنة الخنازير والطبول تُدق في الخلف بإيقاع ثابت.

ركضت أعين الرجال الحضور من الورثة إلى أجساد الراقصات البيضاء التي تفوح منها رائحة الورود. ووجوههن المثيرة الداعيّة للبغاء من دون استئذان.. القانون يسمح لهم بذلك.. يمكن للورثة أن يمارسوا الفضيلة مع نساء البارون بلا قيد أو شرط, ولكن العكس غير صحيح فالبارون لا يمارسون الفضيلة إلا مع نسائهم ومحظور عليهم حتى النظر إلى نساء الورثة.. وإن جنت أفعالهم تلك على أطفال مجهولي الأب.. ولذلك في ذئبستان يُنسب الطفل إلى أمه.

اشتعلت الرغبة في نفوس الحضور .. تراها تضوي في أعين الجميع.

صعدت كل منهن سلم علوي فوق المنصة وقفزن داخل القفص الزجاجي الممتلئ عن آخره بالخمور.

يتراقصن داخله والخمر يغطي رؤوسهن ويشربن منه بأسرع ما يمكن دون أن يتوقفن عن الرقص المثير.

زادت الطبول إيقاعًا مع تعالى صوت الخنخنة.. وامتزجت الأصوات بصوت عواء جماعي للحضور يشبه عواء الذئب.

وفي المنتصف نهض شاب من الغرباء واستقام واقفًا.

اقترب منه أحد البارون في عصبية و علا صوتهما على تلك

الأصوات الممتزجة:

--وقوفك ضد القانون أيها الغريب.

--أنا فاضل أمارس الفضيلة بتصريح من المعسكر.

--أين تصريحك؟

أخرج له ورقة صغيرة

--هذا تصريح معسكر الفضيلة مدون فيه تاريخ الالتحاق.

قرأها الرجل ثم ناوله إياها

--حسنًا.

تحرك الشاب متعجبًا في كل جوانب المسرح متأثرًا بما يرى.. الراقصات تعافرن لتبقى على قيد الحياة بشرب الخمر الغارقات فيه.. وأمثاله من الغرباء كالخنازير لا يستطيعون رفض أي شيء.. وتلك اللاعقات لقفص الذئب.

كان بين الحضور الرسول ضرغام الذي هدد النبيل فهد بشكل رسمي صباح ذلك اليوم بخسارة الحرب الدائرة عقوبةً على التجسس المُجرّم دوليًا.

لم يصدق ما تراه عيناه حينما شاهد تلك الفتاة التي طالما حلم بها طوال السنوات الماضية(حنين).. إنها هي، وسط هؤلاء الغرباء تصدر ذلك الصوت الكريه.. ما زالت تحتفظ بنفس الجسد المثير كأن السنين لم تمض بعد.. اعتدل في مكانه وهو يُمني نفسه بلقائها بعد الحفل بأية طريقة.. سيخاطر من أجلها هذه المرة فهو في الكفة

الرابحة، وخطأ كلقائها بعيدًا عن أعين الذئب في أدغال المقاطعة لن يزحزح مكانته الحالية.. فهو الآن في مكانة تختلف كليًا عما كان عليه منذ عقد من الزمان.

عقد العزم على ذلك وتعالت رغباته عنان السماء لمجرد تخيله أنه سيحظى بها ويصيران كالجسد الواحد.

وقف رجل آخر من البارون في منتصف المسرح وأخرج كشفًا وقرأه:

--في العيد الوطني للذئب يُعدم كل خائن وثائر وخارج عن النظام..

يُعدم كل من يعجز عن العمل إما تمردًا أو مرضًا.

والجميع يُحرم من دخول المستودع.

المستودع في ذئبستان هو غاية الجميع للراحة في عالم ما بعد الموت.. ذلك الصرح الضخم في جنوب البلاد.. مكان لم يدخله أحد حيًا حتى وإن كان من الورثة.. هو الجنة بالنسبة إليهم والراحة من عناء الدنيا.. ولكن دخوله مشروطًا.. فإن كنت من الورثة فتُسلم جثتك في جنازة مهيبة على أبوابها لحراسها، وإن كنت من البارون فتُحرق جثتك ويُسلم رمادها فقط على نفس الأبواب مع كتابة اسم المُحترق على علبة الرماد الخاصة به.. وإن كنت من الغرباء فيشترط أن يحصل أهلك على شهادة تفيد بحسن الطاعة والمذلة طوال فترة الحياة مُوقعة من نبيل المقاطعة وتسليمها مع رماد الجثة إلى باب المستودع ذي الأسوار العالية في السماء.

المرض والعجز للغرباء يحرمهم من تلك الشهادة الموقعة من النبيل ولذلك يلجأ البعض للانتحار لإنهاء حياتهم من دون عجز عن العمل ولكن شريعة جديدة تم إضافتها مؤخرًا إلى شرائع الذئب شلت تفكيرهم.

«الانتحار يحرم صاحبه من دخول المستودع أي كانت فئته»

أدرك الغرباء أن تلك الشريعة خاصة بهم.. فلن يلجأ الورثة ولا البارون إلى الانتحار أبدًا.. فكل الشرائع تضرهم في المقام الأول.

شرع الرجل في قراءة الأسماء في كشفه وورد اسم (حنين) في نهاية تلك الأسماء.. ووقع اسمها على سمع ضرغام كالصاعقة.. ستموت حنين بين لحظة وأخرى ولن يتمكن من الفوز بها ولو لدقيقة واحدة.

مازال الشاب الغريب يتجول منتصبًا في كل المسرح بين الجميع والنساء الغارقات تموت الواحدة تلو الأخرى والخمر يتناقص.. والأخريات يلعقن قفص الذئب وبعض الغرباء يصدرون خنخنة الخنازير من دون توقف وبعض البارون يجرون فرنًا كبيرًا ممتلئًا بالفحم وفوقه أسياخًا من الحديد بعدد كبير.

برقت عينا ضرغام وهو يشاهد البارون يربطون حنين وغيرها من الغرباء فوق الأسياخ ويشعلون النيران.. وفي لحظات معدودة يصرخ فيها الشاب عاليًا تستطيع آخر راقصة من إنقاذ نفسها بشرب الخمر الغارقة فيه بعد موت كل الراقصات غرقًا وتنشوي أجساد الغرباء أحياء.. تتعالى الصرخات وتمتزج مع صرخات الشاب ويصدر الحضور صوت عواء الذئب الماكث في قفص تلعقه راقصات البارون

الأرامل.

تلاشت صرخات الغرباء وماتوا محترقين بالنيران وتحولت أجسادهم إلى اللون الأحمر وانتفخت.. تستمع إلى صوت انفجار أمعائهم وتَصلُّب لحومهم.. اشتموا رائحة يعرفونها جيدًا فقد اعتادوا على تلك الفقرة في احتفال عيد الذئب منذ نشأة ذئبستان.. بقى شيئًا واحدًا فقط.. في لحظات بدأ الأحياء من الغرباء في نهش الأجساد المشوية على النيران والأكل منها بأسنانهم.. المثير للعجب أنهم يستمتعون بمذاقها وكأنهم ينتظرون تلك اللحظة من العام للعام.. أو هكذا يُظهرون قهرًا.

تترنح الراقصة الناجيّة ناحية الشاب وتُمسك به وتجبره على النوم أسفلها.. لتبدأ ممارسة الفضيلة معه وسط الحضور المهللين لهم.

الغرباء يأكلون بعضهم البعض.. الطبول تزداد إيقاعاتها.

لم يتحمل القرد أكثر من ذلك فما شاهده اليوم فوق ذلك التمثال الملعون كفيل باستحقاقه لذلك اللقب الذي أطلقه عليه أقرانه حقًا

--المجذوب.

قفز عائدًا إلى الغابة وقلبه يعتصر على حال تلك البلاد.. عاد مختنقًا فاقدًا أي أمل في التغيير.

دخل غابة المقاطعة وهو يتابع البعض من بارون الورثة ممن استغلوا تلك المناسبة الوطنية وتسللوا ليمارسوا الفضيلة مع من شاءوا بعيدًا عن عيون الذئب في أطراف الغابة بعيدًا عن الأدغال الخطرة.

بحث كثيرًا عن شجرة خاوية أملًا في هواء نظيف دون جدوى.. كل شيء حوله يدعو للاستسلام.. حتى استقر بمفرده فوق شجرة في أطراف الغابة على مشارف أدغالها.

سمع همسات أسفلها بعد لحظات.. تبًا لذلك ! لا يوجد مكانًا واحدًا يجلس فيه بمفرده في ذئبستان بأكملها.

استرق السمع إلى تلك السيدة أسفل الشجرة ومن معها.. كانت تهمس على غير العادة من رواد الغابات وجسدها ينتفض:

--لن أصبر أكثر من ذلك يا فارس.

--اهدئي يا أمي.. فلنفكر جيدًا في حل لتلك الأزمة غير الهروب.

--لن أنتظر حتى تمارس الفضيلة معي في ذلك المعسكر اللعين.. ابن يمارس الفضيلة مع أمه؟

ما هذه الشرائع الطاغية الجديدة؟ إلى متى سنوافق على ما يُفعل بنا؟

--اصبري يا أماه.. يقول حاكم معسكر الفضيلة إنه قرار جديد ونحن أول

من سينفذه ولذلك لربما لو أصررنا على الرفض جميعًا.. ربما يعدلون عن ذلك.

--أنت لا تعرف الورثة وشرائعهم يا بني.. لطالما استحدثوا شرائعًا

ظننا أنها مستحيلة التنفيذ ومع ذلك مضينا صاغرين دون أن نستطيع الاعتراض.

إنهم يستمتعون بذلنا.

--حسنًا.. وإن هربنا كما تريدين فإلى أين؟ كل المقاطعات في ذئبستان

تنفذ الشرائع مهما كانت عواقبها لبعضهم البعض.

لكن الذئب لم يمهلهم أكثر من ذلك وعلى الرغم من خلو الغابات من عيون الذئب إلا أن مجموعة من البارون الأحمر ظهروا فجأة و حاوطوا الاثنين.. ربما كانوا يراقبونهما بنجاح.. أشهروا سيوفهم على مقربة من جسديهما وصاح أحدهم:

--أتعتقدين أنك قادرة على مخالفة شريعة الذئب؟ اقبضوا عليهم.

النسخة الأخيرة

(الصحراء الغربية)

أمسك الطفل الصغير (حلم) بالكتاب.. تلك الأمانة التي أوصاه بها جده الراحل قبل موته بلحظات..

احتضنه بيديه أمام جسده الضئيل وهام على وجهه في الصحراء باحثًا عن قطرة مياه تقيه الموت المُنتظر.. ظل يومين في جوار البئر حتى جفت مياهه.. دفن جده في مكانه ورحل.

تشققت شفتاه من العطش ومازالت السماء تُحكم وثاقها على مياهها من دون إفراج ولو للحظات.

--أين ذهب الناس؟

لم يجد إجابة لهذا السؤال.. فآخر ما وقعت عليه عيناه منذ عامين قبل فرارعائلته بحثًا عن النجاة بعيدًا عن الحي الممتليء بالسكان المتساقطين عطشًا يومًا بعد يوم.

وبالأخص بعد مهاجمة رجال السلطة لعائلته واعتقال والده دون سبب واضح.

حينئذ هرب جده بصحبة والدته إلى ذلك المكان الصحراوي المحيط لبئر المياه.. هجرة جبريّة دون أن ينطق أو يفسر سبب غياب والده.. بل كان يلوذ بالصمت كلما سأله عن موعد عودته.

كانت بلاده صاخبة ممتلئة بالأضواء حتى مطلع الفجر.. هكذا قص له جده.. يعيث سكانها فسادًا في شوارعها ليلًا نهارًا دون نوم.. إنهم

يمارسون الرذيلة في الطرقات.. بل والأكثر من ذلك.. يعايرون من يستتر خلف جدران البيوت حتى صار الشرف وصمة عار يعاقب عليه صاحبها طبقًا لعاداتهم وتقاليدهم.

لطالما حدثه جده ومن قبله والده عن انتقام سيحل ببلادهم لكثرة فساد شعبها.

وها هو يعيش ذلك الانتقام ويراه رؤى العين.. فمنع المياه وجفاف الأنهار تساقطت معه الناس كالذباب المسموم وانتشرت الأمراض وعجز الأطباء عن إيجاد الحلول التقليدية أو الاستثنائية للخروج من الأزمة.

احتضن كتابه متسائلًا عن ذلك الوريث وهل سيعثر عليه حقًا كما أخبره جده؟

نظر حوله.. أنه قريب من الطريق الموصل للمدن.. يلوح في الأفق عن بعد منطقة للمراوح الهوائية المولدة للكهرباء.. ولافتة كبيرة «الكيلو ٥٠»

تثاقلت خطواته وساوره الشك في النجاة.. نظر للكتاب وراودته فكرة للتو.. جلس القرفصاء وبدأ في الحفر ودفن نسخته تلك وأهال عليها التراب.. أمسك مجموعة من الأحجار ووضعها فوق الرمال وكأنه شاهد لقبر فارغ إلا من كتابه.. نظر حوله ليحفظ ذلك المكان عن ظهر قلب.. على نفس اتجاه أول مروحة هوائية.. هكذا أفضل فهو لا يعرف ما ينتظره في تلك المدينة القريبة.

تحرك ناحية الطريق ربما ينقذه أحدهم ولكن هيهات فالطرق

خاوية إلا من جثث تعفنت وهياكل عظمية داخل العربات.

سقط الطفل أرضًا ونظر إلى السماء للحظات.. إنها النهاية إذًا.. تثاقلت عينيه وهوت مقاومته ..استمع حينها لصوت صهيل خيول.. نظر بالكاد نحو مصدر الصوت.. مجموعة من الرجال في زيّ باروني يقتربون..

تقدمهم أحدهم نحوه وجثا على ركبتيه متفحصًا وجهه:

--لقد وجدنا ضالتنا أخيرًا.. إنه الطفل المطلوب.

معسكر الفضيلة

«سيأتي زمان تمارس فيه النساء الفضيلة مع أولادهن بمباركة القانون وبأمره ومن أول رحم جبريّ يولد الخلاص»

عجائب الأمصار في ذئبستان

المؤلف:مجهول

***

(اليوم التالي لعيد الذئب-عام ٢٠٥ بعد الإنشاء)

انفتحت أبواب المعسكر في تمام السابعة صباحًا أمام حشود الغرباء الماشين على أربع ونسائهن في صحبة أطفالهن الرُضع الذكور المعلقين في أحزمة سوداء من القماش حول صدورهن.. فاليوم ميعاد تنفيذ إحدى شرائع الذئب الدورية دون نقاش.

«معسكر الفضيلة واجب وطني إجباري على رجال ونساء الغرباء فقط.. ومواليد المعسكر من الذكور يُصطفى عُشرهم (١٠٪) بمعرفة حاكمه, والباقي ثُبتر بهاريزهم»

في ذئبستان يطلقون على الأعضاء الذكورية اسم (بهاريز ومفرده بهرون)

هنا يُخصى تسعة أعشار أطفال الغرباء والباقي يُترك لضمان استمرار نسل العبيد.

تلك الشريعة القاسية رضخ لها من كان يبحث عن أمان تفرضه ذئبستان داخل حدودها.

اخترق (شاهد) رئيس بارون المعسكر تلك الحشود الصامتة فوق جواده.. السماء ملبدة بالغيوم وتنذر بيومٍ ممطر.. ترجل وسط المعسكر بقدمه العرجاء.. تلك التي أُصيبت في إحدى معارك المقاطعة الشرسة قبل نقله رئيسًا للبارون في معسكر الفضيلة.. كان فارسًا مغوارًا هابه الأعداء وتنفسوا الصعداء بعد ابتعاده عن ساحات المعارك الحربية.. بالإضافة إلى عينيه اليمنى الزجاجية التي زرعها له الأطباء تعويضًا جماليًا عن تلك التي فقدها في أحد المعارك. تنهد شاهد متفحصًا تلك الوجوه المقهورة الصاغرة بينما استقبله أحد الحراس:

-عمت صباحًا سيدي شاهد.

لم يجبه.. نظر ناحيتهم في شفقة مستترة.. نقم شاهد على تلك الشرائع بشدة وبالأخص المتعلقة بالغرباء والإصرار على إذلالهم بهذه الطريقة،ولكنه اعتراض صامت لم يخرج من صدره مطلقًا.. لم يجرؤ على ذلك.. لم يقو أحد على العصيان مهما بلغ الرفض والاستنكار.

ذلك المعسكر الذي قضى فيه ما يقرب من خمسة عشر عامًا بين جدرانه المتشبعة بقهر نساء يعانين ظلمًا تحت شبابٍ يمارسن معهم الفضيلة بالأمر طبقًا لجدول زمني حتى تحبل إحداهن فيتركونها لتضع مولودها الذي يمر من بوابات الخصي في أسبوعه الأول فإن تم اختياره ضمن المحظوظين برجولة يمنحونها لحفنة قليلة منهم يتركونه حتى يبلغ أشده ليعود ويُسلم نفسه فاضلا دوريًا لمدة لا تقل عن عشرين عامًا ينتصب فيها طوله عاليًا ثم يخرج بعدها ليزحف على أربع ممارسًا أعمالًا أخرى كغيره من الغرباء حتى نهاية حياته..

أي أن أفضل طبقات الغرباء هم الفاضلون الممارسون للفضيلة خلف أسوار المعسكر.

مئات الآلاف من الغرف الصغيرة في مبانٍ سوداء الطلاء متوازية لا تتعدى الدورين.

تحرك شاهد ناحية أحد المباني وصعد درجات السلم الخرسانى متوجهًا إلى آخر غرفة في الطابق الأرضي.. دفع بابه الخشبي بعد أن فتح قفله الخارجي فأصدر صريرًا اخترق السكون خلفه.

ترجل إلى الداخل ووقف بالقرب من تلك السيدة العنيدة (وعد) وقد جُردت من ملابسها تمامًا عاريةً كيوم ولدتها أمها، تنتظر مصيرًا محتومًا ينبيء بغضب الذئب وورثته على تجرؤها لرفض شريعة من شرائعه.. غضبٌ كالجحيم سيلتهمها عاجلًا لتصبح عبرة لغيرها.. يتسلل ضوء النهار إلى وجهها عبر شباك علوي حديدي لا يسمح بمرور غير الحشرات وعلى يسارها قطع متناثرة من القطن.. يبدو أنها مزقت فراشها الليلة الماضية.. وقفت تنظر لأعلى ناحية ضوء النهار ولم تلحظ وجود شاهد.

--كيف حالك اليوم؟

لم تلتفت إليه.. تنهدت في مكانها:

--أنتظر الموت.

--ربما يعفون عنك.

التفت حينها واقتربت منه ساخرة بابتسامة باهتة:

--أنت من تقول ذلك.

--لطالما نصحتك بالرضوخ حتى تعيشين حياة هادئة كنت على مقربة منها يا وعد.

--أي حياة تلك التي تبدأ وتنتهي تحت الأقدام يا سيدي؟

--لن تغيري الكون.

--الكون ليس ملكًا للذئب.

قالتها في عصبية فقاطعها شاهد سريعًا:

--صه.. ألم يكفيكِ ما أنتِ فيه؟

--لا تخف.. فعيون الذئب لا تصل إلى هنا.

--كفاكِ عنادًا.

نظرت في عينيه عن قرب:

--هناك أمرٌ يُحيرني.. أنت! رئيس البارون هنا في معسكر الفضيلة..

ومع ذلك تمتليء نفسك بالكره لكل الشرائع الحاكمة.

--غير صحيح.. من قال لك ذلك؟

--عيناك.

--هراء!

--حسنًا.. أنا أعلم الحقيقة.

--أي حقيقة؟

--حبك القديم لفتاة من الغرباء..

كيف خاطرت بكل شيء من أجلها.. وتمنيت لو وجدت طريقًا إلى خارج

ذئبستان.. أنسيت عذابك وهي تمارس الفضيلة الجبرية كل يوم طبقًا لجدول ملعون وتضع أطفالًا ليسوا منك؟

وتلك الليلة التي قتلت فيها نفسها بيدها منتحرةً لتضع حدًا لذلك العذاب اللامتناهي في حبٍ

لن يعمر مهما حاولتم.. أما زلت تذكرها؟؟

--من أين لكِ بكل هذه المعلومات؟

--منها.. كنت على مقربة منها حتى موتها.

سالت دموعه من دون تحكم فجأة.

--الآن تبكي.. ألم تقو يومًا على الصراخ لأجلها؟

الثورة على تلك الشرائع وإن كان مصيرك الموت؟

أتبخل على روحها بكلمة حق؟

--أي ثورة تريدين يا وعد؟

الثورة هنا تعني الجنون.. صراخ في الهواء..

هراء كالمسخ لن يجدي أبدًا.

--أعلم أنك غيرهم.. منذ أن رأيتك وأنت تحاول التكفير

عن خطيئتك تلك بحسن معاملتنا والحديث معنا بلطف..

تعتبر تخليك عنها خطيئة لا تُغتفر.. كلنا ندرك ذلك..

ولكن عليك أن تعرف أن صمتك هذا جريمة نكراء.

--الجريمة هو ما فعلتيه بالأمس.. سيجعلونك عبرة للخارجين عن قانون الذئب.

--وأنت؟

--سأنفذ ما يمليه عليّ القانون.

--خسارة.

قطع حديثهما أحد الحراس:

--سيدي شاهد.. السيد شديد حاكم المعسكر يريدك أن تحل محله في الإخصاء اليوم.

--حسنًا.

خرج الحارس والتقت عينا شاهد ووعد قبل أن يخرج هو الآخر منكسرًا مصطنعًا القوة والثبات.. أغلق الباب عليها من جديد لتعود إلى ظلامها النفسي وترقبها للموت.

نُصبت آلات الخصي فوق منصات خشبية عالية بالمئات في باحة المعسكر وانتشر البارون العاملين هناك والمسئولون عن التنفيذ بين حشود نساء الغرباء المُنتظرات نول شرف الفاضلين الجدد.. ظأطأت الرؤوس وتعالت أصوات بكاء الأطفال بعد أن تركتهم أمهاتهم على

مخادع صغيرة بجوار كل منصة متراكمين في جوار بعضهم البعض.. مئات الآلاف من الأطفال وضعت ملصقات تحمل أسماء أمهاتهم حول معاصمهم.

جميع النساء العبيد هنا سيمضون إلى غرف ممارسة الفضيلة بعد الحصول على ختم الخصيّ في تصريحها المكون من عدة أوراق.. عشرون ختمًا هم الهدف لكل غريبة منهن.

تتمنى كل منهن أن يصير أولادها جميعًا فاضلين ليصبحوا ذوي مكانة بين الغرباء.

زاغت أعينهن وتعالت أصوات قلوبهن المرتجفة.

صلبان خشبية صغيرة فوق المنصات يُربط عليها الأطفال في حضور الأطباء التابعين للنظام الباروني والمنتسبين إليه.

وقف شاهد فوق مبنى علوي يتوسط المعسكر وفي جواره بعض الحرس.. نادى أحدهم عاليًا بصوت جهوري فارتفعت الرؤوس ناحيتهم:

--والآن تعلن أسماء الفاضلين الجدد.

أشار له شاهد بيديه ليصمت حارسه مؤقتًا وشرع هو في الحديث إليهم متنهدًا على غير اقتناع:

--اعلموا جيدًا أن ما يدور، وما يحدث لكم في مصلحتكم جميعًا..

سواء كنتم أمهات لمجبوبين أو فاضلين فهو اختيار الذئب لكم..

وعليكم بالرضا والقبول والعيش في سلام.

--عاش الذئب العظيم.. عاش الذئب العظيم.

رددتها الأمهات بأصوات مختنقة حزينة تحاول اصطناع الفرحة.

أشار شاهد لأحد الحراس فبدأ في قراءة كشف بأسماء الفاضلين الجدد.. الأطفال الناجين من الإخصاء.

ومع كل اسم تنطلق الزغاريد فرحًا من بين صفوفهن المحتشدة أرضًا وتمتزج بصوت بكاء أطفالهن الرضع.

عدة ساعات انتهى فيهم الحارس من آخر اسم في القائمة في حضور شاهد.. وزّد أصحاب تلك الأسماء إلى أمهاتهم وانصرفوا بهم على أن يسلموا أنفسهن إلى المعسكر بعد أسبوع على الأكثر ليعاودن الكرة من جديد.

وجاء الآن موعد الإخصاء.. رُبطت الأطفال الباقية على الصلبان الخشبية ومُدت مقصات الأطباء وبترت رجولتهم المُنتظرة.. تلك الأعضاء الطازجة التي تُعتبر من وجبات الورثة المُفضلة.. يمكنهم تناولها مشوية مع الأرز أو محشوة بالفريك.. أو أطعمهم على الإطلاق (فتة البهاريز-هكذا يطلقون عليها وتعتبر من أغلى الأكلات في ذئبستان).. انسابت الدماء من الأطفال سريعًا ولاحقهم الأطباء بغمس الجروح في إناءات صغيرة مليئة بالزيوت المغلية يتبعه تأكد من سلامة مجرى البول وإن ثبتوا أنبوبًا صناعيًا يحافظ عليه في بعض الحالات.. ثم يسلمونهم إلى أمهاتهم مع عجائن من الطين والزيوت الطبيعية لتُدهن على مكان الجرح عدة أيام.

«على أمهات المجبوبين سرعة استلام أولادهن وإخلاء المعسكر»

***

(قصر النبيل فهد)

«بلغني أيها النبيل السعيد ذو العمر المديد.. أنه في زمان بعيد قد عمّه الحب والعدل..

على يد نبيل يمتلىء قلبه بالسعادة.. يمشي في الميادين يجني ثمرته من حب الناس

ورضاهم.. و..

قالتها (فيروز) الزوجة الوحيدة للنبيل فهد جالسين في حوض السباحة المُلحق بغرفتهما والممتلئ بالورود الحمراء البديعة الرائحة والتي يغيرها الخدم يوميًا مع المياه.

قاطعها فهد جاذبًا إياها ناحيته ليُقبل شفتيها الصغيرتين:

--ألن تكفي عن حكاويك تلك؟

امتزجت شفاهما في قبلة طويلة ذاق فيها حلاوة لا يسلاها طوال سنوات زواجه الاثنى عشر..

تلك الملاك التي عزف عن غيرها على الرغم من شرائع الذئب التي تتيح له الزواج بعدد لا نهائي من نساء الورثة ولكنها أكفته عن نساء الدنيا بأكملها.

--أخاف على طفلنا من الناس.

قالتها وهي تُقبل خديه.

--أي ناس؟ الورثة؟ البارون؟ أم الغرباء؟

--حين ينتشر الظلم يصبح الناس كافة قوة واحدة ضده.

--طلبت منك كثيرًا الكف عن قول تلك الترهات.

--وأنا لن يتملكني اليأس من يوم ما قد يتساوى فيه الجميع في الحقوق.

نهض فهد من حوض السباحة وارتدى ملابسه وجلس فوق مخدع قريب واقتطع فخذًا مشويًا من قردٍ وُضع فوق مائدته والتهمه.. إنه القرد المتهور بابون وقد وقع في شباك الورثة بعد طول فرار لاقترابه دائمًا من مناطق الخطر.. نظر فهد مُستمتعًا بمذاقه اللذيذ تجاهها:

--إنها إرادة الذئب.

نهضت ناحيته بحذر فقد مضى على حملها قرابة الشهرين واحتضنته من الخلف:

--هل رأيت الذئب من قبل؟

--وهل الذئب يُرى؟

--كلا ولكن أيمكن أن نتبع شرائعه هكذا من دون تيقن من وجوده؟

--الذئب موجود ويرى كل شيء.

--عبر عيون حديدية موصلة إلى قصور النبيل الأكبر أليس كذلك؟

--نعم.

--حسنًا.. هذه العيون غير موجودة هنا في داخل قصرك..

وأنا أقف هكذا عارية في غرفتي وأنادي بعلو صوتي:

فليذهب الذئب إلى الجحيم.

--صه يا فيروز.. أتريدين أن يستمع إليك أحد البارون ويجلبون لي مشاكل أنا في غنى عنها؟

--حبيبي.. أريد منك وعدًا.

--أي وعد؟

--أن تصل إلى منصب النبيل الأكبر مهما كلفك الأمر وحينها تصبح في المنصب العلوي في البلاد.. أتدري معنى ذلك؟

--نعم.. سأصبح العين الكبرى للذئب.

--وأريدك أن تفقأها.

--أفقأها؟

--نعم.. حينئذ تعدل كفة الظلم وتعطي الناس حقوقها وتساوي بينهم..

سيحبونك ويهتفون بحياتك ويقفون وراءك إن فكر الذئب في الانتقام منك..

هذا إن كان له وجود من الأساس.

--يا حبيبتي إن تلك القصص التي حكتها لك جدتك ليس لها أساس

من الصحة.

--لا.. أشعر بأنها حقيقية.

--الورثة الأوائل خلقوا الذئب كفزاعة للجميع، وهم من وضعوا الشرائع، ونَصّبوا عائلة منهم للنبالة الكبرى ووثّقوا ذلك في كتاب حرقته بعد ذلك تلك العائلة ودُفنت الحقيقة وأصبح الذئب واقعًا لا ينكره غير ورثة النبالة الكبرى فيما بينهم.. لقد سئمت ذلك الهراء!

--لا.. كل شيء حولنا يؤكد ذلك.. منع تداول الكتب بأنواعها.. التعليم في طبقتي الورثة والبارون تعليمًا شفهيًا محظور أن يخرج مكتوبًا على أوراق.. حتى الأوراق الحكومية والتصاريح تخرج في أضيق الحدود.. ذلك الرعب من المعرفة في ذئبستان.. هل تعرف شيئًا عن تاريخ ما قبل ذئبستان؟ وأنت نبيل إحدى المقاطعات العشر وأكثرهم ترشيحًا للنبالة الكبرى.. هل تدرك شيئًا عن البلاد خارج حدودنا؟

الإجابة..لا.. والسبب الذئب يريد ذلك.

قالتها بسخرية شديدة.

--فلننه هذا الحديث الآن.

--عدني أرجوك.

تحرك تاركًا إياها متجهًا نحو حوض السباحة مرة أخرى وباعدًا بيديه الورود ليرى وجهه في سطح المياه بضيق:

--أرجوك أنت يا فيروز.. أن ذلك الطفل الرابض في أحشائك تمنيته

اثنى عشر عامًا..

إنه الوارث لكل ما أنا فيه.. إنه السند بعد الكِبر.. كل ما أريده منك أن

تضعيه لي في سلام وترعينه حتى يكبر ولا تشغلي بالك بالسياسة والناس.

اقتربت منه فيروز ماسحة بيدها فوق وجهه في حنان:

--أتضايقك تلك البحور يا عزيزي؟

--كل الضيق.

--أتشعر أنها تُحيل وجهك إلى القبح رغم وسامتك؟

--نعم.

--هكذا يراك الناس.. بحور الظلم تشوه روحك.

--لقد سئمت منك.. سأخرج تاركًا لكِ القصر بأكمله.

تركها وخرج في عصبية بعدما ارتدى ثيابه.. تابعته بعينيها متنهدة مشفقة عليه من ذلك الصراع الدائر في داخله بين الحق والضلال.. كثير من الناس في ذئبستان تمتلىء صدورهم بالثورة الصامتة ولا يستطيعون النطق بأي شيء.. ثورة ذليلة تنتقص إلى القوة.. الخرس هو ملاذهم الوحيد خوفًا من الذئب وبطشه المزعوم.. ذعرًا من الحرمان من المستودع بعد الموت.

***

دقت ساعات العمل في معسكر الفضيلة، وتصاعدت أصوات آنات نساء الغرباء الديناميكية خلف أبواب غرفهن وامتزجت.. آنات إجبارية، فقد لاحظ السيد «شديد» حاكم المعسكر خفوت أصواتهن أثناء ساعات ممارسة الفضيلة الرسمية ذات مرة وكاد أن ينعدم فأصدر أمرًا ووقعه من النبيل فهد يفيد بمعاقبة النساء الكاتمات لأصواتهن بالحبس داخل المعسكر لمدة عشرين يومًا.. وعدم السماح لهن بالعودة إلى بيوتهن للاعتناء بأطفالهن أثناء الليل.. فعادت الآهات تنطلق على أشدها مجددًا وإن كانت مصطنعة فاترة.

في إحدى الغرف المحبوس فيها الفتى فارس الذي لم يُكمل عامه العشرين قضى السيد شديد يومه منذ الصباح الباكر وغاب عن الإخصاء برمته خلف أبوابه الموصدة من الداخل.. لا يعرف أحد لماذا مكث كل تلك المدة هناك؟ ولكن شاهد يعرف كل شيء.. يعرف أن شديد ذلك الرجل الضخم ذو الأوداج المنتفخة والبطن الدائرية الكبيرة وصاحب الشارب الكبير الخشن فوق فمه الأسود من كثرة التدخين لا يفرق شيئًا عن تلك النساء وربما هو الاسوأ على الإطلاق فيما يفعله سرًا مع شباب الفاضلين.

في البداية لم يتخيل شاهد ذلك مطلقًا ولكن بعد أن شكا له فارس محاولات شديد معه والتحرش به عنوة عدة مرات حتى تأكد من ذلك بنفسه متلصصًا عليه.

على الرغم أن ذلك الأمر لم يُذكر بالسلب أو الإيجاب في شرائع الذئب ولكن النفس البشرية على فطرتها تمقته وتحتقر فاعليه وممارسيه.. وهذا ما شعر به شاهد كاتمًا غضبه وجموحه المُصرين

على فضح شديد.. لطالما فكر في الإبلاغ عن أفعاله وإخبار النبيل فهد ولكنه عدل عن ذلك لعدم وجود أي دليل يُذكر غير أقوال بعض شباب الغرباء الذين لا يُعتد بهم في الدولة الذئبيستانية.

ذات يوم ركع شديد على ركبتيه وتوسل إلى فارس ليطاوعه.. ذلك الضخم ذو الخمسين عامًا يتوسل لفتي يصغره بأكثر من ثلاثين عامًا.. ولكنه رفض رفضًا باتًا.. فأمر بمعاقبته ضربًا بالسوط في باحة المعسكر مائة جلدة.. وكرر الطلب أكثر من خمسين مرة وفي كل مرة يزداد إصرار فارس على الرفض.. تحداه في شيء لن يجرؤ عن الإعلان عنه لكونه غير مُدرج في شرائعهم.. مع أن كل ما كان يخاف منه فارس في الفترة الأخيرة هو إصدار تشريع جديد يجبره على تلك الفعلة الشنيعة.

ذلك الفتى المفتول العضلات المتشبع بالفحولة.. وقع شديد في غرامه وسرى عشقه في دمه وتملك قلبه وربما يكون تلك الشريعة الجديدة التي تسمح بتفاضل الأمهات من الأبناء هي من اقتراح شديد ورفعها إلى النبيل فهد ومنه إلى النبيل الأكبر في اجتماع مجلس الورثة وتم عرضها على الذئب ووافق عليها وصدر التشريع فقط ليساومه وينال ما يبغاه.. فارس.. هكذا اعتقد.

وهذا ما حدث بالفعل.. سبع ساعات كان الموت أهون فيهم لفارس قضاهم مع شديد..

أملًا في انقاذ والدته (وعد) من مصيرٍ حتمي بالموت والحرمان من المستودع لهروبها ليلة أمس وامتناعها عن تنفيذ شريعة الذئب الجديدة.. هكذا أقنعه شديد.

«أريد أن أستمتع معك و سأحميك أنت ووعد»

وانفتح باب محبسه وخرج السيد شديد مهتريء القوى يُهندم ملابسه مُتنهدًا رامقًا ورائه فارس يُفرغ ما في بطنه وأغلق الباب.

ترجل إلى مكتبه وأمر بكوبٍ من القهوة وظل صامتًا هادئًا حتى قدمها له حارسه الخاص.. استمتع بمذاقها الرائع حتى آخر قطرة ثم نهض وأدار ذلك المذياع الصغير فوق طاولة مواجهة لمكتبه.. صوت موسيقى راقصة تحرك معه جسده السمين مهتزًا في سعادة.. فتح يديه جانبًا ودار في الهواء كأنه يوشك على الطيران.. ثم توقف فجأة.. تنهد ملتقطًا أنفاسه وذهب لينظر من شباكه الخشبي المفتوح على مصراعيه.. الساعة تقترب من الرابعة عصرًا.. الرياح تزداد حدتها وكأنها تُعلن عن عاصفة تقترب.. الشمس تختفي فوق كتل من السحاب والغيوم تحكم سيطرتها على سماء ذئبستان.

وقف شديد يتابع ما يجري في باحة المعسكر بعد صدور أوامره بالتنفيذ.

البارون يجرجرون وعد العارية إلى أعلى إحدى المنصات الخشبية بعد تبديل الصليب الخشبي بأخر أكبر حجمًا وطولًا .. ربطوها فيه فاتحين أقدامها ويديها.

نظرت بعينيها ناحية ذلك الشباك العلوي ورأت شديد.. كم تمقت ذلك اللعين! تعرف كل محاولاته مع ابنها فارس! تمنت لو تقتله يومًا.

وظهر فارس في حراسة البارون هو الآخر.. حينها خرجت كل نساء الغرباء والشباب من غرفهم وتابعوا ما يحدث طبقًا لأوامر

شديد.. الكل يشاهد ويستعبر ممن يخالف الذئب وشرائعه.

آلاف من العيون المرتقبة وسيدة مصلوبة عارية وابنها مثلها تحت المنصة.

احتشد الغرباء في الباحة زاحفين على أربع يتابعون.

مشهد يهواه شديد بكل جوارحه.. عشق الذل في عيون الجميع.. ذلك الذي يشعره بالانتشاء.

دقائق من الترقب المميت أنهاها شديد بإشارة من يده بدأ بعدها بارونه في جلد الغرباء بسياط موجعة صارخين فيهم:

--كونوا كالخنازير أيها الغرباء.

يتألمون ولكنهم يصدرون أصوات خنخنة الخنازير بأنوفهم أملًا في كف السياط عنهم.. امتلأت عيني شديد بالزهو والشر الممزوجين.

صعد أحد بارونه إلى المنصة وأمسك بسكين حاد في يديه ونظر ناحيته.. أشار إليه شديد في حدة.. دب سكينه في عين وعد.. صرخت عاليًا بألم لا يُحتمل.. صرخ معها فارس:

--أمي.. أمي!

حرك الرجل السكين بشكل دائري وانتزع عينها اليسرى في يده ووضعها في إناء صغير.. ثم فعل مثل ذلك في العين اليمنى.. صوت الخنخنة يتعالى وأصوات السياط تشتد على أجسادهم.. وكأن تلك السكين ثُدب في قلب فارس.. لم يتخيل أبدًا أن يخالف شديد وعده

بعدما نفذ له مراده.

باتت العينين في ذلك الإناء وصارت وعد بلا عينين.. تنزف الدماء من تجويفهما.. لاحقها رجل آخر بالزيت المغلي لوقف النزيف.. صراخ متناهي ووجع لا مثيل له.

ابتسامة غدر وخسة على وجه شديد.

هبط الرجل وفي صحبته الإناء.. ووضعه أمام فارس.. وبدأ غيره في قراءة الحكم المكتوب في ورقة بيده:

--أحكام: أوامر السيد شديد حاكم معسكر الفضيلة المقاطعة العاشرة..

أولًا:على المذنب فارس بن وعد أن يأكل عيني أمه أمام جميع الغرباء والبارون.

برقت عينا فارس.. ما هذا الحكم الجائر! تتأوه أمه من الألم وأحدهم يضربه بالسوط لينفذ الأمر.. وأخر يهمس له:

--افعلها لعلكما تنجوان.

كل شيء يدور على مرأى ومسمع من كبير بارون المعسكر السيد شاهد الناقم على كل شيء دون أن يقوى على الرفض.. كان واقفًا في أحد الأركان يتابع والدموع تملأ عينيه.

مد فارس يده وأمسك بعيني والدته وقربها مرتعشًا نحو فمه.. ليس هناك خيارًا آخر.. قضمها.. شيئ لزج ينساب إلى حلقه.. لم يتحمل فارس وأفرغ ما في بطنه بأكمله.

أشار بعدها شديد إلى الرجل القاريء للأحكام فأكمل:

--ثانيًا: يمارس المذنب فارس الفضيلة مع والدته علانية حتى ينتهي كاملًا

وإن خالف ذلك سيعيد الكرة عدة مرات حتى يُنفذ الحكم كما ينبغي.

ويتم ذلك في باحة المعسكر.

أحدهم قام بفك قيود وعد من الصليب الخشبي وتقييدها أرضًا فوق المنصة على الأخشاب..

جرجروا فارس للأعلى.. شديد يتابع بفرح ممزوج بالجنون.

وقف فارس وسط هذه البقعة العفنة من الكون مجبورًا شاعرًا بالظلم والقهر إلى أبعد الحدود.

توقف البارون عن ضرب الغرباء ليتابعوا تنفيذ الجزء الأهم من الحكم صاغرين متوجعين.

فكر كثيرًا في التراجع وقاوم السياط المتتالية عليه رافضًا التنفيذ.. دقائق على هذا الوضع وفارس لا يتحرك وأمه تصرخ:

--اقتلوني.. اقتلوني.

طل شديد برأسه من شباك مكتبه العلوي وصاح بأعلى صوته:

--نفذ الأمر يا فارس وإلا أمرتهم بفتح بطنها لتمضغ أنت أمعائها.

نظر فارس الى أمه المسكينة.. تمنى في هذه اللحظة أن يكون من

المجبوبين.. تمنى أنه عدمًا.

تبًا لذلك الشراب اللعين الذي يشربونه على أبواب المعسكر كل يوم ليثير رجولتهم على غير رغبتهم..(شراب الفحولة) صرخت وعد عاليًا:

--الموت للذئب اللعين.. الموت للذئب اللعين.

أخرج الرجل سكينه واقترب من بطن أمه.. برقت عينا فارس واقترب سريعًا ناحيتها واعتلاها..

التحم جسداهما كسكين تُغرز في صخر.. حاول مرات ومرات حتى تحققت مساعيهم.. سقطت دموعه أنهارًا وهو يفعلها وسط صيحات البارون وصرخات أمه المتكررة من دون توقف:

--الموت للذئب.. الموت للذئب.

هلل شديد بترانيم الذئب المقدسة وشاركه البارون بأصوات ترج المعسكر:

--يا ذئبي الكبير اصفح عن زلاتي وضعفي..

يا ذئبي العظيم أنا مِلك لك فكن لي آمنًا وآمانًا من الخراب.

سالت دموعي تحت قدميك فاقبلها أيها الذئب..

أنت الملك والحاكم.. أنت الملاذ.

انتهى فارس باكيًا بكل جوارحه وانتهت المحاكمة.. أشار شديد ناحية الرجل القاريء مرة أخرى:

--ثالثًا : تكرر ممارسة الفضيلة بينهما يوميًا حتى تحمل المُذنبة وعد.. ويُحبس الاثنان في المعسكر طوال فترة الحمل في حراسة مشددة حتى يُبتّ في أمرهما.. انتهى.

***

(بعد مرور سبعة أشهر)

مرت الأيام في ذئبستان كأسوأ ما مرت به منذ نشأتها.. فقد واجهت البلاد موجة حادة من الأمراض الغير مُدرجة في قائمة علاجاتهم وقد طالت الجميع غرباء وبارون وورثة.

ارتفاع حاد في حرارة الجسم ويتبعه أوجاع شديدة تنتهي بصاحبها إلى الموت.. أصبح شبحهم الوحيد الذي يباغتهم من دون سابق إنذار.. ولا يُجدي معه كونك من الورثة أو حتى من عائلة النبيل الأكبر.. بل أن أحدهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة من الغرباء وقف في سوق المدينة وصرخ بعلو صوته بعد أن انتصبت قامته لأول مرة:

--اللعنة على الذئب.. أشك بأنه مات من المرض هو الآخر.

ثم سقط ميتًا في الحال.. تناقل الناس الشائعات والأقاويل.. هل رحل الذئب عن عالمهم؟

أم أنه نزع الأمان عن المملكة عقابًا لهم على أي شيء فعلوه؟

لقد نفذوا شرائعه على أكمل وجه.. حتى وإن كان بعضهم يخرجون عن نظام الذئب فعقابهم نافذ بالحرمان من المستودع بعد الموت.. ومع ذلك لم تتوقف الحروب ظاهريًا تطبيقًا لتلك الشرائع ولكنها

حروبًا زائفة لا يتحرك فيها البارون إلا في أضيق الحدود حفظًا لماء الوجه..

غير أن القوتين الحاليتين متكافئتان بارونيًا.. المقاطعة التاسعة والعاشرة.. الحرب بين فهد ومارق.. تأكد الاثنان أنها لن تُحسم بالقوة.. بل بسياسة الخداع والنفس الطويل..

أغلب ثروات ذئبستان تكمن في مناجم الذهب المُكتشفة على أرضها.. مناجم مخفية كأبرز الأسرار البارونية ومن يخترق سريتها تُحسم له الأمور.

أفلت النبيل فهد من المكيدة التي أعدها له النبيل مارق-الجاسوسية- بذكاء منقطع النظير.

انشغل أطباء ذئبستان في البحث عن دواء يقضي على هذه الأمراض وتابعهم فهد عن كثب.

أما في معسكر الفضيلة نُفذت الشريعة الجديدة على أكمل وجه بشكل دوري حتى باتت كل الأمهات يمارسن الفضيلة مع أولادهن.

مرت الليالي القاتمة على فارس صامتًا.. ربما نسى لسانه الكلام بعد ما جرى يومها ولم يتبق له غير ذلك الناي المصاحب له منذ صباه.. أهدته إليه أمه ومنذ ذلك الحين وهو صديقه المقرب الذي لا يفارقه كجلده.

سمح له باقتناءه في زنزانته كاستثناء من حاكم المعسكر السيد شديد.

وانغمس فارس في حزنٍ لا نهاية له.. خرجت موسيقاه تثير

الشجن في نفس السيد شاهد كلما تصادف قربه من محبسه.. وكأن الناي يبكي كل ليلة عوضًا عنه.

وبقت وعد في محبسها تأكل غصبًا وتنام قهرًا بعد أن أُعلن حملها منذ ستة أشهر ونصف.. بات مولودها يتحرك في أحشائها مشفقة عليه من هذه الحياة الدنيئة المقبل على الولوج إليها.

انفتح باب محبسها ودخل شاهد.. عرفته من رائحته فقد دربت نفسها الفترة الماضية على التمييز بين الناس عن طريق عبق أجسادهم.

--شاهد!

--كيف حالك يا وعد؟

--ألم يصدر الحكم الأخير بعد؟

--لقد علمت من مصادري في قصر النبيل فهد أن هناك أمرًا بحرقكما وأكل جثتكما هنا في باحة المعسكر.

--ماذا؟

--الغريب أن ذلك القرار صدر يوم القبض عليكما..

وأُرجيء تنفيذه بالنسبة إليك بعد وضعك للطفل..

أما بالنسبة لفارس فكان واجب التنفيذ منذ وقتها.

ابتسمت ساخرة:

--وشديد هو من أرجيء التنفيذ له أليس كذلك؟

--ذلك المعتوه يذهب لفارس كل ليلة ويبلغ مبتغاه بكل يسر..

لقد تحول فارس إلى دمية مسلوبة الإرادة..

شاردًا طوال الوقت لا يتحدث ولا يتحرك من زنزانته الجبرية

حتى وإن سمح له بالتجول في أرجاء المعسكر لا يخرج.

--لقد قتلنا الذئب.

--الناس في الخارج يموتون بالأمراض حتى الورثة.

--جزاء ذنوبهم.. فليتجرعوا كؤوس القهر عن آخرها.

--معك كل الحق.. إن ذئبستان تستحق المحو من الوجود.

--شاهد.. لماذا لا تقتل شديد؟

قالتها هامسة بعد أن اقتربت منه في حذر.

--ماذا تقولين؟

--نعم تقتله بعيدًا عن أعين الذئب.. ولن تُكتشف فعلتك.

انتقم لنا ولنفسك.. إن حبيبتك انتحرت بسبب تلك الشرائع

التي يُنفذها شديد بكل إخلاص.

--لست مؤهلًا لقتل أي إنسان.. للأسف.

--بعد كل هذا الظلم.

--لا أستطيع يا وعد.. إن القتل مهارة وموهبة لا أمتلكهما.

فكرت للحظات ثم أردفت:

--أريد منك شيئًا آخر.. هل تنفذه لي؟

--إن كان في استطاعتي.

--أريدك أن تساعدني وفارس في الهروب من هنا.

نظر لها صامتًا مبرق العينين وكأنها تطلب شيئًا قد فكر فيه مرارًا وتكرارًا.

***

(قصر النبيل فهد)

رقدت فيروز زوجته الحبيبة على فراشها وقد اشتدت عليها الحمى.. أبلغه الطبيب أن مولودهما على وشك الولوج إلى الدنيا بين عشية وضحاها.. ولكن الوضع صعب للغاية أثناء مرضها هذا.. في حين أخبره بعض الأطباء المنشغلين بصنع دواء يقيهم المرض الجديد أنهم على وشك الانتهاء منه عما قريب.. فتحت عينيها متألمة من أوجاع لا تتوقف عن مهاجمة جسدها الرقيق.. جلس فهد في جوارها يربت على جبينها الساخن:

--اصمدي يا حبيبتي.

--يبدو أنها النهاية يا فهد.

--لا تتفوهي بهذه الترهات أرجوك.. سيغدو كل شيء على ما يرام.

--وكأن معاول حديدية تضرب جسمي وعظامي.

--ربما لأنك على وشك الوضع.

تعالت آناتها.. دخلت سيدات القصر يساعدنها وحضرت الدّايةُ على أبواب غرفتها.

همّ فهد بالخروج تاركًا إياها معهن ولكنها نادته ليقترب منها وتهمس في أذنه:

--الوعد يا فهد.. الوعد.

نظر لها و الدموع تقفز من عينيه.. وخرج.

***

صباح جديد ويوم جديد للإخصاء اجتمعت فيه نساء الغرباء في باحة المعسكر.

وقفت وعد في محبسها تكتم أنفاسها.. تحسست الجدران حتى ذلك المكان الذي تقضي فيه حاجتها في أحد الأركان.. مقعد حديدي مستطيل موصل بشبكة المجاري السفلية تحت المعسكر.. مقاعد موصودة بأقفال لها مفاتيح خاصة.. وبيسر فتحها لها شاهد غير آبه بمسئولية ذلك وخطورته على منصبه.. يمكنه أن ينكر كل شيء ويتقاذف التهم مع شديد وفي النهاية ستغيب الحقيقة.

تلك هي الطريقة الوحيدة لتخرج وعد من المعسكر بعيدًا عن أعين الذئب.. غاصت عهد في بحر من القاذورات والفضلات المتعفنة.. أفرغت ما في بطنها ولكنها تماسكت فرغبتها في الفرار من هنا تفوق كل شيء.. أخبرها شاهد أن فارس سيهرب بنفس الطريقة.. وأن الطريق في شبكة المجاري طويل وينتهي من الجانبين إلى نفس المصب في النهر.. ركضت وعد بكل طاقتها.. تعثرت ووقعت ونهضت

ووقعت ونهضت مرات ومرات.. تعالت أنفاسها من هول المسافة المستغرقة لأكثر من خمس ساعات.. نفس المدة التي يقضيها شديد في الإخصاء.. وليضمن شاهد أنه سيحضر الإخصاء فيبتعد ذلك اليوم طالبًا أجازة لشعوره ببعض التعب وارتفاع في درجة الحرارة.. وبعد طول ركض من دون توقف وصلت وعد إلى نهاية الطريق.. استمعت إلى صوت النهر في الخارج.. قفزت في مياهه وغاصت أسفل النهر.. تركت جسدها ليصعد لأعلى.. استنشقت الهواء النقي.. النهر في هذه المنطقة يمر في الغابات أي بعيدًا كل البعد عن عيون الذئب.. كان في انتظارها شاهد على الجانب الأخر.. قفز في المياه وسبح ناحيتها وسحبها إلى شاطئ النهر.

وقفا على الشاطئ يلتقطا أنفاسهما.. سألته متلهفة:

--هل نجح فارس في الهروب؟

لم يجد شاهد ردًا على سؤالها.. تلعثم قليلًا ثم أجابها:

--ربما ضل الطريق.

--ألم تقل أن هذا هو المخرج الوحيد؟

في هذه اللحظات انتهى شديد من يوم الإخصاء

«على أمهات المجبوبين سرعة استلام أولادهن وإخلاء المعسكر»

انفض المعسكر وعادت النساء العبيد إلى أعمالهن اللعينة .

توجه شديد إلى زنزانة فارس رغبةً فيه وهو يفكر جديًا بتقديم طلبًا للعفو عنه ليحتفظ به للأبد.

فتح باب زنزانته ودخل متلذذًا بما سيلقاه بعد لحظات.. هاله ما رآه أمام عينيه.. لقد قُتل فارس بسكين منغرس في قلبه.. غارق في دمائه وقد فارق الحياة.

--لقد مات فارس.

قالها شاهد في وجه وعد مترددًا

--اصمت.. فارس مازال شابًا، لن يموت الآن.

--قلت لك لقد مات.. طعن نفسه بسكين في قلبه فمات على الفور..

لقد فعل ذلك أمام عيني.

--ولم تحاول منعه؟ لم تحاول منعه؟

أمسكت وعد في رقبته لتخنقه.. أفلت نفسه منها صارخًا:

--اتركيني.. لقد رفض الهروب وأخبرني أن ذئبستان لا خروج منها إلا بالموت.

--ابني! فارس.

انخرطت في بكاء هستيري.. اقترب منها شاهد وربت على كتفها.. غفلته واستلت ذلك السلاح الحاد المربوط حول خصره.. خنجر حاد، وأشهرته في وجهه:

--لقد ساعدتك كثيرًا يا وعد.. أتقتلينني جزاء ذلك؟

--كلا.. عدني بأن تحفظ ولدي وتضمن له النجاة.

--أي ولد؟

--هذا.

ودبت السكين على جانب بطنها وشقتها بحذر مبرقة العينين صارخة.. مدت يديها بعدما ألقت السكين أرضًا والدماء تندفع منها.. فتحت بطنها مرتعشة بكل قوة ودان لها غشاء رحمها المحاوط لطفلها.. وكنت أنا ذلك الطفل الرضيع.. جئت من رحم العذاب.. كُتب عليّ العيش في دنيا من دون أب أو أم أو مستقبل على أرض يحكمها الذئب.. يتيمًا ذا مشأمة.

انتزعتني بيديها وكانت اللمسة الوحيدة منها.. وناولتني لشاهد المصدوم مما يحدث وكأنه أصابه الخرس التام.

أمسكني بيده وأنا أتأوه لهذا الخروج المفاجيء.. أمسكت أمي خيط المشيمة وقطعته بقوة.. حينئذ وقعت بظهرها في مياه النهر مستسلمة مفارقة الحياة بعد أن لفظت بجملة واحدة لم ينساها شاهد طوال حياته:

--اضمن له النجاة.

ضد النظام

(المُعتقل)

ثلاثون ساعة من التحقيقات مع ذلك الطفل الصغير (حلم) دون أن يُفهم له اتهام واضح..

وكيف يصبح طفل في الثامنة من عمره خطرًا على الأمن العام للدولة؟

أسئلة عديدة عن جماعات متطرفة وأشخاص لم يشاهدهم في حياته ولو لمرة واحدة وصور تُعرض عليه والنتيجة واحدة:

--الطفل لا يعرف شيئًا.

قالها أحد البارون المسئولين عن استجوابه لأقرب الجالسين في جواره.

تنهد الأخر واقترب من الطفل(حلم) وطلب ممن يدوّن التحقيق أن يتوقف بإشارة من يده..

جثا على ركبتيه ونظر في عينيه والشر يلتهم مقلتيه:

--أين الكتاب؟

--أي كتاب؟

--اسمع يا فتى.. لقد سئمت ألاعيبك.. اقسم لك بأنني سأغمس وجهك في زيت مغلي إن لم تتحدث.

--أنا لا أعرف عم تتحدث.

--عن الكتاب الذي سلمه والدك إلى جدك العجوز.

--لم أر مع جدي أي كتاب.

--أخبرنا عن مكان جدك.

--لقد مات.

--حسنًا.. إنه اختيارك.

أشار إلى بعض الرجال فاقتادوه نحو حائط الغرفة وقاموا بتجريده من قميصه العلوي وأحكموا وثاقه في هيكل حديدي ملصق على الحائط.. وانهالت سياط الرجل الموجعة على جسد حلم الهزيل.. صرخ بأعلى صوته ولم تجد صرخاته الرحمة في قلوب هؤلاء الطغاة.

تذكر حلم كلمات جده ووعده له بأن يحفظ هذا الكتاب(الباحث عن الله) إلى وريثه.. عليه أن يتحمل المزيد ليفي بوعده.

وغاب حلم عن الوعي من كثرة التعذيب.

ياقوت

أن تموت شامخ الرأس ملكًا لغابة فانية خيرٌ لك من أن تعيش فأرًا ذليلًا في أرض الذئب.

عجائب الأمصار في ذئبستان

المؤلف:مجهول

***

(بعد مرور عشرين عامًا)

(قصر النبيل فهد)

غزفت على الأوتار أنغامًا ملكية في بهو قصر النبيل فهد، لتستقبل ضيوفًا من الورثة المقربين في احتفال عيد ميلاد الأميرة الساحرة (لؤلؤة) التي تتم الليلة عشرين عامًا قضتها في حب وحنان والدها العزيز فهد بعد رحيل والدتها فيروز أثناء ولادتها.. وعلى الرغم من الحزن المُتزايد المُحتل لنفس فهد فلم يُجليه يومًا سوى رؤية لؤلؤة تكبر أمام عينيه يومًا بعد يوم.

وزياراته لمحبوبته»فيروز» على باب المستودع كل فترة حينما يحرقه الشوق إليها وجلوسه بالساعات أمام «شاهد روحها» بعد إبلاغ الحراس باسم الزائر وعنوانه والروح الراغب في زيارتها.. أضحى ذلك الحاجز الزجاجي الضخم المتوسط للجدار الخرساني للمستودع أحب الأماكن إلى قلبه.. في هذا المكان يجلس الأحياء ينتظرون أرواح أمواتهم بعد استدعائهم للقاء.

فأمام ذلك الحاجز يتحدث ويبكي ويضحك ويتذكر ما كان بينهما ويحكي عن أيامه بعدها بل ويطلب العون والمشورة.. أخبرها عن ذلك الصراع النفسي الذي يؤرق عقله وانتظر ردها.

في ذئبستان نادرًا أن يحدث تواصل بين الأحياء والأموات.. ولكن قد يصل إلى الزائرين الأحياء بعد فترة خطابًا مُقتضبًا من محبيهم الموتى فيه إجابة لبعض أسئلتهم وأغلبها يتعلق بالنعيم داخل المستودع وحثهم على تحمل مصاعب الدنيا والطاعة العمياء للذئب.

ذات يوم تلقى فهد خطابًا من روح فيروز به ثلاثة كلمات تعجب كثيرًا منهم:

--كن مع الذئب.

وتسائل حائرًا:

--هل تتبدل الآراء بعد الموت؟

فيروز كانت من أشد الكارهين للذئب وشرائعه.. وزاد الصراع في داخله.. تمنى ذلك اليوم الذي يموت فيه ويسبر أغوار ذلك المستودع بحثًا عنها لربما وجد الإجابة لسؤال يؤرقه:

--هل الذئب حقيقة موجود؟

تأنقت لؤلؤة الليلة كنجمة احتلت سماء غُشاقها من الشباب الراغب في الزواج بها.. تلقى والدها الكثير من العروض للارتباط بها ولكنه رفض.. فمن ذا الذي يستحق اقتناء لؤلؤته الثمينة؟

انسدل شعرها الأسود الكثيف على ظهرها الفاتن العاري الناصع

البياض وساعدتها وصيفتها في ارتداء باقي فستانها المرصع بالذهب الكاشف لنصف نهديها يتوسطهما متدليًا أغلى عقد ذهبي في المملكة بأكملها.. رُسم الكحل حول عينيها السوداويتين فكانت كليل تتمنى فناء الشمس بعده حتى نهاية العمر لتعيش في حضرتهما.

وقفت وصيفتها حاملة قنينة من العطر في يدها.. أشارت لها لؤلؤة:

--كلا.. لن أتعطر.

--أمرك مولاتي.

ألقت نظرة سريعة على مظهرها العام في مرآة غرفتها قبل أن تهمّ بالخروج..

--فليكف هذا.

ترجلت لؤلؤة نحو جمع الحفل.. وقفت أعلى درجات سلم القصر الدائري.. عدد كبير من الورثة في انتظارها.

لم يكن للؤلؤة صديقات مقربات.. ربما لمنصب والدها الذي أثار الشك في نفسها فيمن يحاول التقرب إليها.. فبقت بعيدة عن الجميع.

خطت بحذائها الذهبي هابطة درجات السلم، والأنظار تتهافت على جمالها الآخاذ.

الجميع يصفق وهي تشير برأسها امتنانًا لهم.. بحثت في كل الأرجاء عني ولكنها لم ترني..

زاغت عيناها وكأنها تنادي بعلو صوتها على حبيبها.. عليّ.

--ياقوت.

معشوقها الوحيد في هذه الدنيا.. وُلدنا سويًا في نفس اليوم بل وفي نفس الساعة ولكن القدر حكم عليّ باليتم لألقاها.. حرمني من حنان الأب والأم وعوضني بلؤلؤة.

والسيد فهد كذلك أحببته كثيرًا على الرغم من توتر العلاقة بيننا لأسباب لا أدركها حتى اللحظة.. لطالما حاولت التقرب منه دون جدوى.. كان هناك دائمًا حائلًا بيني وبينه.. رأيت ذلك في عينيه حينما ناديته بأبي عندما نطقت لاول مرة.. مازلت أتذكر رده جيدًا على الرغم أنني لم أتجاوز وقتها ثلاث سنوات من العمر.

-- لستُ أباك ولن أكون.. لقد مات قبل ولادتك.

علمت بعدها أن أبي كان صديقًا من الورثة المقربين للسيد فهد بل أنه كان من أقربائه.. وماتت أمي لحظة ولادتي وأصر النبيل على تنفيذ وصية صديقه بتربيتي في بيته.. هكذا عرفت منه.

النبيل فهد.. ذلك الرجل الحنون، كنت أرى في عينيه قسوة يحاول قهرها وإخفائها عني بكل ما أوتي من قوة.. كنا كالماء والزيت لا يختلطان وإن أرادا ذلك.. كم من المرات التي احتضنني فيها! ولكنني في كل مرة أشعر ببرودة شديدة تنبع من قلبه كجبل جليد يرتفع وتتراكم عليه الثلوج كلما اقتربنا، ولم أعرف سببًا لذلك الشعور المتنامي عبر الزمن.

جلست على البيانو المصنوع من الذهب أعزف مقطوعتي المفضلة (كونسرتار).. معزوفة العشق.. هكذا سميناها سويًا أنا ولؤلؤة بعدما

تعلمتها من مُعلمي العزيز.

دقت أصابعي لحنًا تعرفه لؤلؤة جيدًا.. وكأنني أُناجيها سرًا.. استقرت عيناها ناحيتي.

اقتربت لؤلؤة مني ووقفت بالقرب من البيانو تستمع لمعزوفتنا والسعادة تغمر وجهها بكل ما أوتيت من حياة وعشق لي.. عشقت ملامحي،عينياى البنيتان الخاطفتان،جبهتي العريضة وشعري الكثيف الخشن المنسدل حتى كتفيّ، وجسدي المفتول العضلات الطويل القامة.

قدم لها أحد الخدم هديتي لها.. علبة صغيرة من الذهب.. فتحتها لتجد سلسلة مكتوب في نهايتها ياقوت ولؤلؤة على هيئة قلبان ممتزجين متلاحمين ورسالة مخطوطة بيدي.. ارتدت السلسلة ناظرة لي بعشق وفتحت الرسالة،همت بقرائتها وموسيقاي تملأ أذنيها دون أن أنظر لها حتى اللحظة:

-حبيبتي لؤلؤة.. تحية عطرة برائحة الياسمين وبعد:

يقول مُعلمي أننا خُلقنا أرواحًا في زمانٍ سحيق والتقينا قبل الميلاد

بملايين السنين.. كان الكون موحشًا تنهشه السباع والوحوش حتى

عمّ البشر الأرجاء في يوم وليلة، وامتلئت الربوع بشتى الأرواح متسائلة:

كيف جئنا وإلى أين؟ ما الغاية وما السبيل؟

وكنت هناك باحثًا عن تفسيرٍ مثلهم حتى رأيتك..

رأيت عينيك.. انتزعتني من التيه رغمًا عني..

ووجدتني أحاول لمس شفتيك وأرتجف.. ومرت يدي خلالك مكتشفًا أن الأرواح نورانية لا تتلامس..

وددت لو أقبلك.. أعتصر رحيقك في جوفي فأرتقي

لمصاف الملوك.. أسمو بشموخ نهديك لو لمستها بيدي..

أنهل من عسل نهرك المتدفق بين ضفتين وددت لو ترسو سفينتي بينهما..

وألامس أعمق نقطة في الأعماق آلاف المرات دون كلل..

وجاء هاتفٌ بعيد بالوعد يُصبرني: لم يحن اللقاء بعد.

فأدركت أن غايتي تمر خلال روحك وسبيلي منكِ وإليكِ..

وانتظرت.. أيقنت أن اللقاء مكتوب.. ثم دبت أرواحنا في

أجساد أرضية لننال ما وُعدنا به.. أنا وأنت.. ياقوت ولؤلؤة.

والآن..

توقفت حينها عن العزف ونهضت مقتربًا منها وكأنني كنت أستمع إلى روحها تقرأ رسالتي لأُكملها في التوقيت المناسب.. نظرت في عينيها فى عشق:

--هل تقبليني زوجًا لك؟

طوت رسالتي وسلمتها إلى وصيفتها لتحتفظ بها.. ابتسمت لي:

--هل تراقصني أيها الأمير الصغير؟

--بكل سرور يا أميرتي.

والتفت يدي اليسرى حول خصرها البضّ وتعانقت يدانا الأخريتان وشققنا سويًا بحور الغيرة المنتشرة حولنا، تطرد أرواحنا كل نظرات التملق الممزوجة بالحقد من أولئك الحضور.. التقت أعيننا وتعانقت نظراتنا وكأنها تعلنها للجميع.. العشق المتبادل.

استنشقت عطر جسدها الجذاب.. إن لها عبقًا يشبه عطر الياسمين بمجرد أن أقترب منها حتى يملأ أنفي.. همست:

--لم أتعطر كما طلبت مني.

--إن لجسدك عطرًا لا يُقارن بأي من العطور الصناعية.

--أحقًا لي رائحة زهرة الياسمين؟

--عطرٌ لا يغادرك.

ابتسمت في خجل وشردت قليلًا قبل سؤالي:

--أخبرني عن تلك الرسالة؟

--أي رسالة؟

--هديتك.. هل حقًا خُلقنا أرواحًا وتلاقينا منذ الأزل؟

--نعم.. مُعلمي أهداني رقعة من جلود الماعز مكتوب عليها تلك القصة بخط يده.

--وأنت تصدق تلك القصة؟

--مُعلمي لا يكذب.

--أتريد روحك أن تلامس نهديّ إذًا؟

قالتها بسخرية.

--إن كان الأمر كذلك.. فأنا أريد المزج لا التلامس.

التفت بيديها حول رقبتي وضمتني لها.. شعرت بنهديها يحتضنان صدري وكأنها تشير لي بالموافقة على طلبي دون أن تتحدث.. همست إليها وعبقها يأسرني:

--هل تعلمين أن هناك علاقة ما تربطنا بالزهور ورائحتها؟

--كيف؟

--هناك أسطورة تقول أن أجسادنا خُلقت من طين ماؤه نُقعت فيه الزهور لآلاف السنين

وكلما كانت أرواحنا نقية خالية من الخطايا كلما ظهرت تلك الرائحة واضحة جلية.

--ولكنني لا أشتم لك رائحة؟

--لأنك أفنيت كل العطور بعدك.

ضحكنا سويًا.. كم أعشقها! هي كالشمس تشرق لتضيء قلبي المتشبث بروحها وكأنها أماني وملاذي الوحيد في هذه الدنيا.

لم يكن الحضور فقط هم الناقمين على تلك العلاقة بل كان أولهم

النبيل فهد.. لم يخطر بباله أن تُولد مثل هذه المشاعر بيننا فقد تربينا سويًا كأخ وأخت ترعرعا في كنفه وإن فرق بيننا في المنح والعطاء.

وقف فهد يراقبنا عن بعد دون أن يتدخل.. تظاهر بالشموخ كالجبل العالي الذي لا يهزه أمواجًا عاتية تضرب بين الحين والآخر.. وكأنه يعرف خطواته التالية بكل وضوح.

بدأت الراقصات في تقديم فقراتها المتعاقبة بينما وقفت أنا ولؤلؤة نتابعهن في فرح متعانقةً أيادينا.. ثم شاركناهم الرقص في بهجة تناقلت لكل الحضور فاندمجوا معنا في وصلة رقص جماعية في بهو القصر.

كانت الراقصات من أرامل البارون كما هو مُتبع طبقًا لشرائع الذئب وكذلك الخدم والحاشية في القصر الأغلبية منهن والباقي من رجال البارون بعد انقضاء مدة خدمتهم الحربية بعد تخطي سن الخمسين أو لسبب مرضي يُعجزهم عن إكمال المهام البارونية ويضطرون بسببها لممارسة أعمالًا اشرافية على الغرباء، ولذلك العمل في قصر النبيل كان من أكبر المناصب المتاحة لهم بينما أُسند لبعض الغرباء الكفء أعمال النظافة والطعام داخل القصر.

على الرغم من كوني من الورثة المستفيدين من كل تلك الشرائع الحاكمة لذئبستان لكنني كنت أمقتها بشدة.. سألت معلمي ذات يوم:

--هل يمكننا السفر إلى خارج ذئبستان أيها المعلم؟

--خارجها؟

--نعم نعبر البحر أو ما وراء السور العظيم في الغرب.

--خارجها خراب يا بني.

--نُعمره نحن.

--من أنتم؟

--الورثة.. لدينا من الذهب والطعام والقوات الحربية ما يسمح أن يُعمر الأرض بأكملها.

--وتصير الأرض كلها ذئبستان؟

--كلا.. أقصد نخرج بعيدًا عن شرائع الذئب.. نتحد ونُغير ونُعمر.. وإن كانت ذئبستان

تحوي كل هذا الظلم فلنبحث عن الحرية خارجها.

--أنت حالم يا ولدي.. أنصحك بالتعايش مع الواقع.

--أي واقع؟

--أن الورثة يريدون ذئبستان وذئبستان تريدهم.

--غير صحيح.. النبيل فهد يمقت تلك الشرائع هو الآخر..

لقد استمعت إليه وهو يشكو لك عن..

قاطعني حينها في حدة:

--صه يا فتى.. لا تُحدث أحدًا بما استمعت إليه حتى لا تجلب المشاكل.

كنت حالمًا بالحرية في بلادِ الخُذّلان ومع ذلك حاولت التغيير وإن كان تغييرًا ضعيفًا لا يؤثر في الجمع العام.. التغيير من نفسي أولًا

لربما يأتي يومًا يتغير فيه الآخرون.

تخليث عن العربات التي يجرها الغرباء في انتقالي بين ربوع ذئبستان و استبدلتهم بجوادٍ أصيل وأقنعث لؤلؤة هي الأخرى بذلك وعلمتها ركوب الخيل.. أرسلث الكثير من المؤن والأطعمة لكل قرى الغرباء بل وقضيت أيامًا بينهم أستمع إليهم وأهوّن عليهم ما يعانونه.

سعادة غامرة رأيتها في عيونهم وهم يرون ولأول مرة واحدًا من الورثة يتقرب إليهم ويجلس أرضًا في جمعهم ويضاحكهم.. شعروا بأنني منهم وهم مني.

للحق سببت لي هذه التصرفات مشاكلًا لا حصر لها مع النبيل فهد.. على الرغم من شعوري بأنه يوافقني فيما أفعل ولكنه كان في صراعٍ دائمٍ بين منصبه وقوانينه وبين رغباته منذ ماتت زوجته فيروز.. التي عشقها بكل حواسه حتى أنه رفض الزواج بعدها وعاش على ذكراها.

تعلمث فنون الحرب والقتال وخرجث في عدة مواجهات حربية بيننا وبين المقاطعة التاسعة.

ينادونني دائمًا بـ الفارس القناص لشجاعتي وبسالتي في ميادين الحرب والقتال.

ذات مرة قتلث بسيفي مئات من بارون الأعداء قبل أن ينسحبوا طلبًا للتفاوض.

بل وأرسل النبيل مارق رسالة يتوعد فيها بالنيل مني بنفسه عما

قريب.

وبقت الحرب دائرة سواء على طاولة المفاوضات أو في الميادين الخاصة بالحروب على حدود المقاطعتين والتكافؤ الباروني بينهما يكاد أن يجن الطرفين.

وفي كل مجلس للورثة يطلب فهد وقف الحروب وإدخال تعديلًا على شرائع الذئب بالسلام بين المقاطعات ويصر مارق على العكس وتنتهي المجادلات بقرار حاسم باستمرار الصراع الباروني للوصول لمنصب النبيل الأكبر.. سنوات وسنوات والحرب غير سجال.. مارق وفهد متكافئان تمامًا في القوة والعتاد والذهب.. فلكل منهما مناجم سرية للذهب لا يعرف طريقها غيرهما بُنيت تحت أرض ذئبستان لتظل المركز الأول للقوة والنفوذ للاثنين.

كبر فهد وتخطى عامه الستين وظل هاجس الوريث من بعده يؤرقه.. كان عليه اختياره منذ سنوات وعلى الرغم من أنني كنت مؤهلًا وبشدة لذلك المنصب إلا أنه ينكر ذلك على الدوام.. شعور خفي برفضه لي ومع ذلك لم يتأكد الأمر لديّ حتى تلك الليلة الظلماء في مطلع فصل الشتاء منذ عامين، كنتُ في طريقي لأُجالس مُعلمي وأستفيد من خبرته في أمور الدنيا فاستمعت خلسة إلي النبيل فهد يتشاجر معه وحينما استرقت السمع إليهما تأكدت من هواجسي كل التأكد.

--أنت تكابر يا فهد.. تكابر وتعاند نفسك.

--لا أستطيع.. صدقني.

--لماذا؟ أليس ياقوت تربى على يدك؟ فارسًا مغوارًا يتقن فنون الحرب..

ومن الورثة المقربين إليك.. وأنت تدرك أن شرائع الذئب تُلزمك فقط أن تختار

من عائلتك وريثًا وإن كان من فرعٍ بعيدٍ عن العائلة.

--قلت لك مستحيل.. إلا ياقوت من دون أن تسأل عن السبب.

ابتعدت.. لم أرغب يومًا في السلطة إلا لنصرة الغرباء.. ربما كان ذلك سببًا في رفض النبيل فهد توريثي.. فعدائي للذئب يبدو ظاهرًا للجميع غير مستتر كما يكنّ هو في نفسه.

ارتميت في أحضان عشقي للؤلؤة وسبحت في بحر عبقها المُشبع برائحة الياسمين مُستسلمًا لأمواج سهدها الخطّاف.. أخذتني لعنان السماء مُهاجرًا من بلاد الغضب والكتمان.

وهناك.. على سطح بيت الحمام الساكن في أسفله مُعلمي المُلحق بالقصر خطفنا ليالٍ يملؤها الدفء متعانقة أجسادنا وسط أسراب الحمام.. لم أنس أول قبلة في ذلك المكان.. امتزجت شفاهنا وغبنا عن وعيٍ مُصطنع لدقائق ظننا أننا في جنة المستودع.. التفت يديها حول عنقي..مددت يدي نحوها فابعدتني هامسة:

--منذ متى وأنت تشعر بحبي؟

--منذ بدء الخليقة.

--اعتقدت أنك لا تحبني.

--كنتُ أخاف مصارحتك.

--واليوم؟

--سمحت لي عيناك.

--أحبّك.

--عاهديني ألا نفترق مهما حدث.

--أيفترق الأحبة؟

--محال أن تعاهدوا على ذلك.

--أعاهدك.

--لؤلؤة..هل تعرفين أسطورة الحب والفراق؟

--كلا.

--حسنًا سأخبرك.

ربتُ على وجهها ناظرًا في عينيها الساحرتين هامسًا:

--في قديم الأزل.. أطلق الحب سهامه بين قلبين.. شاب وفتاة من بلدين بينهما عداء ودماء وثأر لن يُغفر.. بات زواجهما مستحيلًا وحُكم على حبهما بالفناء.

--وبعد؟

--رفضا الفراق.. حاولا بكل الطرق دون جدى.. سمعا عن ساحرٍ عتيد في أطراف البلاد لديه الحل الوحيد.

--أي حل؟

--يقولون أنه ربط الاثنين في وضع ممارسة الفضيلة وحاوطهما بالحبال..

ثم أشعل النيران في جسديهما حتى اختلط رمادهما..

ثم خلط الرماد بماء ورود عتيقة وصُب طينه في وعاء ضخم على شكل إنسان..

ثم قرأ عليه بعض التعاويذ المُسماة تعاويذ الخلق.. فدبت فيه الروح..

وصار الحبيبان جسدًا واحدًا لن يفترقا مهما حاولوا.. ولكنهم اكتشفوا أن ذلك المخلوق يمتلك عضوين تناسلين متناقضين.. ذكري وأنثوي في آن واحد.. ومن هنا جاء

مخلوق يدعى «الخنثي».

--أسطورة عجيبة.. من أين عرفتها ؟

--من معلمي العزيز.

--لن نلجأ إلى ذلك فوضعنا يختلف كلية.. ومع ذلك أعاهدك على الحب طول العمر.

قبلتني من جديد وكأن روحها تحتضن روحي دون عائق.. جلسنا وسط الحمام وصوت هديله لا يتوقف كسيمفونية من موسيقا خلقتها الطبيعة.

كنا بمفردنا دون حراس أو عمال فقد خلد الجميع إلى نومه حتى

مُعلمنا العزيز.. القمر انتصف السماء وأرسل أنواره تخترق أجسادنا لتضيء قلبينا عشقًا وسهدًا وغرامًا يبلغ بهما عنان السماء.. لحظات من الصمت ننظر فيها لبعضنا البعض في خجل.. قطعتها لؤلؤة متخذة خطوتها الأولى ووقفت تخلع ثيابها.. يالا بديع خلقها! نسائم الياسمين تجتاحني.. تأسرني في شباك هواها مُقيدًا لا أفيق.. همست:

--اخلع ثيابك أيها الأمير لنصنع أسطورتنا.

نهضتُ مُثارًا بجمالها وخلعتُ ثيابي.. افترست جسدي بعينيها.. لاحظت تلك الصورة المرسومة على صدري.. اقتربت مني مبهورةً.. كانت صورتها.. تراها لأول مرة فوق صدري.. رُسمت بيد فنان بارع من الورثة لتبقى لؤلؤة أقرب ما تكون لقلبي.. رسمة لا تزول إلا بتغيير جلدي..نظرت في عينيّ في فرحة عارمة:

--أعشقك أيها الأمير الوسيم.

واحتضنتها.. تلامس جسدانا كغريق يلتقط طوق نجاته الوحيد في شوق جارف.. قبلتها.. غاب عقلي من خمر رحيق تلك الشفتين.. كلما اعتصرتهما تزداد حلاوتهما .. قبلتُها بكل ما أوتيت من عشق.. اعتصرت ثمرة جسدها البضّ و امتزجنا.. امتطينا جواد الرغبة نحو المجون.. واخترقتُ حصونها باندفاع عاشق يهوى الجنون.. ومن ذا الذي يقاوم طوفان الوصال؟ وحلّقت أرواحنا بين تلك الطيور الشاهدة على عشق لن يقهره الزمان.. ورفرفت بأجنحتها حولنا وكأنها تحتفل باللقاء الأول.. همست في أذنها بحنان:

--أحبُك يا فاتنتي.

مرت ليلتنا مقسمين على المضي سويًا حتى آخر العمر دون فراق.

في نفس المكان تلقينا دروسًا عديدة من مُعلمنا الحبيب.. كان يقف بالساعات يقص علينا حكايات الناس في ذئبستان ويلقنّا علوم الحرب والشرائع ويعلمنا القراءة والكتابة.. كنا نتذكر ما حدث تلك الليلة ونشرد بعيدًا عن حديثه ثم تبتسم قلوبنا وتغرينا بمعاودة الكرة من جديد.

لكننا تعاهدنا ألا نكررها حتى يجمعنا فراش يباركه النبيل فهد.. مضينا في دروسنا مع المعلم ضرغام منتظرين اللحظة المناسبة لإعلان حبنا للجميع.. باتت لؤلؤة حلمًا أقسمت على تحقيقه.

ذات مرة حكى لنا المعلم ضرغام قصة عجيبة أثرت في وجداني كثيرًا.. جلس حينئذ في منتصف بيت الحمام بعد انتهاء درسه اليومي مُبتسمًا وبدأ قصته:

--يُحكى أنه في زمان ما قبل ذئبستان كان هناك ملكًا للغابة يُدعى حيوان الأسد..

حيوان قوي يهابه الجميع.. وعندما حل الخراب كل العالم واشتدت الحروب وطالت الغابات..

تزعزع ملكه كثيرًا ولم يعد قادرًا عن حماية الحيوانات أو حتى حماية نفسه..

فر هاربًا من غابة إلى أخرى تحمله أمواج الرغبة في النجاة..

وبزغت شمس ذئبستان.. بلد يحكمها الذئب.. ووضع شروطًا

وشرائعًا قاسية لمن يريد

الاحتماء بأرضه.. شروطًا تجعل الأسد فأرًا.. أتدرون ماذا فعل الأسد؟

--ماذا؟

--رفض الخضوع.. ومات وسط الخراب بعد شهر اعتبرها أسعد أيام حياته.

--لماذا؟

--لأنه مات حرًا.. أن تموت شامخ الرأس ملكًا لغابة فانية خيرٌ لك من أن تعيش فأرًا ذليلًا في أرض الذئب.

أحببث قصته وفهمث مغزاها جيدًا.. امتلأت نفسي بالرفض مثل الأسد وتمنيت أن أمحو تلك الشرائع ولكن ربما لم يحنّ الوقت بعد.

في العام السابق وقبل العيد الوطني للذئب ذهبت ولؤلؤة إلى باحة سوق المقاطعة فوق جواد واحد.

حضرنا ولأول مرة ذلك السباق البغيض الذي طالما سمعت عنه.. «رهان الغرباء»

يديرون سباقًا بين الغرباء الرجال بين خطين يبعدان عن بعضهما البعض أكثر من عشرة كيلومترات وعلى جانبيه يتراص الورثة وبارونهم يتراهنون على الغرباء بالذهب.. وتكتب أسماء المُراهنين على مؤخرات الغرباء بطلاءٍ أسود فوق بعضه البعض بعد أن يدهنون وجوههم بمساحيق التجميل الحمراء.

سباقٌ غير آدمي.. ترددتُ كثيرًا في حضوره حتى جرؤت على ذلك.. وهناك لم أتحمل ما رأيته من ذلٍ وهوان..

انطلقت صافرة البداية وهلل الحضور وتسابق الزاحفون في خضوع وإذعان لا يُقارنان.

ثارت نفسي لأجل هؤلاء الغرباء المساكين.. حاولت كبح جماح غضبى دون جدوى وفي منتصف السباق انفجر بركان غضبي.. ترجلت واقفًا قاطعًا لطريق الزاحفين متجاوزًا تلك السياج.. فتوقف الغرباء عن الزحف.. وتوقف تهليل الورثة وصياحهم في ترقب شديد.

نظرت إلى وجوه الجميع والتحدي يغمرني أكثر وأكثر.. وتابعت القلق في عيني لؤلؤة.. صحت في الورثة وبارونهم بقوة وكأنني أحارب ظلامهم المفترس ببصيص من نور خافت أليف:

--كفوا أيديكم عن الغرباء.. فليكف ذلًا وهوانًا ..

لقد خُلقوا أحرارًا ولن تستعبدوهم بعد اليوم.

ساد الصمت كثيرًا قبل أن يصيح الغرباء باسمي

--فليحيا ياقوت.. فليحيا ياقوت.

--انتصبوا أيها الغرباء واكسروا قيود الذئب.

كررتها عدة مرات.. رأيت التردد والخضوع في أعين الجميع.. همّ بعضهم للوقوف منتصبين الواحد تلو الآخر.. إنهم يخالفون شريعة الذئب بقيادة واحد من الورثة.. بقيادتي.

--فليحيا ياقوت.. فليحيا ياقوت.

تردد البارون بعدها قليلًا قبل أن يبدأوا بضربهم بالسياط بقسوة متناهية.. بينما اندفع بعضهم إلى ذبح كل من سولت له نفسه من الغرباء بالانتصاب.. فصلوا رؤوسهم عن أجسادهم واندفعت دمائهم تخضب أقدام الطغاة.. وانقلب السوق وباحة السباق إلى معسكر للتعذيب الوحشي في هرج ومرج وسريعًا انتقلت الأخبار إلى النبيل فهد.

ثار وماج إلى حد أنه صفعني أمام لؤلؤة على فعلتي تلك.. وخرج بعدها في خطاب رسمي ألقاه قبل حفل عيد الذئب الوطني بأيام في باحة القصر بعد دعوة الناس للحضور:

--أيها الأخوة الذئبستانيون.. لقد اعتدنا سويًا على تنفيذ شرائع الذئب وإن كانت ضد رغباتنا البشرية.. فالذئب يعرف أكثر..

والذئب يرى كل شيء.. يرى ذنوبنا وخطايانا..

ويكافئ من يصبر بالمستودع.. من ينفذ شرائعه.

وأخص بحديثي الغرباء.. أعلم أنكم تتحملون وتكابدون ضغوطات تدركون جيدًا أنها ليست إرادتنا نحن.. إنما هي.. إرادة الذئب.

هلل الناس حينها وبلغ صوت تصفيقهم الزائف المتملق عنان السماء..

--فليحيا النبيل فهد.. فليحيا الذئب العظيم

قطع هتافاتهم فهد من جديد:

–إن النبيل ياقوت قد أخطأ وأقر بخطيئته أمام الذئب قبلكم وطلب

منه العفو والمغفرة.. وقد منحه الذئب ذلك فهنيئًا له.

عادت الهتافات من جديد ومضى الحدث وكأنه لم يكن على الأقل ظاهريًا.. بعدما أجبرني فهد على حضور مجلس الورثة في قصر النبيل الأكبر والاعتذار رسميًا وطلب العفو وإلا زُج بي في السجن ونزع مزايا الورثة عني وربما طُردت من المقاطعة العاشرة وشحبت مني جنسيتها.. رضخت واعتذرت وانصرفت من قاعة الاجتماعات المُلحقة بقصر نائب الذئب الأول معصوب العينين بشريط أسود حتى نُزع في قصر النبيل فهد.. وكأنهم يخافون من معرفتي لطريق ذلك القصر.. وباتت تلك الحادثة هي الشرارة الأولى في بركان الغرباء التي استشعر انفجاره يومًا ما.

توترت العلاقات أكثر بيني وبين فهد بعدها وبالأخص أنني أصررت على استكمال طريقي ضد الذئب وإن كان طريق سريًا تملؤه المراوغة والخداع هذه المرة.

بعدها تجسست على أوراق فهد الموجودة في مكتبه الخاص وفتشت فيها وعثرت على قائمة بأسماء الغرباء المطلوب إعدامهم حرقًا في حفل الذئب بعد عدة أيام.. أكثر من خمسة آلاف اسمًا سيقبضون عليهم للتنفيذ.. ما بين مشاغبين ومظلومين وغرباء أصابهم المرض أو العجز.. سهرت ليلة بأكملها أكتب تلك الأسماء وخرجت بعدها للبحث عنهم في سرية تامة.

أتحرك أمام أعين الذئب وكأنني أحمل مؤنًا وأطعمة إلى القرى الساكن فيها هؤلاء الغرباء ولكنني في الحقيقة أحذرهم و أدفعهم إلى الفرار بل وأضع لهم الخطط بنفسي.

أكدتُ لديهم بُعد الغابات عن عيون الذئب.. حذرتهم بالعودة إلى المدن والقرى من جديد وإن عاشوا حياتهم كلها وسط الحيوانات المفترسة في الأدغال.. فقد تواترت الحكايات عن تلك الوحوش الرابضة في الأدغال ولكنها بالتأكيد أقل خطورة من الورثة وبارونهم.. هكذا أقنعتهم بصعوبة بالغة فخروجهم إلى المجهول بعيدًا عن أمان ذئبستان المزعوم يعتبرونه انتحارًا حتى وإن كانوا في حكم الأموات في غضون أيام..

دفعتهم إلى الهروب بكل مالدي من منطق.. فإن كان مصيرهم الموت.. فيموتون بحرية.

يكفيهم أن قامتهم ستستقيم هناك تحت أشجار تشعرهم بالحرية التي طال انتظارها وإن افترستهم السباع بعدها.

وفي يومين وقبل القبض عليهم بساعات نجحت في تهريب أغلبهم إلى غابات المقاطعة..

من السهل الفرار خلال شبكة المجاري السفلية التي تغطي ذئبستان بأكملها على اختلاف عمقها وحجمها.

كانت ضربة قاصمة للورثة وتحدي سافر لفهد وسياسته الذئبية.

لم يستطع النبيل وبارونه إثبات أي شيء عليّ.

ودقت طبول الذئب في عيده الوطني وسط مسرح ذئبستان

الكبير.. ووقفت هناك في الصفوف الأولى والفخر يملأ نفسي فقد أنقذت قرابة الخمسة آلاف شخصًا من الغرباء.. وجاءت اللحظة الحاسمة في استعراض الحفل.

خابت مساعيّ عندما ظهر أمامي غيرهم من الغرباء فقد تبدلت قائمة أسماء من أنقذتهم بقائمة أخرى تضمن لهم تنفيذ تلك الفقرة الذئبية في الحفل من تناول الغرباء لأجساد بعضهم البعض.. تلك النظرة التي رمقني بها فهد حينها الممتلئة بالتشفي لم أنسها مطلقًا.

ضاق صدري وأنا أشاهدهم ينهشون لحوم بعضهم مقهورين ولكنهم يتظاهرون بالاستمتاع الجبري.

تركت الحفل وخرجت في الهواء الطلق.. ركبت جوادي وانطلقت على غير وجهة..

رحلت عن المدينة وانحرفت تجاه الغابات.. اخترقت الأدغال لأول مرة غير مكترث لوحوشها المستترة ولم يتوقف الجواد غير بعد مسيرة يوم..

وكأنني راغب في الهجرة لأبعد نقطة ممكنة.. توقفت وترجلت ناظرًا حولي..

أشجارٌ على مدى البصر و فراغ موحش.. البشر بالنسبة لي هم روح الدنيا فإن غابوا خربت.

الشمس على وشك المغيب.. وقلبي يقاتله البعاد.. اشتقت إلى لؤلؤة فجأة.. لقد أعماني غضبي عنها.. لن أتمكن من الهروب طالما وُجدت هي.. إن حياتي معلقة بها.

امتلأت السماء بالغيوم وعمّ الظلام.. هطلت الأمطار بغزارة كأن السماء تُرسل ماءها لتطفئ تلك النار المشتعلة في صدري.. أنني أمقت الذئب إلى أبعد الحدود.

وبينما كنت واقفًا وسط الظلام سمعت صوتًا أعرفه جيدًا.. صوتٌ أبغضه للغاية.. صوت عواء ذئب.. إنه قريب.. أستطيع سماع صوت أقدامه تقترب.. التفتُ في مكاني حذرًا..

صرخت:

--أكرهك أيها الذئب.. أكرهك.

عدت خطوات إلى الوراء ثم التفت يمينًا ويسارًا ثم ذرتُ إلى الخلف وظللت على هذا عدة دقائق.. أشعر بأنفاسه عن قرب.. وبغتة انقض عليّ الذئب مواجهًا لي.. تصارعنا على الأرض.. مددت يدي ممسكًا بين فكيه.. غُرزت أنيابه في يدي ولكنني تحملت.. تقلبنا في الطين تحت الأمطار وعقلي يدرك أن إفلات فكيه يعني موتي.. صرخت وأنا أفتحهما بكل قوة ممكنة:

--لن أخضع لك بعد الآن.

لا أدرى من أين أتت تلك القوة الغاشمة التي مكنتني من كسر فكيه وخنقه بعدها.. لقد مات الذئب بين يدي.. سكنت حركته.. تمالكت نفسي وجلست أنظر إليه غير مصدق وكأنني حتى اللحظة مازال في داخلي صوت ينادي بقدسية الذئب.. كتمته بكل ما لدي من قوة هامسًا:

--لقد قتلت الذئب.. لقد قتلت الذئب.

مددتُ يدي و تحسست جسده البغيض.. أسنانه.. عينيه.. أذنيه.. أهذا الميت أمامي مالكًا لهذا الكون؟ قبضت بيدي على عنقه في عصبية:

--قل لي أيها الذئب الميت.. يقولون أن الذئب الكبير يرى كل الأشياء..

وها أنا قتلتك.. قتلت أحد أولاده من دون أن يمد يده نحوك بأية مساعدة..

ربما الظلام دامس هنا فلم يرك جيدًا.. لم تصل لك عنايته في الوقت المناسب..

ربما يوجد الذئب مع وجود الشمس فقط.. قل لي.. لو أنني قتلتك في وضح النهار

أكان سيقتلني؟ أكان سيرسل إليك دعمًا يزلزل الدنيا ليشهد الجميع أن الذئب الكبير لا

يتهاون فيمن يتعدى على رعيته؟

مرت الليلة بعدها وشق ضوء النهار ظلمة الليل.. كنت في جوار جثته شاردًا أفكر.

مئات التساؤلات التي احتفظت بها في صدري وأحكمت عليها الغلق بعدما وصلت إلى نتيجة لا مناص منها:

--الذئب الكبير غير موجود.. الذئب وهم مصنوع.

عدتُ إلى القصر في اليوم التالي.. كان النبيل فهد في انتظاري..

وقفت مواجهًا له في فناء القصر خائر القوى ممزقة ثيابي ملطخة بالدماء:

--لم يُخلق بعد من يُعادي الذئب.

--مولاي النبيل!هل لي أن أسألك شيئًا؟

--قل ما عندك.

--هل الذئب يرى كل شيء؟

--بالتأكيد.

--ذاك عيناه قد انتزعتهما لأجلك.

أخرجتُ من جيبي عيني الذئب المقتول اللتين انتزعتهما بأصابعي..

تحركتُ مُبتعدًا عنه بعدما لازم فهد الصمت مذهولًا.. ابتسمتُ قبل أن أغادر إلى غرفتي:

--الذئب أسطورة خيالية.

انصرفت.. ضمدتُ جراحي وانعزلت لفترة رافضًا حتى لقاء حبيبتي لؤلؤة.. راجعت كل ما مررت به طوال سنوات عمري الموشكة على العشرين عامًا.. الظلم والطغيان والغرباء المظلومين حرروا في داخلي وهمًا لم أقتنع به يومًا.. الذئب.. خرجتُ بعدها مرفوع الرأس شاعرًا بالزهو لتحرري من عقيدته إلى الأبد.

--ياقوت! فيم شردت يا حبيبي؟

قالتها لؤلؤة وأنا أراقصها وسط حفل عيد ميلادها.

انتبهت لها مبتسمًا:

--لؤلؤة.. هل تؤمنين بالذئب؟

--أنا أؤمن بالحب.

--كيف؟

--الحب هو خالق قلوبنا.. يدب فيها الحياة ويشعرنا بالسعادة.. وإن غاب

نموت وإن كنا أحياء.

قبلتُ وجنتها بحنان:

--أحبُّك.

--تقبل وجنتي؟ أهذه أحلامك بعد أن رغبت روحك في ملامسة نهديّ؟

--وأن ترسو سفينتي بين الضفتين من فضلك.

ضحكنا كثيراً بطريقة هيستيرية توقفنا بها عن الرقص.. توجهت إلى البيانو الذهبي وبدأت بعزف المقطوعة نفسها من جديد وهي تجلس بجواري.

--والآن أيها السادة موعدنا مع الفقرة التي طالما انتظرتموها.. فقرة المهرج.

قالها مقدم الحفل بصوت جهوري.. وبدأت الفرقة في عزف

موسيقى أشبه بموسيقى السيرك.. ودخل رجل في الستين من عمره مدهونًا وجهه باللون الأحمر.. مُرتديًا زيًا بين السواد والحمرة.. وشعرًا صناعيًا كثيفًا أحمر اللون هو الآخر فوق رأسه.. قصير القامة هزيلًا.. برقت عينا النبيل فهد حينما وقف المهرج بالقرب منه.. وكذلك أنا.. لم أتخيل أن ذلك المهرج المواجه لنا هو مُعلمي الذي اختفى منذ عام تقريبًا وفشلت مساعي النبيل فهد في العثور عليه.. ولكن ما لم أعرفه عنه هو ماضيه الذي يدركه فهد تمامًا ويخفيه عن غيره.. لم أعرف أن معلمي كان أهم بارون المقاطعة التاسعة الذي دبت أقدامه أرض مقاطعتنا منذ عشرين عامًا ولم يعد.. إنه السيد ضرغام رسول النبيل مارق فيما سبق.

***

(مخفر البارون الأحمر)

انتصف الليل في المخفر الرئيسي الكبير للمقاطعة العاشرة والمُباشر لكل خدمات البارون وخططهم للتأمين في كل الأنحاء.. ذلك المبنى الضخم الخرساني المرتفع فوق أحد الجبال العالية بعيدًا عن التجمعات السكانية والمحاط بسياجٍ حديدية تسري فيها الكهرباء..

نادرًا ما يُسجن الناس في ذئبستان.. إما العمل الشاق أو الموت.. لا بديل ثالث.. ولكن قد يُؤسر بعض البارون من المقاطعات المُعادية ويخضعون للتعذيب لفترات من الزمن أو يُعتقل فيه القلائل من الغرباء المتمردين قبل إعدامهم.

في أحدى الغرف الفارغة إلا من كرسي خشبي صغير جلس فوقه

كبير بارون المخفر السيد (مندوه) مُشعلًا سيجارة من التبغ الخاص به ونافثًا دخانها في وجه ذلك الرجل المُقيد أمامه بسلاسل حديدية تربط قدميه ويديه خلف ظهره.. أشار إلى أحد رجاله ليُزيل الشريط اللاصق عن فمه ففعل ذلك.. كان مهتريء القوام هزيلًا يبدو كالهيكل العظمي من كثرة بروز عظام صدره ووجهه.. ضوء الغرفة خافت فلا يتمكن من رؤية المكان..ابتسم له مندوه:

--ما اسمك؟

--عظيم.

--اسمك عظيم؟

--نعم.

--كيف جئت إلى هنا؟

--اعتقلوني منذ اثني وعشرين عامًا.

--وما تُهمتك؟

--حيازة كتاب.

--ألم يخبرك أحد أن تداول الكتب ممنوع؟

--أتعيدون التحقيق مُجددًا بعد كل هذه السنين؟

قالها ساخرًا مُتلعثمًا فكلماته تخرج بالكاد.

--أجب على أسئلتي دون نقاش.

--نعم أخبروني بذلك.. القانون يمنع تداول الكتب.

--ومع ذلك كان معك كتاب منهم.

--نعم.

--أين هو؟

--قلت لكم مرارًا.. لن أخبركم شيئًا أكثر من ذلك.

--اسمع يا عظيم.. كل ما مررت به في السابق من تعذيب..

لن يماثل أبدًا ما أنت مُقدم عليه.. فتعاون معي لتخرج من أزمتك.

--لن أخبركم عن مكان الكتاب.. لسببٍ بسيط.. أنني لا أعرف.

--ألك ابنًا اسمه (حلم)؟

--نعم.. ولكنه لا..

قاطعه قبل أن يُكمل:

--حلم معتقل منذ عشرين عامًا هو الآخر.

--هذا ظلم بيّن.

--دعني أخبرك سرًا ستعرفه لأول مرة..

أنا لا يهمني ذلك الكتاب ولا أريد معرفة مكانه منك.

--ماذا تريد إذًا؟

--التجربة.

--أية تجربة؟

--تجربة لو نجحت فيها ستحصل على حريتك وكذلك ابنك حلم.

--أنا مستعد.

--حسنًا.. تعال معي.

نهض من مكانه وخرج من تلك الغرفة.. جرجر رجاله عظيم لينتقلوا به إلى غرفة أخرى مجاورة حوائطها حمراء وكذلك أرضيتها وسقفها وكأنهم سقطوا في بحر من الدماء..

يتوسطها فراش حديدي ربطوا يديه وقدميه في أطرافه ورفعوا ظهره ليستقيم جالسًا أمام السيد مندوه.. وصلّوا أطراف الفراش بأسلاك معدنية ووضعوا في جوار السيد مندوه بعض الآلات الحادة فوق طاولة قريبة.

ابتسم له مندوه في ثقة:

--جاهز؟

--نعم.

--فأر وكلب وهرة في صندوق حديدي واحد ليس له باب أو مخرج..

من يتبقى منهم على قيد الحياة بعد عشرة أيام ؟مع العلم أن هناك جرة ممتلئة بالمياه تكفيهم.

--الكلب بكل تأكيد.

--لأنه سيفترس الهرة التي بدورها ستفترس الفأر.. أليس كذلك؟

--نعم.

--ولماذا لم يفترس الصندوق ذلك الكلب؟

--لأنه جماد.. والجماد لا يملك صفات الحيوانات من افتراس.

--ومن جعل الجماد جمادً والحيوانات حيواناتً والإنسان أيضًا إنسانًا.

--الله سبحانه وتعالى.

وصل حينها مندوه أطراف الأسلاك بطرف كهربائي عن طريق زر في جواره.. سرت الكهرباء عاليًا في جسد عظيم واتنتفض صارخًا لمدة ثلاثين ثانية نزع بعدها مندوه الكهرباء عنه وأعاد سؤاله بعد أن هدأت رجفاته:

--من إلهك؟

--الله.

أعاد توصيل الكهرباء مرة أخرى.. كررها كثيرًا وفي كل مرة يزيد من مدتها حتى وصلت لدقيقة ونصف في المرة الواحدة.. ويعاود سؤاله ويجيبه عظيم بنفس الإجابات من دون تردد.

اقترب مندوه من عظيم هامسًا:

--لن تفقد وعيك كما تفكر الآن.. لن تهرب كما كنت تفعل.. لقد أعطيناك دواءًا

يمنع ذلك لتظل يقظًا طوال التجربة.. وللعلم لا نريدك أن تكذب علينا.. ولنر

إن كان لإلهك وجود فلينقذك من يدي.

صرخ عظيم عاليًا:

--ماذا تريدون مني؟

نهض مندوه مترجلًا ناحية شباك الغرفة.. أشعل سيجارة أخرى ونفث منها بعمق ثم نظر ناحية عظيم مبتسمًا:

--نريدك أن تؤمن بالذئب.

***

(قصر النبيل فهد)

(بيت الحمام)

وسط صوت هدير الحمام المتداخل وقف النبيل فهد في المكان الوحيد الذي شعر فيه الرسول ضرغام بالراحة النفسية بعد طول عناء.. بيت الحمام المُلحق بالقصر.. ذلك المبنى المرتفع الساكن فيه الحمام بأعداد كبيرة وفي فنائه غرف للعمال المسئولين عن إطعامه.

هناك عاش ضرغام عشرين عامًا بعد موت حبيبته الغريبة (حنين) أمام عينيه حرقًا والتهمها الغرباء.. ذلك الرجل الذي ترك كل شيء زهداً في دنيا حارب من أجلها لسنوات ولم ينتبه لقلبه حتى طُعن غدرًا.. تحوُّل عجيب من شخصية شهوانية متعطشة للدماء إلى مُعلم كسير القلب الزهد عنوانه.. وكأن حياته السابقة لم تكن له ولم يكن صاحبها.

لم تكن حنين مجرد جسدًا مغريًا رغب في التمتع به ولكنه عشقها.. إنها الحقيقة التي أنكرها كثيرًا حتى اكتشف أنه فقدها للأبد.. وحقيقة أخرى هرب منها لعقود.. المرء مهما كبر في المناصب هنا في ذئبستان سيظل عبدًا لتلك الشرائع.

تلك الحرية التي امتلأ بها صدره زهوًا وتلك الانتصارات تلو الأخرى تبدلت في لحظة واحدة بذلٍ وقهر لا ينتهيان بعد طول صراع بين ما يُلقنه لتلاميذه عن فنون الحرب وشرائع طاغية وذلك الشعور المتنامي في داخله الذي تجاهله لسنوات.. العبودية هي دين ذئبستان الوحيد.

ربت فهد على كتفه مبتسمًا واللهفة تقفز من عينيه:

--أين كنت يا رجل؟

--أحاول الحصول على حريتي.

--بعد كل هذه السنوات مازلت تفكر في نفس الشيء.

--حتى أنعم بها أو أموت.. أيهما أقرب.

--لماذا اختفيت فجأة؟

--أتتذكر قصتي أيها النبيل؟

--أية قصة؟

--الصراع بين الحرية والعبودية.

--كفاك ترهات يا ضرغام.. أخبرني لماذا اختفيت هكذا؟

ترجل ضرغام بين أسراب الحمام مغرورقة عينيه بالدموع:

--ذات يوم.. جئت إلى المقاطعة العاشرة برسالة تُهدد عرشك ومكانتك..

ورافقتك إلى حفل العيد الوطني للذئب.. ظننت وقتها أنني على مقربة من القضاء عليك ومساعدة مارق في الحصول على النبالة الكبرى.. وبعدها سأصير كبير بارون النبيل الأكبر.. ياله من منصب كبير يتضائل أمامه الجميع..

من المؤكد أنني سأفعل ما يحلو لي دون رقيب..

ولكن.. هل سأتمكن حينها من الزواج من فتاة غريبة ؟

كلا.. لا يمكنني الزواج منها أبدًا.. أليس كذلك؟

الشرائع تمنع ذلك..

أي أن الفتاة الوحيدة التي دق لها قلبي وسحرتني لعشر سنوات وفعلت ما في وسعي..

لأحظى بمرافقتها والعيش في جوارها ستصير مجرد متعة خفية مهما بلغت من مناصب.. لا يمكن أن تجمعنا حياة مشتركة وأحلام وأولاد وطموحات..

--أعرف تلك القصة جيدًا يا ضرغام.

--ولكنك لا تعيها.. عذرًا مولاي النبيل.. قل لي ماذا فعلت لأجلي؟

--وهل كونك صديقي المقرب بعد كل هذا العداء السابق، ألا يُغنيك عن السؤال؟

--ذلك الرسول الفاقد للوعي وسط العيد الوطني للذئب.. نُقل إلى قصرك وظل في رعايتك بشهامة أكثر من عام.. أخبرك الأطباء أن نقلي إلى المقاطعة التاسعة يشكل خطرًا على حياتي.. ذلك الغائب في غيبوبة،المخترقة معدته بخرطومٍ تدخلون له الأطعمة عن طريقه حافظت عليه بالرغم من عداوته لك.. وأرسلت إلى مارق تخبره بأنني ضيفك حتى أسترد صحتي.. موقف رجولي عظيم.

--وعند إفاقتك طلبت مني المكوث في المقاطعة العاشرة.. لم ترغب في العودة..

بل والأكثر من ذلك.. فقد أرسلت برسالة في أقدام الحمام الزاجل

باستقالتك من

منصب كبير البارون الأخضر.. احترمت رغبتك رغم تعجبي الشديد.. كيف لفرد من كبار البارون أن يقبل بحياة بسيطة مشرفًا على أعمال الغرباء في عز قوته؟

عينتك كبيرًا لعمال بيت الحمام بناءً على رغبتك.. وعشت هنا لسنوات من دون أن أطلب منك أي شيء.

اقترب ضرغام من فهد متنهدًا:

--وحينما اشتد الصراع بينك وبين مارق.. جئتني تطلب مني بعض الأسرار عن جيش

مارق وعن أماكن مناجم الذهب في المقاطعة التاسعة.

--ورفضت بقوة.. هددت بالطرد فحزمت متاعك ورحلت.

--ولحقت بي على أبواب قصرك.. اعتذرت وانتهى الأمر.

--احترمتك.. صدقت رغبتك في البعد عن كل تلك الصراعات.

--ومن يومها أصبحنا أقرب صديقين.. لطالما جمعنا ذلك البيت سويًا..

نسهر ونحكي ونضحك.

--ربيتَ معي لؤلؤة.

--وياقوت.

--إذًا لماذا تركتني واختفيت؟

--قلت لك لأبحث عن حريتي.

--وهل وجدتها؟

لحظات من الصمت امتلأت عيني ضرغام بالدموع.

--كلا.

--ولماذا عدت؟

--سكنث في كوخ بنيته بنفسي في غابات المقاطعة على مسيرة أربع أيام

.. مكان لا يطأه غيري وبعض الحيوانات التي عملت على اصطيادها بين الحين والأخر.. العيش مع الحيوانات وإن كانت مفترسة ممتعًا للغاية..

وقبل أيام.. قادتني قدماي بعيدًا عن كوخي هائمًا أفكر في حريتي.. مازال هناك عائقًا يحكم وثاق روحي.. إنه الجسد..

فكرث في الروح.. ذلك الكائن الخفي في داخلنا.. من يتركها بغتة

حينما يحلو له.. أيذهب إلى المستودع حقًا؟

كلا.. الذئب كاذب بكل تأكيد.. إلى أين إذًا؟

راودني خاطر بأن الأرواح ترحل إلى خارج ذئبستان...

وكأننا في جحيم تغادره وقتما تقرر ذلك..

ولكن ما الدليل على ذلك؟

ليت أحدهم يعود من الموت ليخبرنا.. أما نحن فلا نجرؤ على

خوض تلك التجربة بإرادتنا.. فقط علينا الانتظار..

وبينما كنت كذلك.. قابلت فرقة صيد يتزعمها كبير بارونك الأحمر.. تعرف عليّ..

وأخبرني بكم المصائب التي تتعرض لها أنت في الفترة الأخيرة من جراء أفعال ياقوت.. وعن توترك وحيرتك في اختيار الوريث من بعدك.

شعرت بأنك تحتاجني وأنه من الخطأ التخلي عن صديق العمر في أحوج سنوات حياته إليّ.. واتفقت معه على مفاجأتك بعودتي كمهرج الفرقة.. هدية لحبيبتي لؤلؤة في عيد ميلادها.

احتضنه النبيل فهد:

--عودًا حميدًا يا صديقي العزيز.

لقد صدق حدسك فالليلة بالأخص أحتاجك إلى جواري.

***

(مخفر بارون المقاطعة العاشرة)

لم تتوقف صرخات عظيم طوال تسع ساعات من التعذيب المتزايد.. اهترئت حباله الصوتية وبات صوته خافتًا يُسمع بالكاد.. وما زال السيد مندوه كبير بارون المخفر مبتسمًا واثقًا في نجاح التجربة.

--من إلهك؟

--الله سبحانه وتعالى.

قالها بصعوبة بالغة.. همس له مندوه:

--أنج بنفسك وأؤمن بالذئب.

--أنا مستعد إن أجبتني عن سؤالي.

--أي سؤال؟

--أيمكن للذئب أن يُميتني الآن؟

--نعم يمكنه ذلك.

--كيف؟

--هكذا.

واستل خنجره من مكانه حول خصره وقربها نحو رقبة عظيم مشاورًا.

--وإن كنت لا تملك الخنجر؟

--فبيدي.

--بيدك أنت أم بيد الذئب؟

--لا تراوغ.

--هذا يعني أنك قادر على قتلي بسهولة ويسر وكذلك يمكنك قتل الذئب العاجز عن موتي.

--صه.

--فلأؤمن بك أنت.

أشار مندوه بيديه بعدها فظهر عدد من الأطباء المنتدبين لخدمة التعذيب في مخفر المقاطعة.. وفي دقائق جُهز عظيم على فراش آخر مُعد طبيًا معقمًا.

تأكدوا من إحكام قيوده وحقنوه بجرعة أخرى من دواء اليقظة ليضمنوا بقاءه واعيًا.

--اتركوني.. لن أخضع لرغباتكم.

--سنرى.

قام أحدهم بإزالة ما تبقى من شعر رأسه بموس حاد عن آخره.. أدار أحد الأطباء منشارًا طبيًا كهربائيًا وقربه من رأسه.. صرخ عظيم بصوت مختنق:

--الرحمة.. الرحمة يا رب.

اخترق المنشار جمجمته في حذر.. صرخات وآهات دون توقف.. كم هائل من الآلام التي لا يتحملها بشر.. حتى انتهوا من شق أعلى جمجمته.. وأزالوا قطعة علوية منها فظهر مخه واضحًا جليًا.. رمقه كبير البارون هامسًا للطبيب في جواره:

--هيا.. اقطع الجزء الخاص بالتوحيد.

تلعثم الطبيب قليلًا:

--ليس الأمر هكذا.

--كيف هو إذاً؟

--لقد شرحت لنائب جنابك أننا سنقوم بحقن مادة تُفقده الذاكرة

في الصدغ الأمامي من المخ..

وحين يفقد الذاكرة ربما يفقد إيمانه.

--ربما؟

--نعم.. غير مضمونة النتائج.

--فلنجربها إذًا.

--حسنًا.

حقن الطبيب مادته في مخ عظيم.. وهو لا يكف عن الصراخ.. وأعادوا جمجمته كما كانت وأحكموا غلقها بأسلاك طبية سميكة.

--انتهيت.. الأهم أن يُحقن بهذه الأدوية بانتظام لمدة أسبوع حتى يستعيد صحته.

--انصراف.

خرج الجميع وبقى عظيم ومندوه وبعض من حرسه الخاص.. انتظر كثيرًا حتى خفت صوت صرخاته وسأله شغوفًا بالرد:

--من إلهك؟

نظر إليه عظيم بعينين زائغتين كادت أن تخرجا من تجويفها.. دقيقة كاملة من الترقب يحاول فيها عظيم الإجابة.. ملأت الابتسامة وجه مندوه أملًا في نجاح التجربة.. ولكن خابت ظنونه.. نطق عظيم أخيرًا بصوت خافت.

--الله.. الله.

صاح مندوه في حراسه:

--ألقوه في زنزانة فردية حتى نعرض أمره على الذئب.

***

(قصر النبيل فهد)

(صباح اليوم التالي)

وقفت عربة البارون التي يجرها الغرباء أمام قصر النبيل.. وطأت أقدامه أرض القصر لأول مرة مُقيدًا فقد قُبض عليه بأمر من النبيل فهد شخصيًا.. لم يتخيل أن يأتي يومًا يدب بقدميه ذلك المكان وإن كنت أنا في داخله.. أنه رئيس بارون معسكر الفضيلة سابقًا.. الرجل ذو القدم العرجاء والعين الزجاجية اليمنى.. السيد شاهد.

دقات الغدر

«سيخرج من رحم الطغيان مُقاتل للذل والهوان حتى يفور التنور وتغدو أسراب النجاة على أبواب سفينته»

عجائب الأمصار في ذئبستان

المؤلف:مجهول

***

(قصر النبيل مارق-المقاطعة التاسعة)

نهارٌ جديد في بلاد الأعداء ينبئ بدنو الانتصار الّذي طالما انتظره النبيل مارق طوال ربع قرن من الزمان.. بعدما رُفعت الأعلام الخضراء فوق أربع مقاطعات نجح في هزيمتهم والاستيلاء على مناجم الذهب السريّة فيها وأصدر قانونًا بإعادة ترسيم الحدود بينه وبين أعدائه ووافق عليها الذئب في مرسوم ذئبي تغيرت على أثره ساحات المعارك وأماكنها.

حلمٌ بعيد ببلوغ النبالة الكبرى يراه يقترب على التحقق ولكن النبيل فهد خصم عنيد استغرق قرابة العشرين عامًا لاختراق حصونه العتيدة.. هكذا ظن مارق.

وقف مارق في شرفة قصره العالي فوق جبل في أطراف المقاطعة التاسعة، ذلك الرجل الذي يهابه الجميع..وعلى الرغم من فقدان ذراعه اليسرى في أحد الحروب فلم تقل كفاءته القتالية أبدًا، تلك التي يصر أن ينميها وسط جنوده من البارون بل ويشارك في

الصفوف الأمامية في المعارك.

مازال يتذكر تلك اللحظة جيدًا.. حينما هوى سيف نبيل المقاطعة الخامسة قبل هزيمته على ذراعه ففصله عن جسده.. ظن حينها أنه فاز بالحرب وانتهى مارق إلى الأبد.. ولكن مارق غافله في نفس اللحظة وقطع رأسه.. وسقط جسده أرضًا تندفع منه الدماء حتى سكن.. أمسك مارق شعلة من النيران وقربها لمكان قطع ذراعه وأحرقه من دون أن تهتز له شعرة، ثم ركل رأس غريمه بعنف مُهللًا وسط جنوده:

--النصر لي.. النصر لي.

--فليحيا النبيل مارق.. فليحيا النبيل مارق

وعلت الأعلام الخضراء لذئبستان مُعلنة وقوع المقاطعة الخامسة تحت سيطرة التاسعة.

بلغت امبراطوريته عنان السماء لتناطح العاشرة.. انقسمت ذئبستان إلى كتلتين كبيرتين متنازعتين.

المقاطعة التاسعة والعاشرة.

فهد ومارق يتصارعان نحو نيابة الذئب ولكن لهدفين متباعدين.. فمازال ذلك الوعد الّذي طلبته زوجة فهد (فيروز) منه يراوده حتى اللحظة.. يتمنى أن يُحقق لها المراد ولكن كل شيء يقف عائقًا أمامه حتى نفسه الّتي تربت على تلك الشرائع المُوصى بهدمها.

أما مارق فهو أشد قسوة من الذئب ذاته في تنفيذ شرائعه.

ارتشف الخمر من كأس في يده شاردًا.. كأس كبير صُنع من جماجم قتلاه في الحروب.

رمق تلك السماء الشاسعة والشمس الّتي تملأ الأرض بضيائها وتمنح الجميع دفئها.. ود لو أمر بمنعها عن الغرباء.. أولئك العبيد لا يستحقون أي شيء.. تحسس تلك الذراع الذهبية الصناعية الّتي ركبها له الأطباء.. ثم جلس على طاولة الطعام.

التهم طعامه الصباحي الشهي من بهاريز أطفال الغرباء المشوية على أسياخ حديدية وحيدًا.. فعلى الرغم من زيجاته التي لا حصر لها فلم تستمر أي منهن أكثر من عام في جواره.. ربما لأنه لا يعشق النساء.. أو لأنهم فشلوا في منحه طفلًا صغيرًا يكبر في كنفه.. جميعهم يصمونه بالعقم وإن لم يصرحوا بها في وجهه.

تنهد مارق أملًا في تحقيق أهدافه عما قريب.. ترجل إلى داخل غرفته الاستثنائية التي لا يدخلها إلا المقربين.. يطلقون عليها «متحف الانتصارات المارقيّة» نسبة إليه.. محظور على خدمه أن تطأ أقدامهم داخلها.. فقط نائبه الأول السيد (هجرس) وخمسة من المساعدين المُختارين بدقة، من يشرفون على تنظيمها ونظافتها طوال عشرين عامًا.

غرفة شاسعة حوائطها من المرايا الزجاجية وسقفها زجاج مطلي باللون الأخضر وصورة الذئب تتكرر في كل مكان في الغرفة أعلاها وأسفلها مرسومة باللون الأسود.

صناديق زجاجية شفافة تملؤها.. احتفظ مارق فيها ببعض جثث منافسيه وبارونهم.. غُمست جثثهم في سائل الفورمالين داخل تلك

الصناديق المنتشرة في غرفته.

كومضات من الماضي تمد قلبه بالنشوة كلما وقعت عيناه عليهم.. مئات من الصناديق وفي كل صندوق حكاية.. مابين أكثر بارون الأعداء صلابةً وتحدي وغيره من الورثة الّذين ناطحوه فيما سبق أو دبروا للإطاحة به وغيرهم كثيرون.

لم يتوقف الأمر عند ذلك الحد.. بل كان لمارق طقوس عجيبة في الانتقام من أعدائه والتلذذ بانتصاره عليهم.. طقوش تملأ نفسه بالشبق والنشوة العارمة.

كل هؤلاء قد مروا بآلة المزاج.. هكذا سماها مارق.. آلة ذهبية كبيرة وُضعت في مدخل تلك الغرفة.. يشرف على عملها نائبه (هجرس) الشهير في ذئبستان بصانع المزاج.. آلة توضع فيها جثة أحدهم بعد موته مباشرة.. فأغلب نزلاء هذه الغرفة قد أمر مارق بخطفهم أحياءً حتى بابها ثم يخنقونهم قبل لحظات من دخولهم لآلة المزاج.

ومن كان جسده مصابًا من جراء الحروب أو ما شابه ذلك، كانوا يشرفوا على علاجه حتى يسترد صحته تمامًا.. ويُستبعد تمامًا من مات في ساحة المعارك.

بمجرد دخول جثة المُختار إلى آلة المزاج حتى يُحكم الغلق عليها وتُغمس في سائل الفورمالين يومًا بليلة ثم يستبدلونه بماء ورود مُعتّق ليومٍ أخر ثم يستخرجون صاحبها ويُجملونه بمساحيق التجميل ويُلبسونه ثيابًا نسائية ساخنة كتلك التي يرتدونها النساء لأزواجهن في غرف نومهن المغلقة.. الأكثر إثارة على الإطلاق، ويضعون الجثة فوق فراش كبير يتوسط تلك الغرفة حتى يهل

موكب المُنتقم.. مارق.. وتُغلّق الأبواب وتُطفأ الأنوار ماعدا الخافتة منها وتُدار الموسيقى الهادئة الرومانسية.. ليمارس مارق متعته الوحيدة في هذه الدنيا.. ممارسة الفضيلة مع الموتى من رجال تحدوه يومًا ما.. إن جسدهم العاري المائل للون البني في ثياب نسائية يثيره كثيرًا.. لدرجة أنه قد يقضي ساعات وساعات مع أحدهم من دون ملل أو كلل.

أما بالنسبة لشرائع الذئب فلا يوجد فيها ما يمنعه من ممارسة ذلك على الإطلاق بل أنها تُعطيه الحق كنبيل منتصر في حرمان أي من رعيته من دخول المستودع بعد الموت من دون إبداء أسباب.. ويطبق ذلك سواء على الغرباء والبارون والورثة.

جثة واحدة من الرجال متعته معها تفوق كل زوجاته الأحياء مجتمعين.

وقف مارق وسط غرفته مُستنشقًا هواء النصر.. استمع إلى دقات على باب الغرفة، دخل بعدها نائبه هجرس الضخم البنيان برسالة صغيرة في يده ناولها له مُبتسمًا بزهو:

--وصلت للتو بالحمام الزاجل.

قرأها مارق في سعادة غامرة ملأت وجهه لتؤكد حدسه وما سبقها من رسائل:

«بدأ العد التنازلي.. استعد للنبالة الكبرى»

***

(قصر النبيل فهد)

دقت طبول الغدر وانتصرت سهام التعالي على الرحمة بعد طول صراع دام عشرين عامًا دون توقف.. جلس السيد شاهد في باحة قصر النبيل فهد ليشهد فصل جديد في قصتي الّتي بدأت بين يديه طفلًا رضيعًا يتيمًا.

كأن الماضي يُلاحقه بضراوة على الرغم من فراره منه بكل ما أوتي من بعاد.. فبعد ما جرى لوعد واكتشاف هروبها انقلبت الدنيا رأسًا على عقب في معسكر الفضيلة ووجه السيد شديد حاكم المعسكر التهم جزافًا للجميع وعلى رأسهم رئيس بارونه شاهد.. ولم ينقذه سوى العثور على جثة وعد تطفو في مصب النهر عند مدخل المدينة والتعرف عليها بالكاد واقتاد البارون جثتها إلى المعسكر.. واكتفى شديد بعزل شاهد من منصبه دون أي إثبات لاتهاماته له.

امتلأت نفس شاهد بالسعادة الغامرة لتخلصه من قيود البارون وابتعد حتى عن زوجته وأولاده الّذين تشبثوا بشرائع الذئب بكل ما لديهم من غرور.

انفصل عنهم وعاش في قرية للغرباء تدعى (قرية وعد) هكذا أطلقوا عليها بعد انتشار قصتها كالنار في الهشيم.. تلك السيدة التي حاولت التمرد على الذئب ولو بالموت ضاربة بالمستودع عرض الحائط.. التي سبّت الذئب علانية دون خوف.. باتت رمزًا يذكره الغرباء في قصصهم و ينسجون الأساطير حول طفلها الرضيع الذي اختفى قبل موعد ولادته وكأنه شق بطنها بنفسه ليفر من نيران الورثة وطغيانهم ويتوقعون عودته يومًا ما ليُحررهم من الظلم والعبودية.

عمل شاهد رئيسًا لعمال جني المحاصيل الزراعية من الغرباء وعاش بينهم بعدما عثر على الراحة النفسية التي طالما تعذب بحثًا عنها وسط البارون والورثة.

رغم العذاب والانكسار والمذلة مازالت أنفس الغرباء تمتلئ بالأمل.. رآها في وجوههم المتشققة و أياديهم الخشنة رجالًا ونساءًا.. حتى أطفالهم المقبلين على مستقبل أسود مازالوا يضحكون من القلب.. تلك القلوب المظلمة مازالت تحوي في داخلها بقع ضوء تصارع.. صرخات خافتة بالحرية تقاوم ظلام العبودية.. وربما يأتي يوم ينتصر فيه ضياؤهم وتُطرد جيوش العتمة خارج الصدور.

تقدم بعض البارون لاصطحاب السيد شاهد إلى داخل القصر.. كنا مجتمعين في غرفة الاجتماعات الخاصة بالنبيل فهد على غير ميعاد.. فقد أرسل إليّ نائبه صباح ذلك اليوم للحضور عاجلًا إلى غرفة الاجتماعات وما أن ذهبت إلى هناك حتى وجدت لؤلؤة حبيبتي ومعلمي ضرغام الّذي تفاجئت ولؤلؤة بعودته بعد غياب لأكثر من عام.. حاولنا مقابلته ليلة أمس ولكن السيد فهد أمرنا بالخلود إلى النوم بعد انتهاء الحفل مباشرة على أن نقابله في الصباح الباكر.

--معلمي!

هرعت إليه لأحتضنه بشوق جارف، ربتّ على كتفي بيد مرتعشة يفترسها القلق القافز من عينيه بوضوح:

--كيف حالك يا ياقوت؟

--بخير يا معلمي ضرغام.. أين كنت طوال هذه الفترة؟

--ليس الآن.. ستعرف كل شيء في حينه أنت ولؤلؤة.

نظرتْ إلى لؤلؤة الصامتة.. هناك شيئًا مريبًا يخفونه.

--ما الذي يدور هنا؟

--سنخبرك.. ولكن عليك بكبح جماح نفسك لتعرف الحقيقة بأكملها.

قالها النبيل فهد مُتنهدًا.

--أي حقيقة؟

أشار حينها إلى نائبه فخرج وبعد لحظات دخل بصحبته ذلك الرجل الذي شاهدته مُنتظرًا عند باب الغرفة أثناء دخولي منذ قليل.. رجل أعرج ذو عين يمنى زجاجية لم أره من قبل.

--تعال يا سيد شاهد.

ناداه فهد فانحنى برأسه تبجيلًا له بعد أن مثُل أمامه:

--عمت صباحًا يا مولاي النبيل.

أشار مرة أخرى إلى نائبه:

--فليخرج الحراس وأنت معهم.. كونوا على مقربة منا.

--أمر مولاي.

خرج جمع الحراس ولم يتبق غيري ولؤلؤة ومعلمي ضرغام والنبيل فهد وذلك الرجل الغريب المدعو شاهد.. اقترب فهد مني ونظر في عينيّ مترددًا ثم استجمع قواه وشرع في الحديث:

--ما سأقصه عليك الحين قد أخفيته عنك طوال عشرين عامًا.. وقد آن أوان كشف الحقيقة.

--أية حقيقة؟

--حقيقة نسبك يا ياقوت.

--نسبي!

لحظات من الصمت القاتل قطعها فهد كسكين بارد دبه في صدري بنجاح:

--لم تكن يومًا من الورثة ولم تنتسب إلى أي منهم.

برقت أعيننا جميعًا ماعدا فهد.. تسائلث هامسًا من دون أن يسمعني أحد:

--أهذه محاولة أخيرة لإبعادي عن مؤازرة الغرباء؟

--أبي!

قالتها لؤلؤة مستنكرة ما استمعت إليه للتو.

--مهلًا يا لؤلؤة.. فقد سئمت إخفاء الحقائق.. ياقوت من الغرباء.

صرخث حينها في وجه فهد كاسرًا كل الحواجز الأخلاقية التي حاولت بنائها بيني وبينه طوال عمري:

--أنت كاذب.

--صه واستمع.

--ألهذا الحد جرح كبريائك مساعدتي للغرباء؟

--تساعدهم لأنك منهم.

--لستُ منهم.

--الآن تشعر بالخزي لانتمائك لهم.

--كف عن هذه اللعبة السخيفة.. قلها صراحة أنك تكرهني.

--لقد ربيتك كابنٍ لم أنجبه.

--كاذب.. أنت كاذب لعين.

صفعني حينها بقوة فتوقف الزمن من حولي.. تساقطت الدموع من عيني لؤلؤة وسط صمت مريب من ذلك الضيف السيد شاهد الذي لا أعرف حتى اللحظة سبب وجوده في نزاع خاص كهذا، تدخل ضرغام مُهدئًا:

--اهدأ يا ياقوت.. وأنت يا فهد.. فسر ما تقول وإلا فلننه ذلك اللقاء كأنه لم يكن.

تنهد فهد وترجل ناحية شرفة الغرفة.. وقف عند مدخلها واستنشق الهواء مغرورقة عينيه بالدموع هو الآخر ثم استدار لنا وبدأ قصته السخيفة:

--ليلة وفاة زوجتي فيروز أثناء ولادة ابنتي الوحيدة لؤلؤة.. خرجنا في موكب مهيب نحو المستودع لتوديع جثمانها ،وعدت مُنكسرًا ليس فقط حزنًا على فراقها الذي يعتصر قلبي بآلام لم تهدأ طوال هذه السنين.. ولكن لجنس المولود الوحيد بيننا.. أنثى!

والأنثى لا تتولى مقاليد الحكم في ذئبستان.. تلك الإمبراطورية التي أسعى لها ربما تسقط يومًا ما في يد غيري من العائلة ممن لديهم أهدافًا أخرى بعيدة عني.. صراع مرير انتابني بعدما اتخذت قرارًا باعتزال النساء بعد فيروز.. متسائلًا في حيرة: هل أتزوج من جديد لأنجب ذكرًا؟ قلبي يرفض وعقلي يتردد.. نزاع لا يُقارن.. وفي خضم صراعاتي النفسية أخبرني نائبي بعثوره في خلفية عربتي التي يجرها الغرباء على طفلٍ رضيع وُضع شريط لاصق فوق فمه.. وبالكشف عنه عرفت أنه ذكر.. ذكر مجهول النسب في عربتي التي تمر خلال الغابات في طريقها إلى المستودع.. راودني شعور بالامتلاك والطمع في تربية من يصلح لخلافتي في منصب النبيل ويكمل طريقًا حتميًا نحو النبالة الكبرى دون الاقتران بنساء رغبت في اعتزالهم حتى نهاية العمر.

هدية على طبق من ذهب.. سأخبر الجميع أن فيروز أنجبت توأمًا وينتهي كل شيء.. ولكن لم تكتمل فرحتي به بعدما أمرتُ برعايته مع ابنتي وأطلقت عليه اسم ياقوت.. وكأنني أقتني الدرر في قصري وحدي.. عاد إليّ نائبي بخبر العثور على سيدة من الغرباء عند مصب النهر المار في الغابة مشقوقة البطن.. وبمراجعة تاريخها عرفت أن ذلك الطفل الواقع تحت رعايتي هو ابنها.. واحد من الغرباء في قصري! قصر النبيل.

كانت كلماته كسكين تذبحني رويدًا رويدًا دون موت.. لم أتخيل يومًا أن ذلك الشعور المتملك لنفسي بكراهية الورثة له علاقة بنسبي.. الآن أدركت حقيقتي.. أنا من الغرباء!

استكمل فهد قصته في إنصات من الجميع:

--ودخلت نفسي صراع جديد لم يتوقف حتى اللحظة.. صراع بين رغبتي في ذكر يتبعني وبين سلطتي وشرائع الذئب الّتي تحكمها.. أرضيت نفسي قليلًا، وادعيت أنه ابن أحد الورثة المنتمين لفرع بعيد من العائلة وحاولت تنشئته كما ينبغي.. وترعرع ياقوت وكبر فتى يافعًا فارسًا يهابه الجميع ولكن مع الأسف الشديد أصله ونسبه يجرجرانه نحو الغرباء بقوة فأصبح من المستحيل توريثه لمنصبي ، وبالأخص بعد كم الفضائح التي تسبب فيها دعمًا لهم والتي ساعدته في النجاة من نتائجها بصعوبة بالغة.

حاولت حمايته ولكن الضغوطات تزداد كل ساعة.. سواء من النبيل الأكبر الذي يصر على معاقبة ياقوت.. أو أفعاله المكشوفة الّتي تفاقمت معه الأزمة أكثر وأكثر.. وعلى الرغم من قبول الذئب لاعتذاره عما جرى في رهان الغرباء منه.. ولكن عيون الذئب رصدت وجوده بعدها مع كل الهاربين من حكم الإعدام حرقًا في حفل العيد الوطني للذئب قبل اختفائهم.. تأكدوا من ضلوعه في تحريض الغرباء وغيره وغيره حتى صار عقابه حتميًا وإلا خسرتُ منصبي.

قاطعه ضرغام بحدة:

--ما دليلك على هذا النسب المتدني؟

--هذا الرجل.. شاهد.. رئيس البارون السابق في معسكر الفضيلة.

أشار ناحية شاهد الصامت طوال الحديث متابعًا لما يدور في ترقب شديد.

--أنا..

قالها شاهد مترددًا بينما قاطعه فهد:

--لم أكمل حديثي بعد.

--عذرًا يا مولاي.

--لقد التقطته عيون الذئب الغير رسمية الخاصة بقصري وهو يخفي الطفل الرضيع في خلفية عربتي ليلًا ولم يكن من الصعب ربط الخيوط ببعضها البعض لأتعرف على نسب ياقوت.

--عيون ذئب غير رسمية؟

تعجب ضرغام كثيرًا ففسر له فهد:

--أعلم أنه مخالف لشرائع الذئب ولكنني زرعت عيونًا خفية للذئب في أماكن عديدة في المقاطعة.. تنقل لي الصورة كاملة بعيدًا عن معلومات محدودة ينقلها لي النبيل الأكبر عبر عيونه وتجعلني متابعًا عن كثب لكل جديد وتمنحني التصرف قبل فوات الأوان.

--أنت تخاطر بكل شيء أيها النبيل.

--كلا يا ضرغام.. أنا أريد كل شيء.

--كفوا عن تبادل الاتهامات.. فليذهب الذئب إلى الجحيم.

قالتها لؤلؤة والدموع تتساقط من عينيها من هول المفاجأة.. نظرت ناحيتي والخرس يُلازمني.

اقترب منها فهد محتضنًا إياها.. ثم نظر ناحيتي:

--والآن.. عُد إلى أصلك.. لقد أصدرت مرسومًا ذئبيًا بتجريدك من امتيازات الورثة

وأعلنت انتمائك للغرباء ومنذ اللحظة تُعامل معاملتهم.

سقطت لؤلؤة مغشيًا عليها فاقدةً للوعي.. هرعت تجاهها صارخًا

--لؤلؤة!

--أيها النائب.

نادى فهد بعلو صوته فدخل جنوده وفي مقدمتهم نائبه على الفور..

تدخل بارون النبيل بإشارة من يده وقيدوني رغمًا عني و جرجروني والسيد شاهد إلى خارج القصر.. وأخر ما استمعت إليه صوت فهد صارخًا:

--استدعوا الطبيب فورًا.

ألقوني في تلك العربة التي جاء فيها السيد شاهد.. وأمروا الغرباء بالتحرك ركضًا ضاربين ظهورهم بالسياط ليزيدوا من سرعتهم ليقذفونني بعيدًا عن القصر مطرودًا من جنة الورثة إلى جحيم العبيد.

***

(مخفر بارون ورثة المقاطعة العاشرة)

--قد يُنتزع من الإنسان كل شيء غير إيمانه.

تلك الجملة كانت نتيجة التجربة الأولية التي أجراها مندوه كبير بارون المخفر مع السجين المعتقل عظيم.

«مولاي النبيل الأكبر مازال المدعو عظيم يعترف بالله ولم يستجب إلى كل وسائل التعذيب المُدرجة وفي انتظار تعليماتك المُقدّسة»

وجاء الرد سريعًا:

«فلتستمر التجربة»

خضع بعدها عظيم لكل أنواع التعذيب، وأبشعها على الإطلاق اليقظة من دون نوم.. تلك التي تُقاتله بذلك الدواء اللعين المحقون في أوردته بانتظام. وفي نهاية كل يوم يتكرر السؤال المعتاد:

--من إلهك؟

فيجيب بصوت مرتعش:

--الله.

صرخ فيه مندوه بعد عدة أيام في عصبية شديدة:

--لم أر في حياتي أغبى منك.

--الغباء هو ما أنتم عليه.

--ما ينطق به لسانك ويؤمن به عقلك وقلبك ليس له وجود على الإطلاق..

وإلا لماذا تركك هنا في قبضة الذئب يفعل بك ما يشاء؟

--قد يعتقد الشيطان أنه الفائز ولكنه اختبار من الله.

--أيها المعتوه.. الذئب هو الحاكم لكل شيء.. آمِن به تنج بحياتك.

نهض حينها عظيم ووقف متحاملًا على نفسه وناظرًا في تحدٍ بعينيه الغائرتين ناطقًا بصوته المتحشرج المرتعش:

--والله لو جاء ذئبكم هذا بخير الدنيا كله لن ينال مني غير كل كفر واحتقار.

--افقأوا إحدى عينيه وقدموها له في طبق يملؤه القاذورات ولا تتركوه حتى يأكلها كاملة ويبتلعها.

قالها لحراسه وانصرف.. جن جنونه بسبب هذا الرجل العنيد.. كيف تمكن من التغلب على دواء النسيان؟ لم يفقد ذاكرته قط.. وكأن مركز الإيمان لا يكمن في الرأس على الإطلاق.

كان مندوه نموذجًا للرجل الباروني المطيع لأوامر الذئب دون نقاش أو تفكير مُقدِسًا لكل ما هو ذئبي.. ولذلك اجتاز زملاءه من البارون سريعًا وصولًا إلى هذا المنصب على الرغم من صغر سنه.. لقد أمره نائب الذئب فيما سبق من ضمن اختبارات عشوائية تُجرى لمن يرون فيهم روح القيادة قبل توليهم المناصب التنفيذية بذبح أصغر أطفاله وانتزاع قلبه و مضغه بأسنانه وما كان منه غير التنفيذ دون أن يفكر ولو لحظة أو تهزمه أبوته.. فعلها بصدر رحب مُبتسمًا:

--على المرء أن يُطيع الذئب في كل شيء.. فالذئب يعرف أكثر.

أُغلق باب الزنزانة الفردية على أوجاع لا يتحملها بشر. ومع ذلك كان قلب عظيم يرى الضوء في نهاية أنفاق الظلام وإن أنكرت كل العقول ذلك.. ترك نفسه تتشبث في سفينة قلبه مؤمنًا بالرسو على

شاطيء الأمان يومًا ما.

***

«أحكام:باسم الذئب العظيم يُسلب المدعو «ياقوت بن وعد» كل امتيازات الورثة ويُعلن من ساعته وتاريخه فردًا من الغرباء وتُطبّق عليه كل الشرائع طبقًا لقانون ذئبستان»

تردد ذلك الصوت الأجش عبر مكبرات الصوت -المُعلّقة في جوار عيون الذئب في كل مكان- في آن واحد.. تلك الّتي يُطلقون عليها إذاعة ذئبستان الخبيثة.. كونها تتسلل إلى مسامعهم رغمًا عنهم طوال اليوم ولا تنكتم أصواتها سوى بعد غروب الشمس.. ما بين موسيقى حماسية وأخبار لانتصارات النبيل فهد الماضية وقصصًا يرويها البارون عن الحروب وبعض الأغاني المؤلفة خصيصًا لتبجيل الذئب وخاصته.

تكرر البيان على فترات طوال اليوم.. كنت جالسًا في تلك العربة الّتي يجرها الغرباء مع السيد شاهد.. لم يتوقف عن الحديث ولو للحظة ولكنني لم أسمع ما يقول.. فقد توقف عقلي عن استقبال الكلمات وتفسيرها.. مشاعر متضاربة تتصارع في صدري.. أشعر بقلبي يختنق بيدٍ قاسية تصر على إيقافه عن النبض ولكنه يُقاتل ليبقيني على قيد الحياة.. يستل سيفًا من شباب ما زلت في ريعانه ويُشهره مُدافعًا ضد كل غيلان اليأس والذل والهوان.. من كافحت طوال عمري من أجلهم لأنزع عنهم ثوب العبودية وألبسهم رداء من حريتي، قد صرت أكثرهم رقًا ومهانة.. اليوم كُتبت وثيقة وفاة روحي الملكيّة وحل محلها روح ذليلة.

إنسان أسير شرائع طاغية بلا حقوق.. بلا مستقبل.. بلا عشق ممكن.. لقد بُنيت السدود بيني وبين لؤلؤة في لحظة واحدة.. وأخبرونا ألا تلاقيا بعد اليوم.. ركلوا قلبي بعيدًا عنها ليُنفى تحت قيود الذئب إلى الجحيم.. جحيم فراقها.

لم يمهلوني بعض الوقت لأُودعها.. لأحفظ ملامحها عن ظهر قلب وأُغمض عيون قلبي على ضحكاتها.. ملعونٌ ذلك الإنسان المُتَكبِّر.. بالأمس كنتُ مالكًا للدنيا مشارقها ومغاربها فارسًا معشوقًا آمناً. حبيبته بجواره لم يرتو من غرامها قدر المستطاع.. لم أضع في الحسبان ساعةً للفراق.. لم أتخيل أن هناك شيئًا في هذا العالم يمكن أن ينتزع قلوبنا من أحضان الأمان.

اليوم أضحت أحلامي سرابًا وطُعن القلب في مقتل وبات لقائنا ضربًا من الخيال.

أتحب وريحة واحدًا من الغرباء؟ ياللعار! وأي وريحة هي؟ الابنة الوحيدة للنبيل فهد والمرشح بقوة ليصير نائبًا أولًا للذئب.. محال عشقنا.. محال حياتنا تلك الّتي بنيناها في قصور هوانا على جبال من السهد والوجدان.. صارت خرابًا، دمارًا، وعلى أطلالها ولدت تعاستي.

سألني معلمي ذات يوم عن الموت حيًا.. أيمكن للمرء أن يموت وهو على قيد الحياة؟ أولئك النابضة قلوبهم بحياة زائفة ولكنهم في عداد الموتى من قبل ولادتهم وولوجهم إلى تلك الدنيا.. فأجبته بيسر وسهولة.. نعم.. فسألني: من هم إذًا؟ فأجبته: إنهم الغرباء. واليوم أدركت إجابة أخرى يدمي لها العقل والقلب.. الفراق قهرًا..

التعايش بُعدًا عن المحبوب دون أي فرصة أو أمل في اللقاء.. ذلك أقسى موتًا للأحياء.. وها أنا ميتهم الكبير.

توقفت العربة عند مدخل المدينة وطالبنا البارون بالمغادرة.. لم ألحظ أنهم أجبروني على تغيير ملابسي الملكية في الطريق بمساعدة شاهد وألبسوني كالغرباء.. قطعة من القماش الأسود الملفوف حول خصري موارية سوأتي.. وكأنني قيد غيبوبة من نوعٍ خاص.

انفتح الباب وهبط شاهد واقفًا ونظر تجاهي مُتأثرًا مُتلعثمًا:

--انحني يا ياقوت.. ازحف على أربع يا بني كالغرباء.

سقطت دمعة من عينيّ هاربة من نيران تلتهم نفسي غير مصدق ما أعيشه للتو.. تحطم كبريائي واعتزازي بحريتي ونزلت ببطء منحنيًا لأرى أرض ذئبستان لأول مرة عن قرب.. أرض رملية مليئة بالحصى الصغير المؤلم وينبعث منها رائحة كريهة يبدو أنه مزيج لعرق الغرباء المنتشرين حولنا في كل مكان يسعون لأعمالهم على أربع مثلي.. استمعت لإذاعة ذئبستان تُذيع نبأي وتكرره والناس لا يأبهون لذلك.. توقعت أن يتوقفون.. يتعجبون.. يصرخون بالرفض.. يثورون لأجلي.. يالحماقتي! أنتظر الثورة ممن سلبوا الحياة؟ نظرت إلى شاهد عاليًا فربتّ على رأسي مواسيًا:

--تعال يا بني.

--إلى أين؟

--إلى بيت أمك.

--أمي!

انخفض حينها شاهد على ركبتيه ونظر في عيني:

--وعد.. أمك وعد يا بني.

اصطحبني شاهد في طريق يملؤه الأشواك.. جُرحت يدي من أثر ذلك الحصى اللعين.. حاول شاهد التهوين عليّ والتحدث في أمور بلهاء وكأنني سائحًا يرافقه في جولة سياحية في ذئبستان.. أخبرني عن بيوت البارون ونسائهم وعن مصنع الكهرباء اليدوي المشتغل فيه الغرباء وعن محالج القطن ومصانع الخمور وغيرها ممن مررنا في جواره في طريقنا إلى بيت أمي كما زعم.. لازمنا طوال الطريق قرد كان يقفز بجوارنا وكأنه يحتفل بقدومي.. وتلاقينا فيلًا يعبر الطريق.. تلك النظرة في عيني ذلك القرد المُصر على مرافقتنا تحاصرني.. وكأنه يقول:

--مرحبًا بك أيها الوافد.. أهلًا بالحيوان الجديد.

نعم.. لقد شبّهث ذات يوم الغرباء بالحيوانات المسلوبة الإرادة الساعية نحو طعام يكفي قوت أيامهم فقط.. لا كرامة ولا مباديء يدافعون عنها ولا مستقبل يسعون إلى تحقيقه.. وها أنا الآن حيوانًا جديدًا أنضم إلى غابة الذئب الكبرى.

عبرنا سوقًا شاسعًا يفترش فيه الغرباء الأرض وينادون على بضاعتهم الّتي منحها إياهم البارون المشرفين على الزراعة ليبتاعونها مقابل أجور يومية.. أغلب النساء حولي قد تخطت أعمارهن سن الأربعين بعدما أنهين فترة خدمتهن في معسكر

الفضيلة ولكن الرجال من جميع الأعمار.

فلم ينج من مقصات إخصاء الورثة سوى العشر منهم فقط.. أولئك الّذين تجدهم يرتادون السوق مرفوعي الرأس من الفاضلين شبابًا يعتبرون أنفسهم أفضل فئة من الغرباء.. عرفتهم من تلك القماشة الملتفة حول خصرهم مثلي.

بينما ارتدى البارون ثيابهم كاملة حاملين شارتهم الحمراء أو خالعيها بعد خروجهم من الخدمة.

عبرنا ذلك الجسر فوق النهر المكتظ بمراكب صغيرة لصيد الأسماك الّتي يملأ بها الورثة بطونهم.. توقفنا عند محطة القطار الموازي للنهر وسط أعداد غفيرة من الغرباء.. كنت كحبة رمل وسط صحراء قاحلة لا أتميز عنهم مهما حاولت.

وصل القطار سريعًا يُقلّ ما يقرب من عشرة آلاف غريب من القرى.. زحفوا حولي نحو أشغالهم وشققت وشاهد بصعوبة بالغة طريقنا نحو عربة القطار المواجهة لنا وسط زحامهم.

أمسك شاهد يدي كي لا يفقدني واتخذنا زاوية في العربة ملجأ من تلك الحشود المكتظة في جوار بعضهم البعض في ذلك القطار الخاوي من مقاعد للركاب.. وأي مقاعد تلك التي تصنع للغرباء! لم يكن هناك أحد من البارون يرتاد ذلك المكان على الإطلاق غير شاهد وبعض الحراس المشرفين على النظام داخل العربات.. كنت مقهورًا بين تلك الجدران السوداء التي يكسوها عفن أخضر اللون كريه الرائحة وأرضية تملؤها القاذورات.. وكأنهم تحولوا لخنازير حقيقية كما يصورهم الورثة في عروضهم المسرحية.. يتمازحون

ويتسامرون فيما بينهم وكأنهم في نزهة.. أهؤلاء فقدوا أغلى ما عندهم؟ الشرف والحرية.. استمعت إلى أحدهم يجهر بصوته:

--استحموا قليلًا أيها المجبوبين.. ما هذه الرائحة الكريهة؟

فأجابه غريب في الجهة الأخرى:

--انها رائحة أمك.

وانخرط مرتادو القطار في الضحك.. أخرج بعدها الحراس سياطهم وبدأوا يضربون بها الغرباء:

--كفوا عن الضحك.

نالني معهم ضربات سياط موجعة مع أنني لم أشاركهم الضحك.. لم تُجد توسلات شاهد للحارس القريب ليمنع سياطه عني.. أقسم بأنني لم أشعر به ولو للحظة فقد تفاقم ألمي الداخلي عن آخره ليخفت مقارنة به أي آلام أخرى مهما بلغت أوجاعها.

بعد ساعة تقريبًا وصل القطار إلى وجهتنا.. جرجرني شاهد خارج العربة قبل أن يتحرك مُبتعدًا.. عدد هائل من الناس على المحطة هنا أيضًا ولافتة كبرى تعلوها.. قرية المجبوبين.

نظرت لها متعجبًا فلحقني شاهد مُفسرًا:

--يسمونها ما يشاؤون ولكن سكانها أطلقوا عليها اسم أمك.. قرية وعد.

«أحكام:باسم الذئب العظيم يُسلب المدعو «ياقوت بن وعد» كل امتيازات الورثة، ويُعلن من ساعته وتاريخه فردًا من الغرباء، وتُطبق

عليه كل الشرائع طبقًا لقانون ذئبستان»

مازال الصوت الأجش يتردد في كل أرجاء ذئبستان.. ابتعدنا قليلًا عن المحطة وزحفت على أربع وسط طريق ممهد يمر بين الأراضي الزراعية الشاسعة والمتناثر فيها بعض البيوت يبدو أنها للمشرفين على الزراعة فيها من البارون المنتهية خدمتهم.

مازال شاهد يثرثر دون أن أمنحه أي اهتمام يُذكر فقد غرقتُ في دوامات الحزن والقهر وسط بحور الذل التي قذفني فيها النبيل فهد صباح اليوم بمنتهى القسوة.

لم أدرك كم مضى من الوقت في هذا الطريق حتى وصلنا إلى مجموعة ضخمة من البيوت الطينية المتقاربة المختلفة الأشكال يفصل بينهم مدقات وشوارع صغيرة للغاية على مدى البصر لا تُرى نهايتها.. كانت خاوية على عروشها وكأن سكانها قد ماتوا عن بكرة أبيهم.. لا تسمع فيها صوتًا غير نعيق الغربان المحلّقة في سمائها.. مررنا بين البيوت بالكاد وعيون الذئب تراقبنا في كل خطوة.. تعجبت من جهلي بتلك القرية على الرغم أنني كنت زائرًا دائمًا لقرى الغرباء فيما سبق.. ربما لأنني لم أشاهدها كما أراها الآن.. فالواقف على قدمين شامخًا غير الزاحف.. كلاهما يري ولكن شتان بين رؤيتهما لنفس المكان.. والراكب فوق جواد صهيله يصم الآذان غير القطيع الزاحف في قطار رائحته تزكم الأنوف.

وقف شاهد أمام بيت من الطين أمامه شتل من الزروع والورود الزاهية اللون.. وفتح الباب ناظرًا تجاهي:

--الآن يمكنك الوقوف.

نهضت واقفًا بيدين جريحتين يملؤها الدماء من قسوة الطريق.. لاحظهما شاهد بعدما دخل إلى ساحة البيت الصغيرة:

--تعال يا بني.. بيت أمك.. لحظة أجلب لك دوائًا يطبب جروحك.. تعال.

وطأت قدماي ذلك البيت البسيط.. رائحة الورود تملأ المكان.. ربما تكون أول رائحة طيبة أشتمها بعد طول عناء اليوم.. رمقت المكان حولي.. أرض طينية غير مستوية وحوائط مرسوم عليها ورود بديعة المنظر في كل مكان ومصابيح يملؤها الجاز معلقة في الزوايا..

تمثال من الطين يتوسط ساحة البيت.. اقتربت منه.. أنه لسيدة عارية النهدين ممشوقة القوام.. تبدو ملامحها واضحة وكأنها نُحتت بيد فنان نادر الوجود.

ظهر شاهد ممسكًا بأربطة من القماش وسائلًا في زجاجة بلاستيكية وضع منه على جروحي وضمدها بتلك الأربطة مبتسمًا:

--ستصير بخير لا تقلق.

--لمن هذا التمثال؟

ابتسم لي قبل أن ينطق بما توقعت:

--أنه لأمك.

نظرت ناحيته باشتياق لم أشعر به من قبل وسألته دون أن ألتفت له:

--أريدك أن تحكي لي كل شيء عن أمي وأبي.

غابت لؤلؤة عن الوعي مستلقية على فراش والدها وفي جوارها ضرغام وفهد والقلق يفترسهما بعدما أخبرهما الطبيب بخلو جسدها من أي مشاكل عضوية قد تكون سببت تلك الإغماءة وطالبهما بالهدوء حتى تفيق عما قريب.

--لقد مر أكثر من خمس ساعات وهي على نفس الحال.

قالها فهد متوترًا ناظرًا للؤلؤة.. رمقه ضرغام دون أن يجيبه بشيء.. لم ينطق ببنت شفة منذ سقوطها مغشيًا عليها.. امتلأت نظراته بتساؤلات لا حصر لها.. لاحظها فهد فصاح في وجهه بعصبية شديدة:

--كف عن نظرات الاتهام القاسية تلك يا ضرغام.

--أنا لم أقل شيئًا يا فهد.

--ولكنك تجلدني بعينيك.

--أنت تفهمني إذًا دون أن أتحدث.. ألهذه الدرجة نحن قريبان؟

--نحن أصدقاء عمر.

--كنت أظن ذلك حتى اليوم.

--تلك الحقيقة الّتي أخفيتها عذبتني لسنوات وسنوات.

أشاح فهد بوجهه بعيدًا هربًا من عينيّ ضرغام.

--ظننت أننا نعرف كل شيء عن بعضنا البعض.. وكأننا روحان لهما نفس العقل والذكريات.

--هكذا كنا وما زلنا.

--غير صحيح.. أن أكتشف ذلك السر الكبير في حياتك بعد كل هذه السنين

يجعلني أعيد نظرتي في صداقتنا مُجددًا.

قالها ضرغام في عصبية.

--كف عن تلك الترهات.. ودعنا منها حتى تفيق لؤلؤة.

--ستفيق.. ولكن عليك أن تستعد لما بعد إفاقتها.

--أي كان.. ما فعلته هو الصواب.

أمسكه ضرغام من كتفه بقوة وحدة:

--ثُلقي بمن ربيته سنينًا في جحيم الغرباء!

ألم تجد طريقة أخرى تعاقبه بها وتُحقق للذئب رغبته غير ذبحه بهذه الطريقة؟

--هو من أفسد كل ما رتبت له معك.

--ياقوت ورث عنك رغبتك في الانتقام من الذئب.

--صه.. قلت لك ألا تجاهر بما أخبرتك به سرًا.

--لا تجزع أيها النبيل.. فعيون الذئب بعيدة، ورجالك من البارون لن يبيعوك

مُطلقًا لأنك تُغدق عليهم من الذهب ما يكفيهم ويزيد.. لدرجة أنك توزع حصتك من الذهب عليهم لتضمن ولاءهم.

--لا أريد شيئًا يبعدني عن هدفي الذي أعيش من أجله.

--قل لي.. ماذا لو وافتك المنية فجأة؟ واجتمع مجلس الورثة واختار وريثًا يدين للذئب بكل شيء.. ونُسفت أهدافك وصارت هباءًا منثورًا؟

--سأختار من يصلح بنفسي.

--وياقوت؟

--ياقوت غبي.. جاهر بعدائه للذئب ووضع نفسه تحت أعينه.

--أنت سقيته ذلك العداء.

--كلا.. لم أُصرح له به على الإطلاق.. أنت فقط من علمته معنى الحرية وحكيت له قصصًا خيالية عن أرض يحكمها العدل والمساواة.

--ألم يكن ذلك بالتنسيق معك؟

--نعم.. ولكنني لم أتخيل أنه يجاهر به.. كنت أريده وريثًا خبيثًا يستل منصب النبيل الأكبر من بين أنياب الذئب ويستولي على كل مناجم الذهب في المملكة ويقتل بعدها الذئب ويضع قوانينه.

--ألم يكفك نصف كمية ذهب ذئبستان لتحاربهم علانية؟

--أنت من يقول ذلك وأنت تعايش لعقود متتالية التكافؤ الباروني

بيني وبين مارق.

--اللعنة عليكم.. اللعنة على ذئبستان بكل من يحكمها.

اقترب فهد متودّدًا من ضرغام:

--لن يطول عذاب ياقوت.. أعدك بذلك.. أشعر بدنو الانتصار على مارق وحينها..

سأُعلن بنفسي موت الذئب ويسود العدل بين الجميع غرباء وورثة.

--أفلح إن صدق.

***

كأن أحدهم قد أشعل النيران في قلبي وتأججت حتى احترق عقلي.. لم أصدق ما سمعته أذنيّ من حقيقة تستتر خلف قصة نسبي.. ماحدث لأبي فارس المنتحر هربًا من شذوذ حاكم معسكر الفضيلة شديد وأمي المعذبة العمياء ،التي شقت بطنها لتمنحني حياة في أحضان قاتليها.. برقت عيناي مرتعشًا من هول ما عرفت.. تتكرر المشاهد الّتي قصها أمامي وكأنني أعيشها رؤى العين وأسمعها للتو.

--أحكام: أوامر السيد شديد حاكم معسكر الفضيلة المقاطعة العاشرة..

أولًا:على المذنب فارس بن وعد أن يأكل عينيّ أمه أمام جميع الغرباء والبارون.

ثانيًا: يمارس المذنب فارس الفضيلة مع والدته علانية حتى ينتهي

وإن خالف ذلك سيعيد الكرة عدة مرات حتى يُنفذ الحكم كما ينبغي.

ثالثًا: تكرر الممارسة يوميًا حتى تحمل المُذنبة وعد.. ويُحبس الاثنان طوال فترة الحمل في حراسة مشددة حتى يُبتّ في أمرهما.. انتهى.

أكان أبي يمارس الفضيلة مع ذلك البغيض شديد رغمًا عنه مُعذبًا؟ أنا ابن أخي؟

ربت شاهد على وجهي مهدئًا دون جدوى:

--لقد نفذتُ وصيتها بنجاتك.. كانت آخر كلماتها: اضمن له النجاة يا شاهد.

لم يكن أمامي غير عرين الورثة ورداءهم يُنجيك من مصير مجهول نهايته العذاب..

وضعتك في عربة النبيل خلسة أثناء الليل واعتقدت أنك في مأمن من الذئب طوال العمر.

--الموت للذئاب.

قلتها بصوت جهوري وكررتها بهستيريا صارخًا بكل ما أوتيت من ثورة.. ليبدأ فصل جديد في حياتي لم أتخيله يومًا.. فصل أجبرني قدري على كتابته ليسطر قصة لم تكن في الحسبان.. قصة ياقوت المطرود من جنة الورثة إلى جحيم الغرباء.. ترى.. كيف ستنتهي قصتي؟

طريق الدم

«خيرُ الغرباء الفاضلين وخيرُ الورثة النبلاء أما البارون فلا خير لهم غير الذهب والدنانير»

عجائب الأمصار في ذئبستان

المؤلف:مجهول

***

طلعت الشمس لتشق ظلام الليل مُستترة خلف سحبٍ متراكمة تُنذر بيومٍ ممطرٍ يُغرق تلك الديار الطينية عن آخرها.. ومع ذلك فقد اعتادوا النوم وسط المياه متدثرين بفراء الدببة المنتشر داخل بيوتهم والمسموح به دون الخروج به.. فلا عمل للغرباء بدون قطعة القماش السوداء الملفوفة حول خصورهم صيفًا شتاءًا فقط.

قضيتُ بينهم ثلاثة ليالٍ دون نوم.. لم أخرج من بيت أمي ولو لمرة، بقيت في جوار تمثالها الّذي نحته العم شاهد بيديه على مدار عام كامل.. هوايته القديمة كما أخبرني قبل نقله إلى معسكر الفضيلة.. لطالما امتلأ بيته الّذي هجره منذ عشرين عامًا بالتماثيل الّتي صنعها بنفسه لأُناس مروا في حياته وطُبعت ملامحهم في ذاكرته.

سؤال واحد يتردد على عقلي دون إجابة:

--هل ينتقم الذئب مني؟

لم أعد متأكدًا من أي شيء الآن.. هل الذئب وهم ؟ أم حقيقة؟

اقترب عقلي من الهذيان ولكني أمقته في كل حال.

لم أقو على الزحف مُجددًا ولو في نطاق قرية وعد.. مكثت أتابعهم من شباكٍ صغيرٍ يكشف بعض القرية.. فقد كان البيت واقعًا في منتصف القرية مواجهًا لباحةٍ واسعة بين مجموعة من البيوت يتجمع فيها الغرباء ليلًا بعد انتهاء أشغالهم يتحدثون ويتسامرون كالقرود لا تُفرق بينهم عن بعد بل وأحيانًا ينضم لهم بعض الحيوانات الشريدة.. سمعتهم يتغنون بأغنية واحدة لا يغيرونها وفهمت أنها إجبارية على سكان القرى.. ولو مرت ليلة من دون غنائها سيعاقبهم الذئب المنتشرة عيونه في كل مكان.. لأول مرة ألاحظ أن تلك العيون ترصد الأصوات أيضًا.

تحصي أنفاسهم وتحفظ ما يقولون ولو همسًا.. لا منجى منها غير بيوتهم ومع ذلك وجب عليهم البقاء خارجها حتى منتصف الليل تحت أعين الذئب.. ثم يسمح لهم بالخلود إلى النوم حتى مطلع الشمس.. تبًا لتلك الأغنية.. أعرفها جيدًا فهي تتردد في إذاعة ذئبستان على الدوام:

--يا نور الكون يا عطاء اعف عنا يا سباق.

ذئبٌ يملأ عطفه كل حدود بلادي وفاق..

ذئبٌ يمنح ذئبٌ يغفر.. ذئبٌ يملك الأشياء.

يا نور الكون يا عطاء اعف عنا يا سباق.

نحن عبيدك فاحمنا من الذنوب والعصيان

وابعد عنا دب يوسوس لنا ليل نهار.

يا نور الكون يا عطاء اعف عنا يا سباق.

الذئب والدب قصة سخيفة لم يعد لها مكانًا في عقلي.. قصها علينا معلمي ونحن صغار..

مازلت أتذكرها كاملة.. يُحكى أنه في قديم الزمان عثر الذئب على الكون صدفة في رحلة عبر الأزمان فرفع كرسي عرشه فوق الشمس ووجد ملايين الأرواح الهائمة في الأرض فقبضها وقَسَمَ أزمنتها وخلق أجسادًا تسكن إليها تلك الأرواح في مواعيد يعرفها.. واصطفى منهم ورثته وكتب كل شيء في كتاب محفوظ.. وأدار الكون أجيالًا وأجيالًا حتى تمكن الدب من سرقة الكتاب و أضاعه ومن وقتها والصراع بينهما لا ينتهي.. ومع مرور الزمن نسى الناس الذئب وكفروا به.. نكروه في كتبهم وعلومهم إلا القليل منهم فغضب الذئب حتى عمّ الخراب أرجاء الكون فرق قلبه وعاد يبحث عن كتابه من جديد حتى عثر عليه..

و بزغت شمس ذئبستان عالية.. مملكة تحكمها شرائعه الجديدة الّتي وضعها عقابًا لمن أنكروه وجزاءًا حسنًا للأقلية.. وطُرد الدب من رحمة الذئب هو وأتباعه حتى بعد الموت.

ضحكتُ متسائلًا.. كيف تصدق عقول الناس هذه القصة الساذجة وتخضع لنتائجها؟

كنت كافرًا بكل ما هو ذئبي وألعنه سرًا وعلانيةً دون تردد وإن كان موجودًا.

قدم لي العم شاهد في اليوم التالي لظهوري في القرية عشرة

شباب متفاوتي الأعمار أكبرهم اقترب من عامه الثلاثين.. جلسوا عند شباكي مبتسمين:

--هؤلاء إخوتك يا ياقوت.

--أخوتي!

--نعم.. الأم واحدة والآباء مجهولين ما عدا أنت فتعرف أباك

.. لم يحالفهم الحظ ليكونوا من الفاضلين.. جميعهم مجبوبين.

نظرت إليهم بمشاعر فاترة حاولت تجاوزها مرحبًا بهم:

--ما هي أسمائكم؟

بدأوا في تعريف أنفسهم.. للحق لم أستمع إلى أي من تلك الأسماء وكأنني لا أرغب في لقائهم بعد الآن.. مشاعر متضاربة تجتاح نفسي أقواها على الإطلاق تلك النظرة المتكبرة الّتي لم تنكسر بعد كل ما عايشته الأيام الماضية.. تعجبت ساخرًا مُحدثاً نفسي:

--أفق أيها الغريب فلم تعد وريثًا بعد الآن.

واجهت نفسي مرارًا وتكرارًا بذلك التكبر الّذي طالما حاربته بمحاولاتي للتقرب إلى الغرباء بل أنكرت وجوده بمساعدتي لهم ووقوفي في وجه الورثة لأجلهم ولكن في الحقيقة مازالت نفسي حاملة لغرور الورثة وإن طُردت منهم.. لعل الأيام كفيلة بترويضي.. ابتسمت لهم مُتصنعًا:

--لعل كل شيء يجري على ما يرام.

نظروا إلى بعضهم البعض متعجبين ساخرين ثم انفجروا بالضحك

الهستيري وانصرفوا زاحفين كلّ في اتجاه بيته.

ابتعدوا وجلست بمفردي أنظر للسماء متأملًا.. جالسني العم شاهد بعدما حضر لنا كوبين من القهوة.. ارتشفت منها والسكون يجتاح القرية حولنا فقد انتصف الليل منذ ساعة تقريبًا.. همست مُتنهدًا:

--لا بد أن يكون لهذا الكون العظيم خالق.. من يرفع تلك السماء هكذا؟

من يأمر تلك السحب فتخرج ماءها وتمنعه؟

من يأمر الرياح بالسكون فجأة؟

من يُجري مياه النهر دون توقف ومن أين تنبع؟

كيف لا تجف على الرغم من ملايين البشر الّذين يشربون منها يوميًا؟

أسئلة عديدة تدور في عقلي دون إجابة.

--ربما يكون الذئب.

ضحكت عاليًا وسط تعجب العم شاهد.. سألني:

--علام تضحك يا بني؟

--الذئب.. ذلك الحيوان الضئيل.. أخلق هذا الكون ورتبه؟

--نعم.. ورثنا تلك المعتقدات منذ أكثر من مئتي عام.

--وقبل ذلك.. أين كان الذئب؟

--غضبانًا مبتعدًا عن خلقه الّذين كفروا به.. ألم تتعلم قصة الذئب

والدب؟

--أتصدق هذه السذاجة؟

--ومن أنا حتى أصدق أو أنفي.. أنا مجرد فرد وسط ملايين البشر.. أيغير الناس معتقداتهم بسبب فرد؟

--تلك هي المشكلة.

--كيف؟

--إنهم يغيرونها بسبب فرد.

--لا أفهم ما ترمي إليه.

--هل كنت تحب أمي وعد؟

باغته بالسؤال.. تغيرت ملامحه وربت على كتفي ونهض نحو فراشه الأرضي واستلقى فوقه وأغلق عينيه دون أن يجيبني.. للحق لم أنتظر منه أي إجابة.. فرجل يترك البارون ليعيش هنا في قرية للغرباء في بيت سيدة عكف على نحت تمثالها لتتمثل أمام عينيه ليل نهار لا بد أنه يعشقها ويعيش على ذكراها.

يخرج العم شاهد يوميًا في الصباح الباكر ولا يعود إلا بعد غروب الشمس ومعه بعض الفاكهة والخضروات الطازجة لنأكلها سويًا.. حاول إقناعي بكل الطرق على التأقلم على الوضع الجديد دون مشاغبة أو تهور فلن يُغفر ليّ أي أخطاء بعد الآن والعصيان سيقودني إلى بطون الغرباء مأكولًا والحرمان من المستودع بكل تأكيد.

جهز ليّ العم شاهد وجبة العشاء اليومي.. رغيف من الخبز الطازج وقطعة من الجبن مع بعض الجرجير..

تناولنا عشاءنا في صمت وعيناه تمتليء بحنانٍ لم ألقه من قبل.. نهض فجأة واختفى في غرفة داخلية ثم خرج ومعه عود خشبي طويل ناولني إياه.. أنه (ناي) تفحصته ثم نظرت لشاهد متسائلًا:

--ماهذا؟

--ناي.

--أعرف أنه ناي.. أتهاديني به؟

--إنه حقك.. هذا الناي لوالدك فارس.. ربما كان صديقه الوحيد في دنيانا.

--أكان عازفًا للناي؟

اغرورقت عيناي بالدموع.. ترجلتُ إلى جانب من البيت ونفختُ فيه لحنًا حزينًا.. تعجب العم شاهد:

--أتجيد النفخ في الناي؟

--نعم.. الناي والبيانو وغيرهما.

--لم تخل غرفة والدك بمعسكر الفضيلة من العزف يومًا.

وقعت عيناي على بعض الأوراق المختومة بختم الذئب وموقعة من النبيل فهد في جانب من البيت مبعثرةً.. سألت العم شاهد عنها فأجابني:

--هذه تصاريح التهام للغير.

--التهام!

--عزيزي ياقوت.. هنا يُسمح للغرباء بتناول لحوم بعضهم البعض..

شرط المرض أو العجز لمدة سبعة أيام تمنع المأكول عن العمل..

فيؤكل بوثيقة موقعة من النبيل ومختومة بالختم الرسمي للبلاد.. سواء حرقًا أو ذبحًا.. اعتقدتُ أنك تعرف ذلك.

--ولماذا تحتفظ بكل هذه الوثائق؟

--لأنني هنا كبير هذه القرية.. لاحظ أنني الوحيد المنتمي للبارون هنا حتى بعد خروجي من الخدمة فمازال انتمائي لهم يجعلني موضع ثقة مهما كان.

--وأين يتم الذبح أو الحرق؟

--بمعرفة أهالي كل قرية إن لم يكن ضمن الحفلات الرسمية.

سألته ساخرًا:

--وهل تأكل معهم؟

--أنا نباتي يا ولدي.

--يبدو إنهم يخططون لذبحي إذًا.

وكأنه فهم ما أقصده فابتسم:

--لن يطلب منك أحد العمل.. علي المرء أن يبحث عن عمل يناسبه.. هم يتركون للغرباء حرية اختيار الأشغال فقط ألا تتعدى سبعة أيام

عاطلًا.. لكن لا تُشغل بالك في البحث فأنت لك طريق مختلف.

--أي طريق؟

--سيرسلون إليك خلال يومين على الأكثر.. لا تفكر الآن.. حاول أن تستريح.

أسترح!أيمكن لقلب باغتته الطعنات من كل اتجاه أن يستريح؟ حتى الموت بات عذابًا لن يُحتمل.. فمن المؤكد أن المستودع قد حُرم على روحي دخوله فالذئب لن يسمح لمُعاقب مثلي أن يتمتع بنظامه الكوني.. سأعيشُ مُعذبًا في جحيم الغرباء وسأموت مُشردة روحي في أجساد الفئران القذرة في المجاري والقاذورات.

نظرتُ إلى السماء مُشتاقًا لحبيبتي لؤلؤة.. أمسكت الناي وبدأت في النفخ فيه بشجن منقطع النظير مقطوعتنا (كونسرتار).. رأيت وجهها مكان القمر وكأنها تبكي.. هطلت الأمطار طوال الليل واختفى بعدها وجهها خلف السحب.. أمسكت بالقلم وكتبت رسالة لها.. وددت لو تقرأها حقًا.. تنهدتُ وأنا أخط بالقلم:

--أحبُك يا لؤلؤة.. سأظل أحبُك حتى يصبح جسدي رمادًا منثورًا..

وتهيم روحي في أجساد الفئران.. سأحبُك حتى تأكلني بطون البارون.. وأصير

جزءًا منهم حتى الموت.. حينها يمكننا اللقاء في مستودع الذئب.. ترى؟

هل ستتعرفين عليّ؟ عندما تمتزج بقايا روحي مع أحد البارون..

أحبُكِ رغم الفراق.. رغم الظلم والطغيان.. أحبُكِ رغم الذئب.. رغم الكون.

ولكن أخبريني عنكِ.. هل ستمضين بدوني في عالمٍ بلا عشق؟ أتكملين حياتك

في قصور الذكريات وتتركيني أتجرع لوعة بُعدك؟ هيا أخبريني.. لماذا تصرين على الصمت؟

ماذا قالوا لكِ بعد إفاقتك؟

حسنًا.. أقدرعجزك عن إجابتي.. سأجيب عوضًا عنكِ.. قالوا إن الحبُ من غير الورثة لن يقو على الصمود.. سيبقى ذكرى بعيدة تواريها الأيام وتغيب في طي النسيان.. الحبُ صار بيننا سرابًا خارجًا عن قانون الذئب.. فلتحاولي نسيان ذلك الحبُ قدر المستطاع..

فلتمحي غرامًا من سطور قصتنا ونعود غريبين كأننا لم نتقابل يومًا ما..

وإن قتلني الشوق إليكِ سأمكث في طرقات الحبّ بسكين من جفائهم وكرههم لأذبح كل الاشتياق وأعود وحيدًا دون عشق واحتياج.. هكذا يريدوننا؟

ومع ذلك لن أنساكِ.. لن أستسلم إلى طوفان الذئب و سأقاوم باحثًا عن طوق النجاة.

سأُمزق قوانينهم وأذب سكيني في بطون شرائعهم.. سأنالك يومًا ما رغم أنوفهم.. أحبُك يا لؤلؤة وسأظل أحبُك حتى اللقاء.

هلّ الصبح عبر الشباك بأضواء خافتة تتسلل إلى وجهي.. بدأ الغرباء في الخروج لأشغالهم كأسراب النمل تزحف في عشوائية.. هطلت الأمطار بغزارة دون توقف.. وقف العم شاهد عند الباب مودعًا إلى عمله والقلق يراوده.

فقد تسلمنا بالأمس خطابًا رسميًا بضرورة تسليم نفسي في معسكر الفضيلة لاعتباري من الفاضلين على الرغم أنني لم أخضع إلى تجربة الإخصاء صغيرًا ولكنني أمتلك بهروزًا ذكريًا يجعلني على قائمة الفاضلين المُحتملين.. وهذا ما ستحدده لجنة القبول بالمعسكر.

توقعت ذلك منذ اللحظة الأولى.. ربت شاهد على كتفي حينئذ:

--أعلم يا بني إن ما تمر به فوق احتمال البشر..

ولكن لنفكر قليلًا في الحكمة وراء مآسيك.. أن تأتي من أعلى قمم الورثة

لتلقى في أسفل سافلين الغرباء.. ربما يكمن الخير في الشرور.. هون عليك.

ترجلت قليلًا في البيت مفكرًا فيما وصلت إليه.. أمسكت ذلك الخطاب الرسمي ووضعته بين قماشتي السفلية وبطني وأحكمت ربطها.. وخرجت.. مشيت مُنتصب القوام فقد أخبرني شاهد أن بهذا الخطاب يمكنني السير منتصبًا حتى أستخرج وثيقة تُفيد بأنني أحد الفاضلين الجدد.. أو ترفضني لجنة القبول وأعود إلى صفوف المجبوبين الزاحفين.

اجتزت الأراضي الزراعية وانتظرت القطار وسط حشود الغرباء الزاحفة مع بعض المنتصبين مثلي.. ركبت والشر يتطاير من عينيّ.. سألني أحد الحراس عن تصريحي فأخرجت له الخطاب فألقاه في وجهي بعنجهية وانصرف.. مر بعض الوقت وفكرة الانتقام تسيطر على عقلي.. اقترب مني أحد شباب الفاضلين.. عرفته لانتصاب قامته مثلي.. ابتسم متسائلًا:

--أأنت ياقوت؟

--نعم.

--أعرفك جيدًا.. فقد رأيتك كثيرًا تساعدنا فيما قبل.. هل عاقبك الذئب بسبب ذلك؟

لم أجبه.. فاستمر في حديثه دون توقف:

--أتخاف من عيون الذئب؟ المكان صاخب فلن يميزوا أصواتنا.

--ماذا تريد؟

--لا شيء.. فقد أردت أن أخبرك أن الظلم لا يُحارب بالمنح للغرباء والأطعمة وبعض الهتافات من حين لآخر.

--لا أفهم.

--ستفهم.. ولكن بعد أن تذوق مرارته بين صفوفنا.. مرحبًا بك في خندق المظلومين.

اللعنة على من يستحق اللعنة.. اللعنة على من يستحق اللعنة.

هلل بها حتى باغته أحد حراس البارون بسوطه وانهال به فوق

جسده..

استقر القطار في محطته الأخيرة.. تحركت وهذا الحارس مازال يضربه بينما هو يتابعني بابتسامة لم أنسها.. ابتسامة أمل.. لافتة كبيرة تملأ تلك المحطة «معسكر الفضيلة»

البارون الأحمر ينتشرون بانتظام على طول الطريق وكأنها ثكنة بارونية شديدة التأمين..

أربعة كيلومترات مشيتها وكل كيلو متر نقطة تفتيش.. حتى وصلت إلى البوابة الرئيسية للمعسكر الشاسع الاتساع.. انفتح الباب بعدما تزاحم الكثيرون مثلي المقبلين على خدمتهم.

أصدر الباب صريرًا قويًا مُعلنا بدء أول خطواتي نحو الجحيم.

استوقفني أحد البارون وسألني مثلهم:

--الاسم؟

--ياقوت.

--وأمك؟

--وعد.

--ياقوت بن وعد.

جهر بها عاليًا تجاه شخص آخر من البارون كان جالسًا على مقربة من الباب على طاولة وأمامه يفترش أوراقًا تكتظ بالأسماء.. أشار له بالإيجاب بعدما عثر على اسمي.. فُتشت لآخر مرة قبل أن يُسمح لي بالدخول.

--باحة المستجدين.

قالها الرجل مشاورًا نحو طريق على اليسار.. فاتجهث مع آلاف من الصبية الذين لم يبلغوا عامهم الرابع عشر على أحسن تقدير.

لافتة كبيرة على بوابة داخلية لباحة كبيرة تتوسط بعض الأبنية بالمعسكر مكتوب عليها

«باحة المستجدين»

استقبلنا عدد من رجال البارون أجبرونا على الدخول زاحفين على أربع وصاح أحدهم عاليًا:

--ازحفوا.. ازحفوا أيها الخنازير.

صاح غيره:

--أين أصواتكم؟

فأصدر جميع الصبية أصواتًا لخنخنة الخنازير من أنوفهم.. ياللذل والعار! لم أقو على تقليدهم.. امتنعث رافضًا.. تتابعت سياط البارون على ظهورنا العارية.. لم يخف وطأتها غير تلك الأمطار المستمرة منذ الصباح.. لم أفهم كم الشر والحقد النابعين من أعين الحراس وكأننا أعدائهم.. خرج صوت بروجي عاليًا اصطف معه البارون صفًا واحدًا مرتبكين.

ظهر رجل في الستين من عمره يهبط درجات سلم إحدى البنايات نحونا.. رفعت رأسي تجاهه مبرق العينين.. إنه هو كما وصفه لي العم شاهد.. اللعين (شديد) حاكم المعسكر.. تهتز بطنه البارزة من

كل الجوانب مُترجلًا بين الصبية.. رآني.. كان من السهل التعرف عليّ فقد كنت ظاهرًا بوضوح بين أولئك الصبية الّذين يصغرون عني بأكثر من ستة أعوام.. اقترب مني وعينيه تلتهم كل شبر في جسدي.. انتظرتُ ذلك اللقاء لأيام كانت كالدهر بأكمله.. مد يده متناولًا يدي وأوقفني مواجهًا له مُنتصب القامة.. سال لعابه القذر متحسسًا يدي بيديه الخشنة والمتشققة متسائلًا:

--هل أنت ياقوت بن فارس؟

أبعدتُ يده عني بلطف وابتسمت له مُصطنعًا الهدوء والتودد:

--من العجيب أن تناديني باسم والدي وكل الغرباء هنا يتبعون أمهاتهم.

--لأنني أعرفه حق المعرفة.. هؤلاء مجهولو الأب.. لا تقارن نفسك بهم.

--أشكرك سيدي شديد.

التفتَ لشفتيّ بشهوةٍ حاول أن يُخفيها ورجع للوراء.. صاح في رجاله:

--علام تنتظرون؟ هيا.. ابدأوا اجراءاتكم.

جلس شديد على كرسي جهزه له أحد بارونه في مكانٍ عال بالبناية المواجهة القريبة لمكان وقوفي.. ووقفت الصبية من جديد بأوامر منهم.

--اخلعوا ثيابكم.

صاح بها أحد البارون فمضينا نخلع تلك الأقمشة المحيطة لخصرنا وصرنا عرايا تحت أمطار غزيرة.. اشتممث رائحة احتراق تتناقلها الرياح واستمعت لأصوات بعيدة لبكاء أطفال رُضع ممزوجة مع خنخنة الخنازير.. لم يكن من الصعب تحديد أن اليوم ضمن أيام الإخصاء الذي بدأ منذ السابعة صباحًا أي قبل حضورنا بثلاث ساعات.. تلك الرائحة نتيجة غمس جروح المجبوبين في زيت مغلي ليتوقف نزيفهم الخارجي ويبقون بجروح داخلية لن تلتئم مهما مرت الأيام.

وقفنا في صفوف متتالية وحقنّا بمادة يسمونها دواء الفحولة.. وفي لحظات سرى مفعوله بقوة علينا جميعًا.. رأيت اللهفة في أعين شديد وهو يتفحصني عن بعد.. يحفظ كل تفاصيلي بدقة.. بدأت موسيقى بارونية كالمار شات،خرجت من مكبرات الصوت المنتشرة في جوار عيون الذئب في الباحة.. وقف معها شديد في مكانه وشرع في حديث جماعي وكأنه يُلقي خطبة في جنود موشكة على محاربة الأعداء:

--أيها الصبية.. أنتم هنا لخدمة الوطن.. وأريدكم بكل صدق أن تصبحوا خير الفاضلين الجدد..

ذئبستان تفتخر بكم وتهنئ الذئب بوجودكم.. فهنيئًا له ولكم..

سيمر عليكم الآن لجان القبول.. ومن يجتاز منكم الاختبار.. سيتسلم تصريحًا يفيد بأنه فاضل مقبول.. ويبدأ في ممارسة خدمته من الغد ، يوميًا حتى غروب الشمس.. ستُعلق الجداول اليومية بأسماء نساء الغرباء المطلوب ممارسة الفضيلة معهن وأرقام غرفهم..

وعليكم اتقان الفضيلة كما ينبغي .. الوطن يحتم علينا ذلك.. سيكون معكم في البداية مدربين خبراء تلقون استفساراتكم ويساعدونكم حتى تتمكنون من أداء مهمتكم بنجاح..

وليعلم كل منكم أن فترة خدمتكم هنا في معسكر الفضيلة تتراوح بين الخمسة عشر والعشرين عامًا تبعًا لتقارير الخبراء المراقبين لكم طوال تلك الفترة..

أما من يفشل في اجتياز اختبار القبول فسيقوده المختصين إلى باحة الإخصاء لينضم لإخوانه المجبوبين.. ودعوني أخبركم جميعًا.. الوطن يحتاجكم سواء فاضلين أو مجبوبين.. فكونوا نعم العبيد المخلصين.. حظًا موفقًا.

أشار بيده فامتلأت الباحة برجال من البارون ممسكين بأوراق يدونون عليها ملاحظاتهم متصفحي لنا.. ثم انفتح باب جانبي ضخم ودخلت منه آلاف من نساء الغرباء العاريات.. وصارت الموسيقى أكثر إيقاعًا مع صوت أجش يتغنى عاليًا بحماس منقطع النظير:

--وطني هو ذئبي.. أضحى له بحياتي.. أقدم له كرامتي.. وإذا طلب رجولتي.. أنا له عبد.

ذئبي هو وطني ووطني هو ذئبي.. كلنا عبيد الذئب.

اتجهت السيدات العاريات نحونا، وبدأن تمارسن معنا الفضيلة علانية.. شاركتني سيدة في العقد الثالث من العمر.. و انخرطت معي في وصلة فضيلة عنيفة قصدتها وعيناي لا تفارق ذلك القذر المدعو شديد.. وكأنني أدعوه لممارسة الفضيلة معي هو الآخر.

الخبراء يدونون ملاحظاتهم دون توقف.. ترجل شديد ناحيتي واقترب مني ناظرًا في عينيّ..

ابتسم بغنجٍ ملوث.. كدتُ أن أفرغ ما في بطني ولكنني تظاهرتُ بالعكس .. همست:

--ليس هنا.

--أين إذًا؟

قالها بتلقائية غير آبه للبارون الواقفين بالقرب منا.. فأجبته بصوت خافت سمعه بالكاد:

--في الغابة بعد غروب الشمس.

تعجب كثيرًا من طلبي ولكن شهوته غلبته فأشار بالقبول قبل حتى أن يفكر.. وهمست له ثانية:

--سأخبرك بالمكان.

حينها انتهيت من تلك السيدة ونهضت مبتعدة.. وأشر على استمارة قبولي مع أغلب الصبية في المعسكر.. ثم انتظرنا قليلًا بعدما انصرفت النساء وأُعلنت النتائج ارتدينا ثيابنا مجددًا.. وتلك الأغنية لا تتوقف:

-- وطني هو ذئبي.. أضحى له بحياتي.. اقدم له كرامتي.. وإذا طلب رجولتي.. أنا له عبد.

ذئبي هو وطني ووطني هو ذئبي.. كلنا عبيد الذئب.

تسلمنا تصاريحًا مختومة بختم الذئب تُفيد بأننا ضمن الفاضلين

الجدد المقبولين في المعسكر مع تاريخ بدء ممارسة الفضيلة مدونًا.. ذلك التصريح الأعلى شرفًا في عالم الغرباء.. أولئك الذين يدعون الذئب ليلًا نهارًا لكي يمنح أطفالهم إياه.

***

«أعزائي الذئبستانيون .. اقترب الاحتفال السنوي للعيد الوطني للذئب..

فارقصوا وافرحوا واستعدوا ليوم جديد تثبتون فيه للذئب ولائكم.. هللوا أينما كنتم..

فليحيا الذئب العظيم.. فليحيا الذئب العظيم»

كررها ورائه كل السامعين لإذاعة ذئبستان في كل أرجائها.. موسيقى حماسية تتردد على مسامع الجميع.. وتلك الطرق الرئيسية المُمهدة المتوقع مرور النبلاء منها أثناء الاحتفال يُعاد طلاء بيوتها باللون الأسود مع تغيير الأعلام فوقها بأعلام جديدة تُرفرف بشعار الذئب الأحمر.. لم تكن الحياة السياسية في البلاد حكرًا على النبيل فقط بل كان نائبه الأول يترأس مجلسًا من الأمراء يتم اختيارهم بعناية من الورثة المقربين.. ومهمتهم رعاية شئون الورثة والإشراف على تنفيذ شرائع الذئب وإدارة الأمور الحياتية اليومية بكل تفاصيلها.. وأولئك الأمراء يختارون من ينوب عنهم من البارون وأولئك النواب يختارون الأقل منصبًا فالأقل حتى أصغر مشرف على الغرباء.. وجميع الأمراء يسكنون القصور في زمام واحد في أطراف المدن وعلى مقربة من قصر النبيل ذاته.

تأنقت البلاد استعدادًا للعيد الوطني السابع والعشرين بعد المئتين للذئب.. تراقص الغرباء في الشوارع يقفزون كالقرود إظهارًا للفرحة الكاذبة.. فرقٌ طوافة كالمعتاد فوق عربات يجرها العبيد تعزف موسيقى بارونية تشعل الهمم طوال اليوم.. أعداد ضخمة من البارون الأحمر يستعرضون قوتهم في شوارع المدن بالأخص.. يتبارزون بالسيوف و يمتطون الخيول رافعي سهامهم المربوط فيها أعلام ذئبستان الحمراء.

--فليحيا الذئب العظيم.

هتاف يتردد قبل الحفل بثلاثة أيام على الألسنة كأن لغتهم لا تحتوي غير هذه الكلمات الثلاث.

خرج حاكم معسكر الفضيلة السيد شديد على باب حانة ليالي ذئبستان مخمورًا مترنحًا بعد أن تجرع ما يقرب من خمس زجاجات ممتلئة بالخمر المُعتّق.

أخذ يُدندن أغنية يتغنى بها المخمورون في تلك الحانة أحيانًا.

--ذئبي وسيدي.. من يقهر الغرباء ويُدخلهم من أبواب النسيان..

ذئبي وسيدي.. من يُلبس الورثة رداء الحكم والسلطان...

ذئبي وسيدي.. من استل كتابه من الدب وقتل كل الجرذان..

ذئبي وسيدي.. من يملك الكون فلننحن له صاغرين.

كررها كثيرًا محاولًا الوصول إلى جواده بالكاد فقد أثقل في شرب الخمر اليوم ربما احتفالًا بما ينتظره من نشوة وانتشاء.. على الرغم

من كثرة ممارسته للفضيلة الرجولية خلف أسوار معسكر الفضيلة مع صبية وشباب لا حصر لهم إلا أنني أختلف كل الاختلاف عنهم.. شاب ترعرع في كنف الورثة وتحت رعايتهم وذلك كفيل بتأجيج شهوته فلم يمارس فضيلته تلك إلا مع الغرباء.

كأن شديد عثر أخيرًا على ما بحث عنه لسنوات ولطالما صرح بها مخمورًا خلف أبواب الحانة.. تناقل الناس ذلك أجيالًا.. بل أنه تحرش بأحد صبيان الورثة فيما سبق وتم زجره ومعاقبته بمائة جلدة قبل أن يُنقل حاكمًا لمعسكر الفضيلة.. حلم بعيد لم ينله شديد..

أن يشاركه وريث يُشبع رغبته المتأججة و ينتشله من طوفان شهوته الجارفة فوق سفينة من لذّة يتمناها ليلًا نهارًا.

ها قد وجد المستحيل.. وجدني.. ياقوت بن فارس كما أحب أن يناديني.

امتطى جواده وانطلق نحو نقطة لقائنا المُرتقب كما وصفتها له.. عبر السوق والنهر ومحطة القطار واخترق الغابات بعيدًا عن عيون الذئب.. طريق طويل بين الأشجار الكثيفة وفي نهايته يتسع ويتفرع.. في أقصى اليمين لافتة تركتها له وكتبت عليها بطلاء أحمر:

«أنتظرك أيها العربيد»

ضحك شديد ولاحظ سهمًا رسمته له ليدله على الطريق الجديد.. سلكه والشوق يحرق جسده.. سبعة كيلومترات لا يحيد عن مسلكه حتى قابلته شجرة عملاقة تعترض الطريق وعندها يمر فرع من النهر يبلغ اتساعه ثلاثمائة متر.. توقف شديد متلفتًا حوله باحثًا عني..

لافتة أخرى وجدها مُعلقة على الشجرة العملاقة مكتوب عليها:

"اخلع ثيابك كاملة»

ترجل شديد واقترب من اللافتة وقرأها بفرح مبالغ فيه مناديًا:

--ياقوت.. ياقوت.. أنت هنا؟ إنها المرة الأولى التي أفعل فيها ذلك في الهواء الطلق.. ياقوت.

لم يتلق أي إجابة.. ابتسم حائرًا ثم اتخذ قرارًا بالتعري.. تخلى عن سيفه البتّار وتركه أرضًا.. خلع حذائه الجلدي وبنطاله وقميصه.. لم يرتد أي من ثيابٍ داخلية.. وصار عاريًا تمامًا..

ذلك الجسد الكريه الرائحة.. رمق المكان من حوله.. السكون يسيطر عليه إلا القليل من أصوات بعض الحيوانات البعيدة من حين إلى آخر وصوت انسياب مياه النهر.. صاح مُجددًا:

--ياقوت.. ألم تحن اللحظة بعد؟ لا تطل شوقي إليك أكثر من ذلك.. ياقوت!

استمع شديد لتوه إلى صوت شيء ما ارتطم بالأرض.. نظر ناحية مصدر الصوت.. اقترب في شوق وحذر ممتزجين هامسًا:

--ياقوت.. ياقوت.. أهذا أنت؟

لاحظ حجرًا كبيرًا على الأرض مكتوب عليه شيء ما بنفس الطلاء الأحمر.. انحنى ليقرأه.

«الموت للذئب»

برقت عيناه وقبل أن يستقيم طوله.. قُطعت رقبته بسيف حاد..

فانفصلت رأسه وسقطت أمام قدماي واندفعت الدماء النجسة من جسده الشديد الاهتزاز.. نظرتُ لرأسه اللعينة.. أمسكتُ بها ورفعتها بيدي ناظرًا لها بغضبٍ شديد مشاورًا نحو حافة النهر صارخًا:

--هنا ماتت وعد.

مددتُ يدي الأخرى ودببتها في عينيه وخلعتهما من مكانها وفتحت فمه المُلطخ بالدماء ووضعتهما فيه ثم رميتها بعيدًا عني هامسًا:

--الموت للذئب

***

أغلَقت لؤلؤة عينيها لأيام في غيبوبة فجائية.. أكثر ما كان يخيف النبيل فهد هو أن يعيش تجربة الفقد من جديد بعدما رحلت حبيبته فيروز إلى الأبد.. ذلك ما أبقاه يقظًا دون نوم طوال هذه الأيام في جوارها.. أنب نفسه كثيرًا.. ليته لم يفعل ذلك.. لم يتوقع أبدًا ما جرى.. كل ما فكر فيه هو قطع علاقتها بياقوت وإنهاء وضعًا لم يكن على مزاجه.

سقطت الدموع من عينيه ناظرًا لها فوق فراشه وقد حاصرته الظنون والأفكار المدمرة..

وقد خارت قواه من انعدام النوم.. قبّل يدها:

--سامحيني يا حبيبتي.

كانت لؤلؤة صورة طبق الأصل من والدتها فيروز.. بالأخص بعدما

بلغت سن الثامنة عشر.. لطالما راقبها فهد عن بعد متخيلًا أن زوجته قد بُعثت من جديد.. حتى صوتها كان مطابقًا لها إلى حد كبير.. ابتسامتها.. لفتاتها.. رائحة فمها.. عبير شعرها المنسدل.. طريقتها في الحديث.. عيناها.. كأن روح فيروز تغازل فهد من خلال جسد ابنتهما..لم يستطع منع نفسه من عشقها.. سقط في براثن الحرمان.. عشق ابنته.. قاتلته الغيرة المرضيّة الّتي حاول بكل ما أوتي من قوة مقاومتها وعدم الخضوع لها ولكنها فازت في النهاية.. فما فعله مع ياقوت.. معي.. أنا من ترعرعت بين جدران قصره.. كان محركه الرئيسي رغبته في التخلص من تلك العلاقة الّتي باتت واضحة جلية بيني وبين لؤلؤة.. معشوقته المُحرمة.. كأنها لعنة ابتلي بها كبير الورثة بحق العذابات الّتي تجرعها الغرباء من جراء شرائعهم القذرة.

فقد جئت إلى هذه الحياة نتاج فضيلة محرمة بين أم وابنها بمباركة النبيل فهد وإن لم يكن راضيًا عنها في خبايا نفسه.. واليوم أب وابنته.. وكأن التاريخ يُجازيه و يزجره:

-ذق مرارة ما جناه ذئبك.

ساوره الفزع على فقدان لؤلؤة.. مد يده وتحسس وجهها ودموعه لا تفارقه.. تحدث إليها وكأنها واعية:

--حبيبتي.. هل ستعودين إلى أحضان والدك؟

لؤلؤة! لن أقوى على فقدانك.. فدعي الفراق يفارقنا..

أفيقي وأعيدي الفرحة إلى حياتنا كما عهدتك.. لؤلؤة!

تتطاير ستائر غرفتها بفعل الرياح الشديدة في الخارج في هذه الساعة المتأخرة من الليل بعدما خلد كل من في القصر إلى النوم منذ ساعات عديدة.. توجه فهد وأغلق زجاج شرفته..

نظر إليها عن بعد وتراوده فكرة محيرة.. أبعدها بكل ما أوتي من أبوة عن رأسه..

تنهد ومسح دموعه مقتربًا منها مجددًا.. مد يده وتحسس كل وجهها مترددًا.. لمس شفتيها متأثرًا هامسًا:

--أحبك يا فيروز.

مد يده فوق جسدها وتراجع بعدها فجأة إلى الوراء كمن لدغه عقرب.. صراع شديد يدفع رغبة قهرها لعامين والآن تطفو على السطح بعنف مبالغ فيه.. مد يده من جديد.. كل ذرة من جسده تتضور شوقًا لحبيبته فيروز المُجسدة أمام عينيه في ابنته لؤلؤة.. أزال غطائها ببطء ثم تردد في نزع ثيابها الواحد تلو الآخر.. برقت عيناه من ذلك الشبه المتطابق.

حاول كبح جماح شهوته دون جدوى.. انهارت مقاومته عن آخرها.. اقترب منها كوحش جائع قد وجد فريسته بعد طول جوع.. وفي لحظة واحدة لم يتمكن من منع نفسه عنها..

التحم جسداهما في غياب من العقل والأبوة.. غاب في سكرة ملذاتها.. لم يفق حتى انتهى.. جلس في جوارها يبكي حتى الصباح الباكر.. في لحظة انتبه عقله لشيء لم يلاحظه إلا للتو.. لم تكن ابنته بكرًا.. امتلأت نفسه بالغضب الشديد هامسًا:

--ياقوت.

قالها لنفسه متأكدًا من ذلك.. شبّ في قلبه نيران الغيرة الحمقاء.. مزيج عفن من حب الأب وامتلاك العشيق.

أعاد فهد كل شيء قبل شروق الشمس إلى مكانه.. عادت ثيابها فوق جسدها وغطائها كما كان.. الشيء الوحيد الذي تغير هو فهد.. فقد تبدل في هذه الليلة من أب حنون إلى عاشق مهووس بعشيقته مع ضربات سياط موجعة لضمير شارف على الموت.

***

(صباح العيد الوطني للذئب ٢٢٧)

انطلقت الزغاريد تعمّ أرجاء المدن من بيوت البارون وشاركهن نساء الغرباء الراقصات كالقرود على أربع في الشوارع احتفالًا بالعيد الوطني للذئب.

امتلأت الطرق بالعروض البارونية كالمعتاد وتعالت الموسيقات والهتافات بحياة الذئب على طول الطريق الممهد نحو مسرح ذئبستان الكبير.

تأنقت البلاد وتهيأت لعام جديد في رعاية من بسط سيطرته على تلك البقعة من الكون وعاشوا في حماه.. الذئب الكبير.

--فليحيا الذئب العظيم.. فليحيا الذئب العظيم.

«أعزائي الذئبيستانيون، الورثة والبارون والغرباء: افرحوا وهللوا وارقصوا فاليوم عيدكم الوطني.. عيد الذئب الكبير»

لم تمر الليلة الماضية في قصر النبيل كغيرها من الليالي.. وفهد في مكانه المعتاد في جوار لؤلؤة تحاربه جيوش اليقظة والحرمان.. اعتصر قلبه قهرًا على ابنته بل ويقاتل رغبات شرسة تدفعه للتكرار.. سقط في بحور الخطيئة مُتلذذًا.. أعلن قلبه العصيان في مملكة أبوته الفانية وانقلب على حكم العقل والحكمة واستل سيفًا من شهوة طاغية ليُعلن إمبراطورية من شبق لا ينتهي، أضحى فيها فهد عبدها الوحيد.

فتحت لؤلؤة عينيها مع بزوغ شمس يوم العيد الوطني.. لم يصدق فهد ما يراه.. نهضت جالسة مذهولة لا تتحدث.. هرع ناحيتها يحتضنها ويُقبلها في شوق جارف:

--لؤلؤة.. كدت أجن خوفًا عليكِ.. لؤلؤة حبيبتي هل أنتِ بخير؟

لم تجبه بشيء بل ظلت صامتة لا تنظر إليه.. تنهدت ونهضت من فراشه واتجهت ناحية زجاج الشرفة وفتحته.. استنشقت عبير الشتاء وتخبط وجهها بهواء الصباح البارد.

اقترب فهد منها وسألها مُجددًا وقد راوده القلق الشديد:

--لؤلؤة.. هل تسمعينني؟

لم تعره أي اهتمام يُذكر.. حتى بعد وصول خبر إفاقتها إلى مُعلمها العزيز ضرغام وهرع إليها لم تنظر له ولو نظرة واحدة تشفي غليلهما وقلقهما عليها.. وفي دقائق كان الطبيب في غرفة النبيل فهد وطمأنه بأنها تستعيد وعيها الكامل بالتدريج وتتلاشى حالة الذهول تلك المسيطرة عليها وحذره ألا يمارس أي ضغوط على عقلها بل ومن

المستحسن أن يتعامل الجميع أمامها بشكل طبيعي ونصحه بأن ترافقه إلى احتفال الذئب في المسرح الكبير.

نفذ فهد نصائح الطبيب على أكمل وجه.. أصدر أوامره ألا يتحدث معها أي من الخدم أو المشرفين داخل القصر وخارجه.. لا أحد يوجه إليها أي تساؤلات.. ساعدتها وصيفتها في ارتداء ثيابها الملكية المطرزة بالذهب وارتداء أروع الحلى والمجوهرات ووضع فوق رأسها تاج من الذهب الخالص.. استعدادًا لحضور الحفل كعادتها منذ الصغر.

انطلق موكب النبيل فهد نحو المسرح الكبير.. مر عبر الغابة والنهر حتى تمثال الذئب الضخم أمام مسرحه الكبير.. صوت الطبول يتعالى إعلانًا لوصوله.

يتزايد إيقاع المارشات البارونية ونفير عام لقوات البارون الأحمر استعدادًا لاستقبال النبيل وابنته لؤلؤة.

وقف الغرباء الجارين لعربات الموكب أمام مدخل المسرح الكبير على مقربة من تمثال الذئب وترجل فهد ومد يده لتتكئ ابنته عليها.. وهلل الناس:

--فليحيا النبيل فهد.

--كلنا فداؤك يا فهد.

--فليحيا النبيل فهد.

رفع يده ليُحييهم مرتبكًا فما زالت لؤلؤة شاردة مذهولة وكأنها تغط نومًا في غيبوبتها البعيدة .. الفارق الوحيد أنها تفتح عينيها

الآن.. نظر سريعًا نحو التمثال في غضب مكبوت ورغبة عارمة في الهجوم عليه بمعول ضخم ليكسره.. لقد سئم تلك القيود والشرائع الّتي كرهتها فيروز زوجته الراحلة.. دخلا المسرح في حراسة مشددة.

وقف الجميع تحية واجلالًا للنبيل المتجه نحو الصف الأول السفلي.

جلس وابنته إعلانًا لبدء الاحتفال.

صوت صافرة حادة تعلن البداية.

ظهر حاملو الطبول في خلفية المسرح وبدأوا الدق بإيقاع ثابت بعث في النفوس الرهبة والترقب.

دخل رجال يجرون قفصًا كبيرًا من الحديد الصدأ وفي داخله دب أبيض ضخم لا يتوقف عن القهقعة.

صوت رجل يتحدث في مكبر الصوت ليقدم الفقرة الأولى من الحفل:

--الدب اللعين.. العدو اللدود للذئب.

منذ قديم الأزل والدب يحارب ويحاول الانتصار.

والذئب يترك لكم الاختيار.. من شاء فليتبع الدب ومن شاء فليتبع الذئب.. إنه خياركم أنتم وعليكم تحمل العواقب.

أصوات تهليل عالية تتردد:

--الذئب.. الذئب.. فليحيا الذئب العظيم.

تتعالى دقات الطبول ويفتح أحد الرجال مزلاقًا حديديًا في القفص ليخرج الدب منه..

يستقبله عدد كبير من رجال البارون حاملين سهامًا وسيوفًا غرسوها في جسده الضخم و أرادوه قتيلًا في الحال.

--فليحيا الذئب العظيم.

انسابت دمائه على أرضية المسرح وهرع الرجال بتخضيب أياديهم في تلك الدماء الطازجة وتلطيخ وجوههم باللون الأحمر.

--ذئبستان.. ذئبستان.

توالت فقرات الاحتفال المعتادة ككل عام.. تتغير الوجوه والعرض ثابت لا يتغير.

بدأ الجميع في تلاوة الترانيم المقدسة للذئب.. لم يشاركهم فهد بل شغلته نظرات لؤلؤة المبرقة العينين نحو الأمام.. هناك شيء ما قد جذب انتباهها:

--يا ذئبي الكبير اصفح عن زلاتي وضعفي..

يا ذئبي العظيم أنا مِلك لك فكن لي آمنًا وآمانًا من الخراب.

سالت دموعي تحت قدميك فاقبلها أيها الذئب..

أنت الملك والحاكم.. أنت الملاذ.

امتزجت الطبول مع مقطوعة موسيقية راقصة وظهر معها مجموعة من الراقصات الشبه عاريات.

تابع فهد المكان الذي تنظر نحوه لؤلؤة.. حتى رآني.. كنت هناك وسط العرض.. وسط الغرباء زاحفًا على أربع أُصدر معهم أصوات خنخنة الخنازير.. فقد تم اختياري من قبل لجنة تنسيق الاحتفال بخطاب رسمي تلقيته منذ يومين للمشاركة في العرض.. ساورني بعض القلق أن أكون أحد المأكولين المحكوم عليهم بالإعدام حرقًا بالأخص بعد عثور البارون على رأس شديد طافية عند مصب النهر وتعرفوا عليه.. ثم أصدروا قرارًا بتعيين السيد مندوه خلفًا له.. ولكن العم شاهد طمأنني:

--لا تخف.. لا يُعدم الفاضلين حتى تنتهي خدمتهم.. الوطن في حاجة إليك.

إلا إذا كان لك علاقة بقتل السيد شديد.

ابتسمت له حينئذ وربت على كتفه:

--كن كما أنت أيها العجوز بعيدًا عن المشاكل.

وقف أحد الرجال في منتصف المسرح قاطعًا شرودي ونادى بصوت جهوري:

--أيها السادة.. موعدكم الآن مع العرض المسرحي قائم في بلاد الحوافر.

تعالت ضحكات الحضور..

أخرج البعض من البارون سيوفهم وأشهروها في وجوه البعض الآخر ممن ارتدوا شارات خضراء وكأنهم ينتمون إلى المقاطعة المعادية التاسعة.. الأحمر ضد الأخضر

تبارزوا جميعًا في شكل استعراضي.. والنتيجة معروفة مسبقًا.. الغلبة للأحمر.

انفتحت صنابير جانبية علوية لتملأ قفص زجاجي كبير في جانب المسرح بالخمر عن آخره..

ظهرت مجموعة أخرى من الراقصات و خلعن ملابسهن بطريقة مثيرة قطعة قطعة..

وغيرهن يلعقن قفص الذئب في الجهة الأخرى وفي المنتصف يُطلق الغرباء خنخنة الخنازير والطبول تُدق في الخلف بإيقاع ثابت.

اشتعلت الغيرة والحقد في نفس فهد وهو يتابع انفعالات لؤلؤة ناحيتي رويدًا رويدًا وكأن روحها تتعرف علي وتُذيب جبلًا عاليًا من الجليد فوق أرض من وعي.

تراقصت العاريات داخل الحوض الضخم وشربن منه بأسرع ما يمكن دون أن يتوقفن عن الرقص.

زادت الطبول ايقاعاتها مع تعالى صوت الخنخنة.. امتزجت الأصوات بصوت عواء جماعي للحضور يشبه عواء الذئب.

في المنتصف نهضت حينها لأؤدي دور الشاب الثائر من الغرباء واستقمت واقفًا.

اقترب مني أحد البارون في عصبية وعلا صوتنا فوق تلك الأصوات الممتزجة:

--وقوفك ضد القانون أيها الغريب.

--أنا فاضل أمارس الفضيلة بتصريح من المعسكر.

--أين تصريحك؟

أخرجت له ورقة صغيرة و ناولتها له:

--هذا تصريح معسكر الفضيلة مدون فيه تاريخ الالتحاق.

قرأها الرجل ثم ناولني إياها.

--حسنًا.

تحركت في كل جوانب المسرح وعيناي لا تفارق عينيّ لؤلؤة.. الراقصات العاريات تعافرن لتبقى على قيد الحياة بشرب الخمر الغارقات فيه.

وقف رجل آخر من البارون في منتصف المسرح وأخرج كشفًا وقرأه:

--في العيد الوطني للذئب يُعدم كل خائن وثائر وخارج عن النظام..

يُعدم كل من يعجز عن العمل إما تمردًا أو مرضًا.

والجميع يُحرم من دخول المستودع.

البارون يجرون فرنًا كبيرًا ممتلئًا بالفحم وفوقه أسياخًا من الحديد بعدد كبير.

ربطوا الغرباء فوق الأسياخ وأشعلوا النيران.. في لحظات معدودة اقتربث من لؤلؤة وصار يفصل بيني وبينها أقل من عشرة أمتار..

وقفت حينها متعالية أنفاسها غاضبة.. وصورتها المرسومة ظاهرة فوق صدري.

تواجهنا لأول مرة منذ عدة أيام كانت كالدهر.. تلاقت أعيننا لتحكي الكثير والكثير دون كلام.. تذكرت كل ما كافحت نفسها لنسيانه.. ترددت على مسامعها مقطوعتنا الموسيقية وكأنني أعزفها لها للتو (كونسرتار).. تمزقت أوصالها وانفتحت ضلوعها وود قلبها في الفرار بعيدًا معي دون فائدة.. صرخنا سويًا مع إضرام النيران في تلك الأسياخ المُعلق عليها الغرباء المحكوم عليهم بالحرق أحياء.. صرخنا عاليًا وهي تنظر ناحيتي حينًا وناحية والدها فهد حينًا أخر.. لم يتسن لفهد فعل أي شيء ولم يمهله القدر لزجر ابنته.. فكر للحظة أنها شعرت بما فعله بها من ممارسة فضيلة محرمة.. تسائل: كيف سيواجهها بعد اليوم؟

في لحظات حدث ما لم يكن في الحسبان.. هجوم مباغت لقوات خائنة من البارون على كل من في المسرح بسيوف حادة يقتلون كل من تطوله سيوفهم.. بارون يرتدون الشارات الحمراء ولكنهم يقتلونهم كألد أعدائهم.. وتطايرت الرؤوس وفاحت رائحة الدماء المختلطة الساخنة.. ساد الهرج والمرج في المسرح كله وهرع الباقون بالركض عبر الأبواب في فوضى عارمة.. وتقاتل البارون فيما بينهم.. استليث سيفًا من سيوف البارون المذبوحين بالقرب مني وبدأت في القتال دفاعًا عن المقاطعة.. شيء ما في أعماق نفسي يدفعني للدفاع عن تلك الأرض على الرغم من كل الظلم الواقع عليّ.. ربما لأنني تربيت على عشق الوطن بكل ما فيه من طغيان.. أحدهم يقترب من النبيل فهد رافعًا سيفه في الهواء واقترب من قطع رأسه..

قفزت ناحيته صارخًا:

--خذ حذرك أيها النبيل.

وصلت إليه قبل فوات الأوان وأنقذته.. برقت عينيّ فهد من دون أن ينطق بكلمة واحدة.. استل هو الآخر سيف ذلك القتيل واشترك معي في الدفاع عن المكان.. تحول المسرح إلى ساحة معركة مباغتة سرعان ما تمكن البارون من السيطرة على الأمور بعد قتل بعض أولئك الخائنين وفرار البعض الآخر.

وقف فهد في منتصف كراسي المسرح ورجاله فوق جثث لا حصر لها من الورثة والبارون..

نظر حوله فلم يجدني.. اختفيت.. راوده شعور بالخطر بغتة مُتذكرًا ابنته.. بحث حوله في خوف وسط الرؤوس المتناثرة والجثث المنتشرة فلم يعثر على ما يهاب رؤيته.

صرخ مناديًا متلفتًا حوله:

--لؤلؤة!

اختفت لؤلؤة.. بحثوا عنها في كل مكان دون جدوى.. جن جنون فهد وشاركه ضرغام ذلك الجنون.. حتى أنهم اقتحموا قريتي لأول مرة في عدد كبير من البارون وعلى رأسهم النبيل فهد والمعلم ضرغام كل على جواده حاملًا سيفه.

خرجت لهما بمجرد رؤيتهما من شباك بيت العم شاهد وخرج معي والخوف يحاصره..

ترجل فهد وضرغام نحوي ووقفت في مواجهتهما.. سألني فهد بعينين تملؤهما القسوة:

--أين لؤلؤة؟

لم أجبه في حينها بل لجمت المفاجأة لساني.. فقد لمحتها في خضم المعركة تخرج من المسرح في حراسة البارون المقربين لفهد وظننت أنها في أمان تام.

--أين لؤلؤة يا ياقوت؟

كررها فهد بعدما استل سيفه ورفعه شاهرًا إياه تحت رأسي ضاغطًا به عنقي وكأنني لم أنقذه من الموت منذ ساعات.. أجبته:

--خرجت مع رجالك المقربين من الباب الأيمن.

تبادل نظرات من الشك بينه وبين ضرغام الّذي مد يده وأبعد سيف فهد بعيدًا عني.. اقترب فهد ناحيتي مُهددًا:

--لو أن لك علاقة بما حدث اليوم فاعلم أنني سأدق عنقك وسافتح بطنك ليأكل الغرباء منها وألقيك في النهر كأمك.

انتابني شعور بالغضب الشديد ولكنني تماسكت وبادلته الحديث بنبرة يملؤها السخرية:

--يمكنك سؤال الذئب عن مكانها أما أنا فلا أعرف شيئًا.. الذئب يعرف أكثر.

تركني وأخذ جواده وانصرف وسط بارونه.. وقف ضرغام ينظر ناحيتي والعطف والشفقة تقفزان من عينيه.. ربت بيده على كتفي

واحتضنني رغمًا عني.. أزلتُ يديه بقسوة فتنهد دون أن يجد ما يقول فما يحدث لا يتحمله بشر ولا يُجدي معه أي اعتذارات.. ورحل هو الآخر ليلحق بركب النبيل.. ساورني القلق الشديد.. أين اختفت لؤلؤة؟ وقفتُ عاجزًا متمنيًا أن يعثر فهد عليها قبل فوات الأوان.

هرع فهد ناحية قصر النبيل الأكبر ليتقدم بطلبٍ عاجل لمراجعة عيون الذئب في نطاق المسرح الكبير.. وسبقه ضرغام إلى القصر عائدًا لربما يعثر على لؤلؤة هناك.. انتظر فهد النبيل الأكبر طوال اليوم حتى يعود من المقاطعة التاسعة فقد اختارها للاحتفال هذا العام مع رعيته هناك بالعيد الوطني للذئب.. وتلقى فهد سيلًا من التوبيخ بعد أن نمى إلى مسامع النائب الأول للذئب ما جرى.. مع محاولات غير مجدية لفهد لإقناعه بأن ماحدث لا بد أن لمارق دخل فيه.. ولكن النائب الكبير أصر على أنها محاولة للانقلاب الباروني.. شأن داخلي يُحاسب عليه بقسوة فهد وديوانه.. جلس فهد بعد طول عناء وتوبيخ أمام خزائن عيون الذئب وراجع اليوم بأكمله.. لقطات ومشاهد اعتيادية في كل مكان في المقاطعة.. حتى عثر على أول الخيط نحو العثور على لؤلؤة.. مجموعة من البارون التقطتهم العيون الحديدية يخرجون بها من الباب الأيمن للمسرح وانطلقوا بها فوق عربة تجرها جياد وابتعدوا وسط الفوضى.. طلب فهد من المراقب إعادة تلك اللقطة مجددًا.. تفرّس ذلك الرجل المنتمي للبارون ذي الشارة الحمراء المتوسط لأولئك الخاطفين.. إنه يعرفه.

إنه (هجرس) نائب مارق الأول ومساعده المُقرب.. تأكدت الخيانة لديه.. لقد اخترق مارق بارونه بنجاح.. ثارت ثورته وغادر قصر الحاكم الأول وفي طريق عودته إلى قصره استوقفه ركب كبير

بارونه ليبلغه أن بعض البارون المقتولين في تلك الأحداث ليسوا من رجال بارونهم الأحمر بل أنهم تنكروا واندسوا بينهم.

على الرغم أن شرائع الذئب تمنع تلك العمليات المُجرّمة داخل المدن ولكنه يعرف أن مارق يُجهز كل شيء لإنكار علاقته بما حدث كما فعل هو فيما سبق حينما أنكر علاقته برجاله الّذين ذُبحوا على أراضي المقاطعة التاسعة.. فما أشبه اليوم بالبارحة.

--لتذهب شرائع الحروب إلى الجحيم.

وصل فهد قصره والغضب يعميه.. ود لو خرج ببارونه كاملًا ليدق مقاطعة مارق فوق رأسه..

ترجل من فوق جواده وعدد غير قليل من الخدم يتراصون على جانبي باب قصره والحزن يملأ وجوههم.. دخل سريعًا إلى الداخل وهو يفكر في خطوته التالية.. عليه بالانتقام من مارق ولكن بعد العثور على ابنته.. شبح خطفها يلوح في الأفق.. لا يدرى ماذا يفعل إن فعلها مارق وقايضه بابنته.. إما حياتها أو تنازله عن كرسي النبالة الكبرى ومباركة إعلان ألد أعدائه نبيلا أكبر.. لم يمهله القدر للتفكير أكثر من ذلك.. كان ضرغام واقفًا في انتظاره يبكي.. التفت فهد ناحيته.. شيء ما خلفه أسود اللون.. اقترب أكثر.. الآن يراه بوضوح.. وكأن أحدهم طعنه في قلبه بمنتهى الغلظة.. جثة لؤلؤة عارية مشوية ملقاة على أرض باحة قصره وورقة في جوارها مكتوب عليها بطلاء أخضر «وجبة سعيدة أيها النبيل"

حرب ذئبستان العظمى

"في العام السابع والعشرين بعد المائة الثانية ستُهدم سدود الخوف بغتة وتُعلن الحرب الكبرى وتُرفع الرايات البيضاء رغم أنف الذئبين"

عجائب الأمصار في ذئبستان

المؤلف:مجهول

نُصبت المشانق الخشبية في كل أرجاء المقاطعة العاشرة بعد إعلان حالة الطوارئ القصوى،

حُكم بالإعدام شنقًا على القيادات العليا للبارون بأكملهم.. أعضاء المجلس الباروني الأحمر.. ونُفذت الأحكام في أقل من ساعتين على أكثر من خمسمائة فرد دون تظلم.

اجتمع المجلس الباروني الجديد للمقاطعة- بعد قرار تعيينهم من القائد الأعلى للبارون(النبيل فهد)- معه وتحركت جيوشهم تجوب أنحاء البلاد وتفتش كل الشقوق من مشارقها إلى مغاربها.. صدر لهم التكليف المباشر بقتل كل من يساورهم الشك فيه أنه ينتمي للمقاطعة المعادية.. أقسموا على الولاء لقائدهم الأعلى وتنفيذ أوامره.

كان فهد كالثور الهائج المُقسَم على الانتقام مهما كلفه الأمر.. فلم يعد هناك من يتردد في قراراته لأجله.. لقد ماتت لؤلؤته وحبيبته أبشع موتة على يد عدوه اللّدود.. يراه ينتشي واثقًا بالانتصار وقد ملأه الزهو البغيض بعد أن اخترق بارونه الأحمر في عقر مقاطعته

وكان على مقربة منه واختطف ابنته وحرقها حية بل وتركها له جثة هامدة في داخل قصره.

خيانة لم يتتبع فاعليها عبر خزائن عيونه السرية بل أمر بذبح كل الخدم في القصر سواء من الغرباء أو المشرفين عليهم من البارون وزميت جثتهم فوق بعضها البعض في ساحة السوق ليشهد عليهم الداني والقاصي وتُرك المشنوقين من قادة البارون مُعلقين لأيام ليأكل منهم الغربان حتى تفوح رائحة نتنهم ليكونوا عبرة لمن يُفكر ولو للحظة في خيانة فهد مُجددًا.

فاحت روائح الدماء المتجلطة والجيف المُنتفخة في شوارع المقاطعة.. وانطلق بعد فترة من ترقب وتوجس شديدين نفس الصوت الأجش عبر إذاعة ذئبستان مُعلنًا موت الأميرة لؤلؤة:

"أيها الذئبستانيون,اليوم نودع أميرة الياسمين كما أحبت أن نناديها..

رحلت الأميرة لؤلؤة في ريعان شبابها بغتة فاهتزت قلوبنا وسالت دموعنا

حزنًا وألمًا لفراقها.. فلندع لروحها بالسكينة في مستودع الذئب العظيم..

ننقل لكم جنازتها مباشرة على إذاعة ذئبستان الخاصة بالمقاطعة العاشرة بينما ضجّت إذاعة المقاطعة المعادية بأغانٍ حربية وموسيقات راقصة.. أيها الأخوة والأخوات مصابنا أليم فلندع الذئب أن يُلهمنا الصبر والسلوان"

وخرج مئات الآلاف في وداع الأميرة الصغيرة.. دُقت الطبول البارونية بإيقاعاتها الحزينة وتقدّم حشود الجنازة النبيل فهد وفي جواره المُعلم ضرغام المنهار بكاءً وقد تأبط كل منهما ذراع الأخر بعدما نُقل جثمان لؤلؤة على عربة ذهبية يجرها الغرباء في رداء ملكي مرصع بالذهب مرتدية بعض مجوهراتها التي أحبت التزين بها.

ووُضع الباقي في صندوق كبير سيصاحبها إلى عالم ما وراء جدران المستودع.

خرجت الجنازة من قصر النبيل مرورًا بالغابة نحو مستودع المقاطعة الواقع في الجنوب.. في ذئبستان عشرة مستودعات تحاوطها أسوار خرسانية عالية لا تُرى نهايتها من كل الجهات وفي الخارج يحاوطها سياج حديدية سميكة ويتولى أعمالها بارون خاص يُدعى «البارون الذئبي» تحت قيادة النبيل الأكبر ذاته ولا يتبعون النبلاء العشرة وعددهم يتعدى العشرة ملايين.

احتشد عامة الغرباء يتبعون ساداتهم من الورثة والبارون زاحفين على أربع في جمع مهيب.. خيم على رؤوسهم الطير.. تلاحقهم الغربان على استحياء وتُصدر أصوات نعيقها الكريهة بين الحين والآخر.

غابت شمس ذلك اليوم واختفت خلف سحب كثيفة تُسقط أمطارها في غزارة دون توقف.

كنتُ هناك.. أشق الزحام مُضطربًا بقلبٍ تشتعل فيه نيران الفراق دون توقف.. لم أصدق حتى اللحظة ما تناقله الناس.. جررتُ قدميّ نحو المقدمة والجمع يجلدوني بنظراتٍ قاتلة.. وكأنهم يصرخون في

وجهي:

--أنت من تركتها تموت.. لو كنت ملازمًا لها كعادتكم طوال السنين الماضية لما تمكن الأعداء من خطفها.

كان عليّ القتال على أبواب مدينتها كي ألوذ بها.. وألا أخرج طريدًا منفيًا بهذه السهولة ..غرقتُ في دوامات نسبي وانتقامي ونسيتها.. استسلمتُ إلى غربتي المباغتة.

لو أنني اختطفتها وهربنا لنعيش سويًا في الغابات والأدغال! لو أنني رفضتُ الخروج من القصر بدونها وإن كان قتلي هو الثمن! لما اعتصر قلبي الآن بقبضات فراقها القاسية..

لؤلؤة! هل حقًا أجبروكِ على الرحيل يا حبيبتي؟ هل استباحوا جسدك وروحك يا قرة القلب؟ هل استغثتِ بي بكل ما لديك من صوت دون مجيب؟ لقد أشعلوا فيكِ نيرانًا ستلتهم عقلي للأبد يا حبيبة العمر.

وصلتُ إلى الصف الأول من الجنازة بعد طول عناء ورأيتها.. يجرعربتها الغرباء وسط الطبول الباكية..

صرخت:

--انتظروا.

توقف الركب للحظات.. اغرورقت عيناي بالدموع:

--دعوني أودعها.

انتظر البارون المصاحبين للجثمان حراسة وتأمينًا أوامر الأب

المُنهار.. واحد من الغرباء يقتحم ركب جنازة ملكية.. ولكن لم يمنعني أحد في الوصول إلى هنا بل وكأنهم كانوا يفسحون لي طريقًا لأودع فيه حبيبتي.. الجميع كان يعرف قصتنا وحبنا.. الكل كانوا يثرثرون و نسجوا الحكايات حول الأميرة والأمير الذين فرقتهما ذئبستان.. أشار لهم فهد بالموافقة.. فتقدمت نحوها.

اقتربتُ منها.. صعدت فوق تلك العربة المكشوفة مرتديًا زي الغرباء.. رأيتُ وجهها المُحترق..

سقطت دموعي دون توقف.. ذلك الوجه الجميل الّذي طالما أضاء لي حياتي بابتسامات لا حصر لها قد أُطفئت أنواره بغتة.. مددتُ يدي وتحسستُ جبينها المُتفحم.. أنحنيتُ وقبلتها للمرة الأخيرة.. تلك الشفتين الرائعتين قد تحولتا إلى أطلالٍ متحجرة.. أشار النبيل فهد إلى بارون الركب ليُكملوا طريقهم فتحركوا بي فوق العربة في جوار جثمانها.. احتضنتها باكيًا.

وصلت الجنازة إلى أبواب المستودع الخارجية.. وتوقفت.. تقدّم فهد وصاحبه ضرغام نحو بعض من البارون الذئبي وحادثهم مُغالبًا أحزانه:

--الأميرة لؤلؤة.. ابنتي.

--الذئب يُعزيك أيها النبيل.

--افتحوا الأبواب إذًا.

--حسنًا ولكن لن يصاحبها إلى الباب الداخلي غير قرابة مائة فرد فقط.

--حسنًا.. أعرف ذلك.

--فلننته من الإجراءات سريعًا.

أشار الرجل إلى بعض رجاله من البارون الذئبي فاقتربوا من الجثمان وصعدوا فوق العربة..

لم أتخل عنها وبقيث في جوارها.. تفحصوا وجهها ونظروا إلى بعضهم البعض..

ترجلوا نحو الحارس وهمسوا إليه.. اتجه نحو النبيل فهد وحدثه بصوت خفيض:

--سيادة النبيل فهد.. طبقًا لشرائع الذئب فابنتك محرومة من دخول المستودع.

كانت كلماته كالسكين الحاد دُب في قلوبنا جميعًا.. ترجلث ناحية فهد المذهول قبل أن يعلو صوته:

--أمجذوب أنت؟

--أرجوك أيها النبيل.. أنت تعرف القوانين جيدًا وشريعة المستودع بالنسبة للورثة تنص على تسليم الجثمان السليم إلى بواباتنا دون حرق وفي حالة الأميرة فقد حُرقت بالكامل فلن أتمكن من استلامها.

--أتدرك معنى كلامك؟

--للأسف سيادتك روح ابنتك تبعًا للشرائع الذئبية ستهيم في أجساد الغئران.

رمقني حينها النبيل فهد بنظرة تحمل الكثير والكثير.. رأيت غضبًا

لا يُضاهى في عينيه.. وانفجر بعدها في وجه أولئك البارون الذئبين:

--أنا هنا النبيل وآمرك بدخول ابنتي للمستودع حالًا.

--لا نتلقى أوامرنا إلا من النبيل الأكبر.

--هل جننت يا رجل؟ كيف تُحدث النبيل المُرشح للنبالة الكبرى بهذه اللهجة؟

قالها ضرغام بصوت يملؤه الغضب المكتوم.

--أنا أنفذ القانون.

--القانون ينص على أحقية النبلاء بمنع دخول المستودع لمن شاؤوا.. فكيف يكون المنح؟

--المنع لا المنح.

--ماذا؟

--تلك أوامر الذئب.. الذئب يعرف أكثر.

--فليذهب الذئب إلى الجحيم.. أيها البارون الأحمر.. إني آمركم باقتحام المستودع.

لم يُكمل النبيل جملته حتى أمسك أحدهم ببوق كبير ونفخ فيه فاحتشد فوق تلك السياج المحاوطة للأبواب الخارجية أعداد مهولة من البارون الذئبي شاهرين سيوفهم.. ابتسم الحارس في هدوء:

--الذئب لا يذهب إلى الجحيم أيها النبيل.

***

تفرقت الناس وعادوا أدراجهم يجرون أذيال الخيبة فإن كان نبيلهم قد غوقب بمنع ابنته الوحيدة من دخول المستودع فماذا سيفعل بهم؟

إنهم يتحملون مصاعب الدنيا من أجل يوم كهذا ينعمون فيه بما وعدهم الذئب.. سحقًا لذلك الذل الآكل لأرواحهم أحياءً وأمواتًا.

وقفتُ وفهد فوق أحد الهضاب المرتفعة المطلة على بحر ذئبستان العظيم تحت الأمطار الغزيرة وأمواج البحر تلاحقنا بين الحين والآخر.. ساد الصمت بيننا كثيرًا.. احتشدت قوات من البارون الأحمر على مقربة منا وبقى ضرغام مع جثمان لؤلؤة حائرًا.. عاد الورثة إلى قصورهم غير آبهين بما حدث زامين شفاههم شفقةً على نبيلهم الموشك على الإقالة.. فقد سمعتُ أحدهم يهمس لغيره:

--سيقيل النبيل الأكبر السيد فهد لا محالة.

كلانا يفكر في نفس الشيء.. كلانا يحمل في داخله ألف سيف وسيف يتمنى اللحظة الّتي يُقاتل فيها الذئب الكبير ويغرزهم دفعةً واحدة في قلبه.. كلانا يشتعل قلبه لسنوات ضد تلك الشرائع الطاغية.. كلانا يريد الحرية ولم يعد منها مناص ولكن كيف؟ اتخذ فهد خطوته الأولى التي تأخرت كثيرًا.. خلع عباءته الملكية واقترب مني.. ألبسني إياها هامسًا:

--أريد رأس مارق تحت قدمي.

نظرتُ إليه برغبات يصارعها الانتقام تلتهم نفسي.. نظرتُ إلى البحر وتنهدت في غضب شديد:

--الموت للذئب.

مد يده ليصافحني.. نظرت إليه للحظات.. همس لي بحماس:

--الموت للذئب.

مددتُ يدي مُصافحًا وضغطت على يده.. ضمني حينها في أحضانه لأشعر بحنانٍ لم أشعر به من قبل.. حنانٌ يُغرقه الحسرة والندم والحزن والحرمان.. وقد هُدمت كل الأسوار بيننا التي طالما ارتفعت في السنين الماضية.. هُدمت سدود الخوف والتردد.

***

"أيها السادة بيان عاجل من حاكم المقاطعة العاشرة النبيل فهد:

نظرًا للظلم والطغيان الذي عانى منه فئات عريضة من شعب المقاطعة في كل أرجائها لأكثر من قرنين من الزمان،فقد اتخذنا قرارات عشرة واجبة النفاذ في الحال ويُشرف على تنفيذها البارون:

أولًا: تُعلن المقاطعة العاشرة دولة مستقلة بذاتها غير خاضعة للغير ومن اليوم تُسمى إمبراطورية الشرق الأبيض.

ثانيًا: تسقط كل شرائع الذئب على أراضي دولتنا الجديدة وتُكسر تماثيله في الميادين وتُفقأ عيونه الحديدية بالتنسيق مع البارون.

ثالثًا:يُمنح الغرباء حريتهم كاملة ويُلغى العمل في معسكرات الفضيلة وتُجهز تلك المعسكرات من اليوم مصانعًا للانتاج المحلي والكهرباء.. مع إلغاء كامل لنظام الإخصاء للذكور.

رابعًا: لا فرق بين غريب ووريث وبارون إلا بإتقان عمله وتحديد

الراتب المناسب لذلك العمل المستحق له.

خامسًا:صرف معونات سنوية من الدنانير الذهبية لكل سكان الشرق الأبيض.

سادسًا:التعليم حق لكل مواطن ويخضع الغرباء إلى برامج تعليمية مكثفة لمدة عشرة أعوام يمكنهم بعدها مباشرة كافة الحقوق السياسية.

سابعًا:تخضع كل المناصب السياسية في البلاد للانتخاب المباشر ويحق للغرباء المتعلمين بعد عشر سنوات الترشح لأي منصب حتى وإن كان حاكم الشرق الأبيض.

ثامنًا:تُشكل لجنة مختصة من البارون لجرد ثروات الورثة بمن فيهم العائلة الحاكمة ويُسمح لهم بحد أقصى ما يوازي مائة كيلوجرامات من الذهب، ويؤمم الباقي لصالح الدولة لتعيد توزيعه على الجميع غرباءً وبارونا توزيعًا عادلًا يضمن التكافؤ الاجتماعي.

تاسعًا:التجنيد الإجباري للغرباء والورثة ممن بلغ عمرهم عشرون عامًا أو أكثر لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات في قوات البارون النظامي ليتولوا مسؤوليتهم في الدفاع عن الوطن.

عاشرًا:المستودع حق للجميع يتساوى فيه الغني والفقير.. الوريث والغريب.

تردد البيان عبر مكبرات الصوت في كل أرجاء ذئبستان القديمة على خلفية موسيقية بارونية يملؤها الحماس والهتافات.. امتلأت الشوارع بقوات من البارون وقد تحول زيهم إلى اللون الأبيض

يدهنون البيوت جميعها بنفس اللون وترفرف أعلام بيضاء جديدة فوق تلك البيوت تُعلن تلك الحقبة التاريخية الهامة لهذه البقعة من الكون.. احتضن الغرباء بعضهم البعض بعدما استقامت قاماتهم وزُفعت رؤوسهم في حرية لم يسعوا لها يومًا هاتفين في كل الأرجاء:

--فليحيا ياقوت.. فليحيا ياقوت.. فليحيا ياقوت.

استغرقنا أيامًا في اجتماعات مستمرة ومداولات وشد وجذب حتى انتهينا إلى ذلك البيان..

ترك فهد كل شيء لي وبارك اقتراحاتي رغبةً في الانتقام ،وبقى جمان لؤلؤة في غرفتها مغموسًا في مياه ورود الياسمين كما طلبت.. وظل ضرغام جوارها حزينًا بعيدًا عن قراراتنا السياسية الحادة.. ظل يبكي ليلًا نهارًا على فراقها.

كان أكبر مخاوفي هو رد فعل البارون على تلك القرارات ولكن الذهب كان له مفعول السحر فقد زادت حصة كل من قادة البارون إلى عشرة أضعاف، أظهروا بعدها الطاعة والانقياد لأوامر النبيل فهد القائد الأعلى للبارون ونائبه الجديد ياقوت.. لقد عينني فهد نائبًا له بعد إعدام نائبه القديم.

أمنث الحدود قدر المستطاع عبر خرائط دقيقة وضحت مداخل ومخارج محددة، لن يهاجمنا مارق إلا من خلالها حيث أن هجوم قوات بحرية مستحيلًا لأن ذئبستان لا تملك إلا بعض السفن الصغيرة الناقلة للبضائع التي لا تزيد عن خمسة عشر على أقصى تقدير.. بيد أن الجبال الغربية تُعيق تحركاتهم.. وبذلك لم يتبق غير تلك الأراضي

الصحراوية الشاسعة شمال المقاطعة العاشرة الّتي سبق وأن دار فيها العديد من المعارك الحربية على مدار سنين طويلة.

تجاهلث هتافات الآلاف من الورثة المُتذمرين بسبب تلك القرارات المضرة لهم، الناسفة استبدادهم و غناهم الفاحش، وتركت الأمر للبارون واثقًا في إنهائها تلك التجمهرات بأسرع وقت ممكن.

وصدق حدسي.. ما أن قبض البارون على البعض وضُرب البعض الآخر في تصادمات حتمية أمام أبواب قصر النبيل فهد حتى تفرقوا وعادوا إلى قصورهم خاليّ الوفاض مستسلمين ولو مؤقتًا إلى الأمر الواقع.

حتى تلك السرقات وعمليات السطو على المصانع والمحال التجارية والأراضي الزراعية ومحاصيلها وإثارة الذعر في شوارع المدن لم تجد معي.. كنت مدركًا أن الورثة سيفعلون ذلك لتدنيس القرارات وإظهار انفلاتًا أمنيًا مصطنعًا سرعان ما تمكن البارون من السيطرة عليه.

في لحظة إذاعة البيان لأول مرة كانت قوات الجيش الأبيض تهاجم مستودعات كل المقاطعات الواقعة في حدودنا في آن واحد بضراوة وكذلك قصور النبيل الأكبر في حرب شرسة أدرتها بعناية فائقة.

كان الوقت يداهمنا وعلينا أن نفاجئهم قبل أن يباغتونا بمحونا من الدنيا بأكملها.

سالت الدماء في كل مكان بين البارون الأبيض والبارون الذئبي

الحارس للمستودعات وقصور النبيل الأكبر.. طُيرت الرؤوس بسيوف الفريقين.. يوم كامل من الحرب والكر والفر في عشرة مواقع في آن واحد.. خمسة مستودعات وخمسة قصور تفرقت بينهم جهود البارون الذئبي حتى حدث ما توقعت.. سقط كل شيء في قبضتنا خاصة بعد مغادرة النبيل الأكبر حدود المقاطعة في سرية تامة وعائلته مُتجهًا نحو ولاية مارق.

كأنه كان يتوقع ما دُبّر له، وانقسمت ذئبستان إلى دولتين متناقضتين.. مقاطعة مارق التاسعة والشرق الأبيض.. أو بالأحرى الشرق الأبيض والأسود كما أطلقت عليهما في اجتماعاتي البارونية.. وقطعت دولة الذئب بسكين حاد اقترب على ذبحه.

الآن دانت لي السيطرة التامة.. من حدود المقاطعة التاسعة في الشمال حتى الجنوب المطل على بحر ذئبستان ومن الشرق البحري حتى سور ذئبستان العظيم غربًا.

وقفتُ في شرفة قصر النبيل الأكبر مُنتصرًا وفي جواري الصديقين فهد وضرغام وسط تهليل وهتاف من ملايين الغرباء المنتصبي القامة المحتشدين احتفالًا بالحرية التي منحتهم إياها مع بعض الفرق من البارون الأبيض:

--فليحيا ياقوت.. فليحيا ياقوت.

رفعتُ يدي ليكفوا عن الهتاف حتى صمت الجميع.. حادثتهم بصوت جهوري:

--من اليوم لا تهتفوا لشخص مهما فعل لكم.. أنتم أحرار ما بقى

لكم من العمر.

--حرية.. حرية.. حرية.

رددتُ معهم ذلك الهتاف بل وترجلتُ عبر سلم تلك الشرفة لأنضم لحشودهم.. حملوني على الأعناق في فرحة عارمة لا تضاهي ذلك الحزن المُستشري في داخلي.

ذُقت طبول الجنازة من جديد بعد أيام من معارك دامية ورائحة الدماء المختلطة تفوح في الهواء مُعلنة النصر المبين.. تأنقت المدينة ببنايات بيضاء وعلى أسطحها ترفرف أعلامنا.

جنازة مهيبة خالية من الغرباء فقد أمرت بترحيلهم ونساء البارون إلى الغابات جزءًا من خطة محكمة لبسط سيطرتنا على المقاطعة التاسعة آجلًا.. بات الشرق الأبيض خاليًا من الغرباء منذ شروق شمس اليوم بعد السيطرة على المستودعات وتنفيذ أغلب القرارات بجدارة واستقرار الأوضاع.. لتبدأ خطة الإيقاع بمارق وجيوشه بيسر.. فقد أمرتُ بسحب كل جيوشي من البارون عند الحدود الشمالية الفاصلة بل والأكثر من ذلك.. ترجلت في المدن مُتجهًا نحو الجنوب أو اتجهت شرقًا وغربًا فلن تعثر على أحد غير الحيوانات الضالة.. الشرق الأبيض بات خاويًا من الجميع ماعدا بعض الآلاف المشيعين للجنازة والقليل الحارس للمستودعات وقصور الحكم.. وابتلعت الغابات كل الغرباء بنجاح ومعهم كل نساء البارون.. ووُضع الورثة قيد الإقامة الجبرية في قصورهم تحت حراستنا.

تقدمت وفهد وضرغام الموكب الجنائزي خلف عربة الخيل الحاملة لجثمان حبيبتي لؤلؤة لنودعها إلى مثواها الأخير.. وددت لو أخبرها

الآن أنني فعلت كل ذلك من أجلها.. لأضمن لها الراحة في عالم بعيد دون عذاب أو تيه.

وصلنا إلى أبواب المستودع الخارجية مفتوحة هذه المرة يحرسها بارونا المنتشرين في الأرجاء حتى الباب الداخلي -المنفذ الوحيد إلى عالم ما وراء أسوار المستودع.. عالم الموت والنعيم.. لم يتمكن أحد من اقتحامه خوفًا من اللاعودة.. ربما يموت من يجتازه.. ذلك الغموض الرابض فيما وراء سور المستودعات يمنعهم.. الحياة الآخرة.. أجِنان وأنهار هي؟

أم قصور حافلة بشتى أنواع المتع على مدى البصر؟ مهما كانت تخيلاتنا عنها فلن نجرؤ على الاقتحام

قد مات أغلب البارون الذئبين وفر الباقين ووقع عدد قليل منهم في قبضتنا ولكنهم لم يقروا بطريقة التواصل مع العالم الآخر.. كل ما قالوه تحت وطأة التعذيب والتنكيل أن هناك رسولًا منهم يُعين من النبيل الأكبر هو المسئول عن تسلّم الجثامين وإدخالها عبر الباب الكبير الداخلي.. رسول الموت.. هكذا أطلقوا عليه.. ويُورث منصبه هذا في عائلته.. ولا يحق لغيره المرور إلى عالم الموت والخروج منه وإن فعلها غيره ربما لا يعود.. بحثنا عن تلك العائلة فوجدناهم جميعًا في قائمة الأموات في أثناء المعارك.

وقف الركب أمام الباب الداخلي ونظرنا إلى بعضنا البعض.. سألني فهد مرتبكًا:

--من منا يجرؤ على مهام رسول الموت؟

--أنت.. والدها وأقرب الناس إليها.

قالها ضرغام ناظرًا لفهد.. فتلعثم:

--أنا؟ لا أستطيع.. أخاف من الموت.. لقد عادينا الذئب وكفرنا به.

أما زلت تعتقد في ذلك الحيوان البغيض؟--

--نحن أمام مستودعه ولا نملك اقتحامه.. فعلنا كل شيء وتناسينا الموت.. ربما تهيم أرواحنا في الغفران جزاءًا لنا على ما فعلناه.

--إن كان الأمر كذلك فلن يُقبل جثمان الأميرة لؤلؤة هو الآخر.

قالها قائد البارون الأبيض في جوارنا..

نظرت إليه بحدة دون أن أنطق.. انتشرت الهمسات واللمزات بين الحشود وكأنهم يندمون على ما فعلوا.. أكاد أجزم أنهم يريدون للتو السجود للذئب طلبًا للغفران وكل ما يمنعهم تلك المكاسب العظيمة من الذهب.. ابتلع ضرغام ريقه واقترب نحو العربة الحاملة للجثمان:

--سأدخل أنا إذًا.

استوقفته بيدي وهمست لهما:

--لن يفعلها غيري.

--أنت يا ياقوت!

--لم يكن هناك من هو أقرب مني إليها.. وإن واراني الموت والعذاب خلف هذه الجدران

فحياتي ثمنًا زهيدًا لنعيم لؤلؤة المُحتمل.

ترجلث تجاه الجثمان.. مددتُ ذراعي تحتها ورفعتها حاملًا إياها ورمقتهما.. لمحت نظرات من الامتنان لا توصف في أعينهما.. وفي صمت مريب من الجميع على مدى البصر ابتسمت:

--اذكروني.

وتحركت ناحية الباب وأزلت ذلك المزلاج الذهبي الكبير المغلق للباب.. دفعته بيدي في حذر شديد.. نظرت لهما للمرة الأخيرة قبل أن أدب بقدميّ خلف ذلك الباب الضخم وأغلقه خلفي.

ها أنا قد عبرت بجسدي إلى عالم الموت بنجاح.. كل ما كان يجول في خاطري أنه من الجائز أن تدب روح لؤلؤة في جسدها هنا من جديد وأراها عن قرب.. من الجائز أن يكون عبوري إلى جنة المستودع أفضل ما حلمت به في حياتي فقط إن رأيتها من جديد.. حتى لو دفعت ثمنًا لذلك موتًا وتيهًا في أجساد الفئران.. ربما تُعاقب لؤلؤة مثلي.. أو يُغفر لها فهي من الورثة على أي حال وقد تُمنح استثناءً ما.. في داخلي شخصين.. أحدهما يُثني على أفعالي ويدفعني للمزيد والأخر يهمس بالخسران.. وكأنه يسخر مني:

--لن تفلح القوة في عالم الأموات.

كيف أكفر بالذئب وأؤمن بمستودعه؟ سؤال يُلح على عقلي في هذه اللحظات الفارقة.. رأسي يكاد ينفجر من التفكير.

تماسكت وتقدمت.. برقت عيناي غير مصدق ما أراه في هذه اللحظة.. أهذا هو عالم الموت الذي طالما تحمل الغرباء الذل والهوان لأجله؟

لم يكن أمامي سوى أرض شاسعة صحراوية ممتلئة بالحصى في كل مكان فارغة من أي شيء يُذكر وعلى مدى البصر أرى البحر.. تحركت حاملًا لؤلؤة متفحصًا المكان غير مصدق ما أعايشه.. تلك الأسوار العالية تخفي خلفها أرض صحراوية.. وضعت لؤلؤة على الأرض وهرعت يمينًا ويسارًا باحثًا عن أي شيء يكذب ما أراه فلم أجد.. وقفت للحظات مذهولًا ثم ترجلث ناحية الباب و فتحته على مصراعيه.. رأيت الرعب في وجوه من بالخارج.. نظروا لي متعجبين من عودتي.. انتابتني هيستريا من الضحك.. نظروا إلى بعضهم البعض بعدما ظهر جزء من تلك الأرض خلف الباب بعد فتحه.. اقتربوا في حذر.. ومروا خلاله إلى الداخل.. مروا على استحياء ووقفوا على أرض المستودع الكاذب في ذهول.. اقترب مني فهد متسائلًا:

--أين أمواتنا؟

--ربما دفنوهم هنا أو رموا جثثهم في البحر هناك.

--لقد خدعنا الذئب لقرنين من الزمان.

قالها ضرغام هامسًا.. فصحث بعده:

--الذئب لا وجود له.. المستودع لا وجود له.

***

دُفنت لؤلؤة.. أهالوا عليها التراب حتى اختفت في أرض المستودع بعد طول حيرة.. أخبرنا مُعلمي ضرغام أن الدفن كان طريقة قدماء ما قبل ذئبستان في إكرام جثامين ذويهم كما قص له جده بعدما

قرأها في أحد الكتب العتيقة.

الكتب الممنوع تداولها في ذئبستان لم تكن كذلك في أوائل نشأتها.. في العشرين عامًا الأولى من تاريخ ذئبستان كان الورثة والبارون يتعلمون ويقرأون كتبًا حُددت لهم بموافقة الذئب منهجًا محددًا لا يخرجون عنه.. كانت أغلفتها وأوراقها تحوي ختم ذئبستان.. تحكم الذئب في معرفتهم وثقافتهم وتاريخهم.. لم يكن هناك كتبًا تتحدث عن تاريخ ما قبل ذئبستان أو العالم خارج حدودها إلا ويصور الخراب والدمار كوحوش أهلكها الذئب على حدود مملكته حتى ظهر كتاب لا يعرف أحد من أين أتى.. كتاب عجائب الأمصار في ذئبستان لمؤلف مجهول.. يُقال أن ذلك الكتاب كان سببًا رئيسيًا في منع تداول الكتب وحصر التعليم شفهيًا بعدما حُرقت نسخته الوحيدة.. ومن أشرف على حرق ذلك الكتاب هو جد ضرغام حينما كان كبيربارون مقاطعته آنذاك.. لطالما قص الجد لضرغام عن محتوى ذلك الكتاب الذي قرأه قبل أن تلتهمه النيران.. ومن محتواه شكل العالم قبل ذئبستان وخارجها وكيف يتعامل الناس مع موتاهم.

لقد أخبرني مُعلمي ذات مرة عن ذلك الكتاب ولذلك فأنا أصدق كل ما يقترحه دون نقاش.

بقيت بمفردي في جوار قبر لؤلؤة بعد إلحاح حتى غروب الشمس.. أخرجت ناي والدي فارس من جيب ردائي.. قد حرصت على الاحتفاظ به في كل مكان أذهب إليه.. ربما أكون أول الغرباء معرفةً لأبوه.. نفخت فيه لحن الكونسرتار.. ودموعي لا تتوقف.. أيمكن أن يكون كل ما حدث مجرد كابوس؟ ربما أفيق وعبق الياسمين يملأ

أنفي على فراشي ولؤلؤة توقظني في الصباح لأصحبها في جولة فوق جوادي.. تتأبط ذراعي وتُمسك بكتفي وتحتضنني ونحن نجوب أرجاء ذئبستان.. نرفع أيادينا جانبًا في حرية زائفة نتنسم ربيع عمرنا الوردي كما كنا نحلم به.. نُهاجر كالطيور إلى بلاد العشق وحدنا دون قيود, دون موت.

نظرتُ إلى التراب فوق قبرها وربتّ بيدي عليه ودموعي تتساقط وكأنني أناجيها:

--الوداع يا حبيبتي.. سأظل أحبك حتى فناء الكون..

وسأظل عبدًا لعشقك مادمت حيًا.. لن أجرؤ على وعدك باللقاء

لأنني لا أعرف إلى أين تذهب أرواحنا..

ليتك تعودين لتخبريني الحقيقة.. حقيقة الموت و مستقر الأرواح..

ربما يأتي يومًا تنتهي فيه الآلام وتجف الدموع..

ربما تغدو السعادة وترفرف أعلام الفرح والهناء..

وتُفتح أبواب الوصال في غير موعدها وتُطفأ نيران شبت في قلوبنا..

ربما.. الوداع.

غدت إلى غرفتي في القصر بدونها.. لم تطأها قدمي منذ رجوعي، بيد أنني قضيتُ ساعات شحيحة من النوم في بيت الحمام متدثرًا بذكراها.. لم أستطع تحمل وجودي في غرفة تلاصق غرفتها الحاوية لجثمانها.. والليلة غابت لؤلؤة نهائيًا عن القصر تحت الثرى..لا روح

ولا جثمان.. وقفت أمام تلك الرقعة الجلدية المُهداة من مُعلمي ضرغام المكتوبة بخط يده المُعلقة فوق الحائط الحاوية لقصة الخلق ومافيها من لقاء الأرواح قبل بدء الخليقة.

تساؤلات لا حصر لها تغتال عقلي.. من أين أتينا وإلى أين تُزهق أرواحنا؟ تلك القوة الكامنة في داخلنا الراحلة في ميعادٍ لا يعرفه أحد ويختلف بين الناس كل الاختلاف, من بعها فينا؟

من المالك الحقيقي لهذا الكون؟ من خالقنا؟

من قابض أرواحنا؟ وإلى أين المصير؟

قضيث ليلتي عازفًا على ناي فارس.. مبارزًا أحزان تُغرق قلبي.

دقات على باب الغرفة استمعت إليها لتنتشلني من دوامات غارقة.. فتحت لأجد أحد حراس البارون مصطحبًا للعم شاهد.. قد أرسلت له لألقاه.. احتضنته وأمرت الحارس بالانصراف.. دخلنا وأغلقت الباب مُجددًا:

--تعال يا عمي.

--إلى أين؟

--هنا.. قصر الحاكم.

--ليس لي مكان هنا يا ولدي.

--أحتاجك في جواري.

--بعد أن عاديت الذئب أنت لست في حاجة لأحد.

الذئب.. الذئب! الذئب! لقد سئمت حتى سماع من ينطقون تلك الكلمة.--

قلتها في عصبية شديدة..

--أنت تؤمن بالدب إذًا؟

--فليذهب كلاهما إلى الجحيم

ابتسم العم شاهد مربتًا على كتفي:

اهدأ يا بني.--

تنهدت:

--مازلت تدافع عن الذئب بعد كل ما عايشته من جراء شرائعه؟

--قلت لك من قبل من أنا حتى أدافع أو أهاجم؟

--قلت لي أن الفرد لا يُغير وها أنا نجحت في التغيير..

ألم تترجل على قدميك في أسواق المدينة وشوارعها؟

ألم تشاهد فرحة الغرباء في كل مكان؟

ألم تستمع إلى خارطة الطريق الّتي وضعتها لبلدنا الجديدة؟

ألم تستشعر العدل والحق فيما فعلت؟

--هل فعلت ذلك من أجل الناس أم من أجل انتقامك الشخصي؟

--عن أي شيء تتحدث؟

--اسمع يا ياقوت.. لقد عشت عمرًا طويلًا بعيدًا عن المشاكل..

أنفذ ما يتفق عليه العامة وأخضع لما يخضعون له.. لم أشذ عنهم يومًا

وإن سولت نفسي لي عكس ذلك.

--هذه سلبية يا عمي.. ومن هم مثلك كانوا سببًا رئيسيًا لما فعله الذئب فينا جميعًا.

--الناس لا يؤمنون في التغيير.. ربما لو قتلك الذئب غدًا لخروا له ساجدين.

كذب.. الغرباء في غاية السعادة.--

--لم يسعوا إليها.. الفرد لا يُغير العامة.. كان عليك توعيتهم وتعليمهم ومنحهم الفرصة للاختيار بين حريتك وشرائع الذئب.

--لا أفهم ما تريد يا شاهد.. هل كنت ترغب بالبقاء في العبودية؟

--أنت من قتلت شديد؟

--نعم.. فصلت رأسه عن جسده وألقيتها في مياه النهر الّذي ماتت فيه أمي وعد.

--أترى؟ أنت تنتقم ليس إلا.

--ولن أترك ذئبيًا ينعم بحياته.

--والناس؟ أولئك المخدوعون بحرية لن يهنئوا بها.. من أمرت بنفيهم في الغابات والأدغال.

وحطمت نظام حياتهم وأعمالهم وعلقتهم بوهم أنت صانعه ولم

يضعوه في خطتهم يومًا.

--سأدافع عنهم.

--بمن؟ بالبارون؟ عبيد الذهب.

--فلتكف عن تلك الترهات الآن ولتخلد إلى النوم.. لقد أمرت الخدم بتجهيز غرفة لك في جواري.. ومن الصباح ستتولى مهمتك رئيسًا للبارون.

--لن أقوى على فعل ذلك.

--ترفض مساعدتي؟

--سأعود إلى بيت أمك يا ولدي.. ليس لي مكانًا هنا.

همّ شاهد بالخروج وفتح الباب فأستوقفته :

--انتظر.

التفت لي بعينين يملأهما الدموع هامسًا:

--لا تجادل في مدينة الحمقى وكن أول المعتنقين للخرس.. لن يتركك الذئب وورثته.

وتركني في غضب لا يُضاهى.. عاد إلى القرية رغمًا عني.. أنه يُفضل العبودية عن الحرية.. أدرك أن الطريق إلى الحرية محفوف بالمخاطر ولكنني نجحت في تحقيقها حتى اللحظة.

تلقيث مع شروق الشمس رسالة في قدم الحمام الزاجل تفيد بتحركات قريبة لجيوش مارق على الحدود الشمالية للبلاد.

أُعلن النفير العام واستعدت قوات الجيش في أماكنها السرية الّتي خططت لها بجدارة.

خرجت والنبيل فهد في مقدمة حشد وحيد من البارون بلغ عدده عشرة آلاف من خيرة الجنود وبارونا في باحة المدينة مرورًا بالطريق الممهد وسط البنايات على جانبيه.. أصر ضرغام على مصاحبتنا والقتال معنا في الصفوف الأولى مُقسمًا على ذبح مارق جزاءًا له على ما فعله في لؤلؤة.. نظر فهد تجاهي وعينيه تمتليء بمشاعر متضاربة يكتمها.. تتصارع داخل صدره بين الحب والكره.. بين الرغبة في الانتقام والعفو.. كأنه يُحملني موت لؤلؤة.. لمحت تلك النظرات الحائرة فسألته:

--أتريد أن تُصارحني بشيء؟

--كلا.. هلمّ فالنصر لنا.

رُفعت الرايات البيضاء ترفرف عاليًا وأُطلقت صافرة الإنذار المُعلنة باقتراب قوات العدو من فرق الاستطلاع المنتشرة فوق الجبال.

تقدّم مارق والنبيل الأكبر الهارب حشود عشرات الملايين من البارون الأخضر.. صدق حدسي فقد توقعت أن يجمع الذئب كل طاقته ليهاجمنا.. لقد بات عرشه مهددًا بقوة وإن لم يُقض علينا فربما يفلت منه الزمام ويثور عليه غرباء مقاطعة مارق أيضًا وينضموا إلينا.

رُفعت السيوف الخضراء عالية وصيحات تتردد لترج الجبال من حولها:

--الغلبة للذئب.. الغلبة للذئب العظيم.

أضحت حرب ذئبستان الكبرى قاب قوسين أو أدنى.. سيلتحم الجمعان على مقربة ساعات على الأكثر كما رتب مارق.. ولكنه تعجب من خلو الحدود من الجنود بل وبداية الطريق الممهد المار في المدينة الشمالية كذلك كان خاليًا من الغرباء والبارون والورثة.. أهربنا؟

تسائل مارق متعجبًا.. لقد انقطعت مراقبتهم لنا بعد تحطيم عيون الذئب وقطع أسلاكها تحت الأرض في كل مكان في الشرق الأبيض.

لكن أعلنت قوات استطلاعه أن هناك فرقة من الجيش الأبيض تحتشد في منتصف الطريق..

أي بعد أربعين كيلومترًا.. صاح مارق:

--الغلبة للذئب العظيم.

ترددت الصيحات من خلفه فوق جيادهم وراءه في حماس وغضب ممتزجين.

ترددت أصوات صافرة الإنذار وتعالت كلما اقترب الحشدان على اللقاء..

من يتابع المشهد يتأكد أن الذئب سيغدو منتصرًا لا محالة فعدد البارون الأبيض ضئيل جدًا بالنسبة للأعداء.. وما أن اقترب مارق ورجاله.. وامتزجت صيحاتنا المتبارزة.

--اللعنة على الذئب.

--الغلبة للذئب العظيم.

حتى بدأت اللعبة الحربية الّتي جهزت لها باقتدار.. خرجت قوات الجيش الأبيض من جميع الشرفات للبنايات الواقعة طوال الطريق الممهد.. قوات تحمل سهامًا مارقة قاتلة تنتشر فوقهم بأعداد مهولة.. وباغتهم مجموعة أخرى من القوات التابعة لي كانوا مختبئين في بيوت الغرباء في القرى الواقعة في شمال البلاد على الشريط الحدودي.. ووقعت جيوش مارق بين مطرقة وسندان .

اقترب مارق مرتبكًا وفي جواره النبيل الأكبر.. ابتسمث مدركًا إنها لحظات النهاية.. سيُعلن الشرق الأبيض إمبراطورية حرة تضم جميع المقاطعات الذئبية وسينتهي الذئب وحكمه إلى الأبد.. مع أول رميات لتلك السهام سترتبك صفوف جيشه وتمتلئ البلاد بدماء الجيش الأخضر.

لكن الرماة لم يبدأوا في الهجوم.. شيء ما منعهم.. انتظرتُ بدء المعركة بضراوة دون جدوى.. صرخت:

--أبدأوا القتال.

صمت مريب لم أفهمه حتى نظرت خلفي.. كان جيشي الأبيض في ذلك الحين يرفع رايات ذئبستان الخضراء.. وبعدها رُفعت أعلام ذئبستان الخضراء فوق البيوت ونُكست أعلامي..

برقت عيناي ناظرًا إلى فهد المصدوم مثلي وصرخنا في آن واحد:

--خيانة.

صاح الجميع:

--الغلبة للذئب العظيم.

وصل مارق مبتمسًا يملؤه الزهو وسط جيشه وترجل من فوق جواده بعدما قيدني وفهد رجالي وانتزعوا سيوفنا.. بصق في وجهي:

--أنت ياقوت إذًا.

--اللعنة عليكم.. اللعنة على الذئب.

--الذئب لا يموت أيها الغريب.. وأنت يا فهد.. لقد سقطت في الفخ بعد طول سنين.

انظر خلفك.

أشار وقتها إلى الخلف.. فترجل السيد ضرغام من فوق جواده واقترب.. انحنى لمارق:

--مولاي.. فليحيا الذئب العظيم.

الشرق الأسود

«لن يُهزَم الشر إلا بالقوة ولا قوة إلا بعقلٍ وريثٍ، وقلبٍ عظيمٍ، وأربعين ليلة من الاغتراب»

عجائب الأمصار في ذئبستان

المؤلف:مجهول

انفجر بركان الخيانة وأُعلنت قيامتي وسط حمم من ذهول.. أحدهم يُمسك سكينًا حادًا ويشق به صدري.. هكذا أرى.. جثماني ممدد على طاولة من الحديد الصدأ.. رأيت أنفاسي تتعالى وكأنني ما زلت على قيد الحياة.. وآخر يمسك بناي والدي فارس ويعزف لحن الكونسرتار الحزين.. دخان كثيف يملأ المكان وألم لا يُضاهى يهاجمني بكل قوة.. نظرتُ حولي.. كنتُ في باحة مسرح ذئبستان الكبير.. لا تسعفني ذاكرتي، كيف جئتُ إلى هنا؟

استمعتُ إلى أصوات تهليل وصيحات أُناس دون أن أراهم.. اقتربت نحو ذلك الشخص الجالس بجوار جسدي على الطاولة.. لم أحدد ملامحه بعد.. ألقى سكينه جانبًا ومد يده ليفتح أضلاعي ويكسرها الواحد تلو الآخر.. آلام لا تُحتمل تتزايد.. صرختُ دون أن يلتفت لي أحد.. مد الرجل يده وانتزع قلبي من بين أوصاله بقسوة.

أراه ينبض في يده.. التف لي.. الآن أراه بوضوح تام.. إنه ضرغام.. مُعلمي الخائن.. لم أتوقع يومًا أن من علمني الحرية سيكون أول من يكفر بها.. على وجهه ابتسامة غدرٍ لم أتحملها وسط الأوجاع.. صرختُ في وجهه:

--أيها الخائن العجوز.

انتابته ضحكات هيستيرية ضاغطًا على قلبي النابض أكثر وأكثر فتزداد صرخاتي عاليًا بكل ما لدي من صوت.. أصوات الناس تتحول إلى عواء جماعي للذئب.. الدخان يزداد من حولي.. فجأة يظهر في جواره ذئب ضخم أسود اللون ينظر ناحيتي في غرور متناهي مكشرًا عن أنيابه يعوي.. وفي الجهة الأخرى يظهر دب أسود اللون هو الآخر يصدر قهقعته دون توقف.

قذف ضرغام قلبي بينهما فانقضوا عليه.. تعالت صرخاتي:

--اللعنة على الذئب والدب ومن اتبعهما.

تمزق قلبي بين أنيابهم المتصارعة لنهشه واندفعت دمائه في وجوههما.. نهضتُ حينها مفزوعًا.

نظرتُ حولي وقد اختفى كل شيء بغتة.. غرفة مظلمة حالكة السواد إلا من ضوء خافت يتسلل من شباك علوي بعيد بين أسلاك حديدية قبل بزوغ النهار بقليل.. شخص ما يقترب مني وأراه بالكاد.. هزيلًا كالهيكل العظمي.. جلس جواري مبتسمًا فسألته:

--أين أنا؟

--في غياهب السجن.. لقد أتوا بك في الصباح مغشيًا عليك.. يبدو أنك لم تتحمل سياطهم الموجعة.. أليس كذلك؟

أوجاع لا حصر لها في كل جسدي.. تلمست ظهري فزاد الألم.. تذكرت الآن.. لقد اقتادوني بأوامر من اللعين مارق إلى مخفر ذئبستان وتناوبوا على تعذيبي بكل الطرق حتى غبت عن الوعي..

تأوهت فضحك ذلك الشخص الهزيل:

--فلتحمد الله أنهم لم يحقنوك بدواء اليقظة.

تعجبت وسألته:

--أحمد من؟

--الله.. الله سبحانه وتعالى.

تلعثمت وكأن شيئًا ما قد ألجم لساني.

--من أنت؟

--أنا عظيم.. رجل يُعذب لأنه قال ربي الله.

--الله!

قلتها والحيرة تملؤني.. سألته بشغف:

--ما هي قصتك أيها الرجل؟

***

(صباح يوم تنصيب النبيل الأكبر)

أُعيد كل شيء تحت سيطرة الذئب من جديد.. واتشحت ذئبستان باللون الأسود دون تفرقة أو تقسيم.. وعلت الأعلام الخضراء ترفرف في كل مكان.

تأنق الورثة في أحسن الثياب فرحًا واستعدادًا لحفل تنصيب النبيل الأكبر الجديد (مارق)

من فاز بعد طول عناء ودهاء بالحرب الكبرى وفرض سيطرته الكاملة على ربوع البلاد..

مُحيت القرارات الأخيرة وأُعيد بناء تماثيل الذئب من الذهب في الميادين الكبرى ومداخل المصانع والقرى كما كان من قبل.. عُلقت صورته في البيوت والدواوين الملكية بأكملها..

وخرقت الأعلام البيضاء عن بكرة أبيها.. وهلل البارون في كل مكان:

--فليحيا الذئب العظيم.

أولئك من باعوا الذئب مُسبقًا كان من السهل شرائهم بأضعاف ما مُنحوا من الذهب..

ليعودوا مرة أخرى إلى خندق الذئب.. هجّروا نصف الغرباء من المقاطعة التاسعة نحو بيوت من فروا إلى الغابات والأدغال.. وأُعيد توزيع الغرباء على المقاطعات بعدد يضمن سير الأعمال بجدارة.. وبقت أزمة واحدة شلت تفكير مارق وزمرته.. نساء البارون!

أولئك من خرجوا والغرباء بأوامر من النبيل المهزوم.. ولكن مارق وجد لها حلًا دبلوماسيًا..

جهز رُسل من الغرباء نحو الغابات ليبلغوا الآخرين أن الذئب غفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وأن ذئبستان مفتوحة لهم ليعودوا في خلال شهر على الأكثر بشرط أن يعود أمامهم نساء البارون..

وكأنهن طوق النجاة من عذاب منقطع النظير.. وأشرف ضرغام بعد تعيينه النائب الأول لمارق على تلك الخطة.

عاد الغرباء يمشون على أربع من جديد مع تقليص مدة الانقطاع عن العمل لثلاثة أيام بعدها يُحوّل صاحبه إلى لجان الإعدام حرقًا لينظروا في أمره.. وأعيد غلق المستودعات وتشديد الحراسة عليها من جديد بعد إشاعة أن الذئب قد أخفى جنته خلف أسوار مستودعاته عن عيون أعدائه فظنوا أنها أراضي صحراوية جدباء.. صدق الناس وكأنهم قطعان خراف لا رأي لهم.

فُتحت أبواب معسكرات الفضيلة على مصراعيها وعاد العمل في داخلها على أشده مع إضافة شريعة جديدة خضعوا لها صاغرين:

"يمارس رجال الغرباء الفضيلة مع صبيانهم الفاضلين جنبًا إلى جنب نسائهم لمدة عشر سنوات إجباريًا لكل من تعدى العشرين من عمره"

انكفأ الرجال خانعين في بحور من الذل والهوان لا مثيل لها..

اختفى النبيل الأكبر السابق وعائلته قبل حفل التنصيب الجديد ولم يعثر لهم على أي أثر.

نُصبت عيون الذئب مجددًا لتحصي أنفاسهم.

تهيأت ذئبستان لفترة حالكة من تاريخها المعاصر.

وقف مارق في غرفته الجديدة في قصر النبيل الأكبر بعد أن جهزها له نائبه القديم (هجرس) بعد أن تم ترقيته إلى منصب رئيس البارون الذئبي.. نقل له متحف الانتصارات المارقية إلى مثواه الجديد.. مئات من الجثث المحفوظة في مادة الفورمالين.. كل منها تحمل ذكرى لا تُنسى.. ليالي من العشق غرق فيها مارق لأذنيه.

تفحص مارق تلك الوجوه الصامتة المذعورة في متحفه الزجاجي، يملؤه الزهو لما حققه.. لقد خطط لذلك طوال بضع وعشرين عامًا.. في أطول مهمة جاسوسية يعرفها التاريخ وأذكاها على الإطلاق.. فقد نجح ضرغام في اختراق قصر النبيل فهد بكل نجاح حتى صار أقرب أصدقائه.. صحيح أن فهد كان ماكرًا حتى فترة قريبة ولم يخبر ضرغام بمكان مناجم الذهب إلا مؤخرًا ولكنه سقط في النهاية.. خلع ثيابه مُقتربًا من فراشه ورائحة الورود المُعتقة تجتاح أنفه لتشعل نار الشهوة في جسده.. أزال ستارًا شفافًا ليكشف معشوقه الجديد بعدما مر بآلة المزاج بإشراف(هجرس) وزينوه بأروع الملابس النسائية وذهنت شفاهه بالأحمر وعينيه تحددت بالكحل وغمسوا جسده في مياه الورود وهيأوه لمارق.. ذلك الميت الجديد الذي طالما حلم به مارق.. النبيل فهد.

***

نهضت من مكاني في تلك الزنزانة المظلمة وترجلت ناحية ذلك الشباك العلوي حائرًا ثم نظرتُ إلى ذلك الرجل العجيب مرة أخرى وهو ينهي حديثه:

--قابلتُ أشخاصًا يرون في الجمال قبحًا يكفي سواد أنفسهم حتى تأذيت.

--أكل ذلك العذاب لتعترف بالذنب؟

--ولن أعترف به ما دمت حيًا.

--هل ما تؤمن به موجود حقًا؟

--الله هو الموجد لكل شيء.

--حدثني عنه يا...

--عظيم.

--أرجوك أريد أن أعرف كل شيء عنه.

اقتربت منه بشغف شديد.. فابتسم:

--الله مالك الكون بأكمله.. خلقنا ليختبرنا وأكرمنا بعقولنا لنختار بين الحق والباطل.. بين الفضيلة والرذيلة.

--انتظر.. الفضيلة والرذيلة مرادفان لبعضهما البعض.

--لا.. الفضيلة هي ميل ثابت إلى الخير .. أن تتبع الطريق المستقيم وتبلغ درجة رفيعة في حسن الخلق.

--هنا في ذئبستان يطلقونها على معنى آخر.

--أعرف.. سمعت الحراس يتحدثون عنها.. إنهم بارعون في تحريف المعنى الأصلي للأشياء.. المعنى الأصلي للكون بأكمله.. لكنك مهما كان لا بد أن تدرك الاختيار.. مهما طمسوا الحقائق..إن اخترت الحق في الدنيا يجازيك الله بجنة الآخرة وإن اخترت الباطل سيرسل إليك آلاف الرسائل لعلك تهتدي حتى تعود أو تصر على كفرك فتجازى بجحيم لا ينتهي.. كلٌ مُجازى جنةً أو جحيم.

--جنة المستودع؟

--أي مستودع؟

--هذه الجنة التي تقصد! هل رآها أحد؟

--يُقال أنه وصفها في كتبه التي أنزلها على بشر مثلنا من السابقين

--كتبه؟

--نعم.. قرأت عنها في كتاب الباحث عن الله.

جنة عرضها السموات والأرض فيها كل ما تشتهي الأنفس.. لا حزن فيها ولا ألم

سعادة.. فقط سعادة طاغية.

اغرورقت عيناي بالدموع.. أشعر بصدق حديثه.. تمنيت ذلك.. وكأنني وجدت ضالتي التي أبحث عنها طوال عمري.. سألته:

--هل يفرق الله بين البشر؟

--بالإيمان.. أن تؤمن بوحدانية الله .. لا فرق بين رجل وآخر غير بقدر إيمانه.

--والحرية؟

--كلنا عبيد الله ولكننا أحرار بكلماته ورعايته.

--هل رأيته؟ هل رآه أحد؟

--الله لا يُرى ولكنه في كل مكان.. هو أقرب إليك من حبل الوريد.

--ما الدليل على وجوده؟

فكر حينها عظيم قليلًا ثم أجابني:

--إن كل شيء في هذا العالم لا بد وأن يُدرك بحواسنا الخمس.. البصر,السمع,التذوق,اللمس,الشم.. أليس كذلك؟

--نعم.

--الألوان والأشكال تُدرك بالبصر و الأصوات والألحان بالسمع و الخشونة والحرارة باللمس وهكذا.

--صحيح.

--فكيف نثبت وجود الله ولم تدركه أي من حواسنا؟

--هذا ما يساورني الشك نحوه.

--لو أنني صنعت لك كرتين أحدهما من الحديد والأخرى من الخشب ودهنتهما بطلاء أسود هل تفرق بينهما بعينيك؟

--لا.

--بلسانك؟

--لا.

--بأنفك؟

--لا.

--بلمسهما.

--لا.

--أي أن حواسك عجزت عن معرفة أي الكرتين من الحديد؟

--أنا لا أفهم شيئًا.

--الآن احمل الكرتين بيديك فهل ستعرف؟

--أعتقد أن كرة الحديد ستكون أثقل بكثير من الخشب.

--من عرف ذلك؟

--أنا.

--كلا.. إنه هذا.. عقلك.

أشار ناحية رأسي بيدٍ مرتعشة.

--عقلك يعرف الله.. لقد فُطر على ذلك على الرغم أنك لم تره ولم تستشعره أنت بحواسك.

وربما يأتي اليوم الّذي نراه فيه رؤى العين ولكن هذا لم يحدث حتى اللحظة.

--الله هو خالق هذا الكون!

سالت دموعي.. ربت عظيم على يدي:

--يقولون أنك هنا أيضًا بسبب كفرك بذلك الذئب.. سمعت الحراس يهمسون بذلك وهم يرمونك هنا.. ألهذا الحد يحاربون الله في الخارج؟

--حدثني عنه أكثر وأكثر.

--عمن؟

--عن الله.

***

انطلق موكب النبيل الأكبر الجديد السيد مارق ليجوب أنحاء المقاطعة العاشرة فقد اختارها لعقد حفل تنصيبه فيها بعدما أصدر قرارات بتعيين نبلاء جدد من نفس عائلات القدماء المهزومين يدينون له بالولاء لتبدأ شريعة الحرب من جديد فلا سلام في ذئبستان وسيأتي يوم يتخلى فيه مارق عن النبالة الكبرى لمنتصر غيره دون مقاومة.

ترددت الزغاريد من نساء بارونه الأخضر المنتشرين في شوارع المدينة وتقدمته فرق طوافة فوق عربات يجرها الغرباء يعزفون موسيقى احتفالية بينما تأنق مارق في زيه الملكي الجديد ووشاحه الذهبي وتوسط رأسه تاج من الذهب الخالص فوق عربة يجرها بعض البارون المنتهية خدمتهم.. من حظوا بتلك الوظيفة الكبرى.. جر موكب النبيل الأكبر.. ياله من شرف كبير يسعى إليه الكثيرون.

دُقت الطبول ورفرفت أعلام ذئبستان.. أظهر الغرباء المهاجرين فرحتهم المُصطنعة الزائفة وصفقوا كالقرود راقصين.. مر أكثر من ثمانية أيام ولم تعد نساء البارون الأسيرات في الغابات ولا أحد من الغرباء الهاربين.. وحتى تلك الرسل التي أرسلها لم يعد منهم أحد.

فكر مارق في حل لتلك الأزمة وبالأخص أنه يستشعر الغضب المكتوم في صفوف بارون مقاطعة فهد والغيرة بينهم وبين بارونه.. ود لو وافق الذئب على تشريع خاص بالبارون أن يمارسوا الفضيلة مع بعضهم بعضًا إرضاءً لرغباتهم ولكنه أجل ذلك إلى بعد حفل التنصيب.

لو صدر ذلك التشريع حقًا سيظل أبد الدهر وعائلته في منصب النبالة الكبرى.. لأن زمّانة ميزان المقاطعات المتناحرة هم البارون وإن ضعفوا ضعفت.

ابتسم مارق فوق عربته في انتصار وشهوة.. للسلطة شهوة لا تُقارن.. من يتذوق حلاوتها مرة لا يسلاها ما دام حيًا.. وقف ضرغام نائبه الجديد بجواره.. ذلك الرجل الّذي حسم اللعبة لصالحه.. كم يحبه مارق ويكن له كل إحترام.. رفع ضرغام يده ليحيي الناس عبر الطريق من آن لأخر.

«الأخوة الذئبستانيون.. افرحوا وهللوا وارقصوا فاليوم نشهد حدثًا هو الأول من نوعه في ذئبستان.. تتويج النائب الأول للذئب.. ذلك المنتصر في حروب دامت لأكثر من مئتي عام..

كبير النبلاء السيد مارق.. ترونه في هذه اللحظات في موكبه الفخم.. يمر في شوارع المقاطعة العاشرة.. نحو المسرح الكبير.. فلتزغرد النساء وليُهلل الرجال فرحين.. فليطمئن الجميع على أمنه وأمانه الّذين منحهما لكم الذئب.. وبارك ولاية السيد مارق لرعايتكم وتنفيذ شرائعه.. سنكون معكم لحظة بلحظة في هذا اليوم السعيد.. إذاعة ذئبستان من العاشرة»

يتبع مارق آلاف من البارون منهمكين في عروض بارونية استعراضية نحو المسرح.

وهناك أُعيد بناء تمثال الذئب الكبير من الذهب.. توقف الموكب وترجل مارق في زهو شديد وسط هتافات الجميع:

--فليحيا مارق.. فليحيا الذئب العظيم.

***

(قبل ذلك بساعتين)

جهز جنود البارون تلك العربة الخاصة بنقل المساجين.. همس أحدهم لمن في جواره:

--لقد صدر أمرًا بإعدام ياقوت جلوسًا على الخازوق في باحة المسرح وسط احتفال التنصيب.

--ليشهد الجميع جزاء من يخرج عن شرائع الذئب.

قالها ضاحكًا مستهزئًا.

--لقد سمعت أنه يكفر بالدب أيضًا.

--ياله من مشاغب.. لقد أوشك على تدميرنا جميعًا.

--ومالنا نحن.. لقد اعتدنا على السمع والطاعة لقياداتنا.. وهم من يناولون الجزاء والعقاب أو الإشادة.

--والذهب؟

ضحكا بصوت جهوري.

--هلم لننته من مهمتنا سريعًا.

--علام التعجل؟ فنسائنا رحلوا إلى غير عودة.

--كلا.. لا بد أن نُسلمه إلى رئيس البارون الذئبي السيد هجرس في خلال ساعة.

--لا تقلق فبيننا وبينه عشر دقائق على أقصى تقدير.

--عندي موعد مع فتاة من الغرباء على أطراف الغابة.

--اليوم يا رجل؟

--الكل مشغول في حفل التنصيب.. آه لو رأيتها.. لشاركتني فيها على الفور.

تعالت ضحكاتهما في ذلك الممر الضيق نحو بناية السجناء.. صعدوا درجات سلم واتجهوا يمينًا.. قابلوا حارسًا على أحد الأبواب الحديدية:

--افتح.

--كلمة السر؟

--أسد.

همّ الحارس يفتح قفلًا على الباب.. تسائل أحدهما:

--ما معنى تلك الكلمة؟

--يقولون أنه حيوان منقرض.. فلتصمت قليلًا أيها الغرثار.

دخلا إلى غرفتنا المظلمة.. نظرا في كل مكان فيها.. بحثاً عنا دون جدوى.. لقد اختفيث وعظيم.. لم يعثرا على أي أثر لنا.. جن جنونهما.. أخرج أحدهما صافرة صغيرة كانت في جيبه وأطلق منها إنذارًا يعلن هروب استثنائي لسجين سيقلب ذئبستان رأسًا على عقب.. هروب ياقوت.

***

كنا نجري في شبكة مجاري ذئبستان فوق القاذورات والمياه الضحلة.. أكثر من ساعتين ونحن على هذا الحال مع ذلك الحارس العجيب الّذي اقتحم غرفتنا رافعًا ذلك الكرسي الحديدي الّذي نقضي عليه حاجتنا وطلب منا الهروب سريعًا دون نقاش.. لم نفكر ولو للحظة.. قفزنا ورائه واتخذنا طريقًا يعرفه هو:

--هلموا فمازال أمامنا ثمانى ساعات حتى نخرج من هنا.

توقف عظيم وأنفاسه متعالية فلم يعد قادرًا على العدو أكثر من ذلك..

--لماذا توقفت؟

--أنفاسي.. لا أستطيع.. اهرب أنت يا ياقوت.

--لن أتركك.

حملته فوق كتفي وجريت به.. اجتزنا مخارج كثيرة في تلك الشبكة الضخمة المتشعبة.. لولا ذلك الحارس لفُرض علينا التيه هنا بقية عمرنا.. أمسك في يده مصباح زجاجي في داخله شعلة من النيران المتجددة أضاءت لنا الطريق بالكاد.

تلك الجدران التي احتضنت أمي وعد منذ عقدين من الزمان هاربة من معسكر الفضيلة، ضحكت هامسًا بالاسم الحقيقي بمعناه لهذا المعسكر.. معسكر الرذيلة.. وددت لو يتوقف الزمن ويعود للوراء.. لو أنني أقابل وعد الآن.. تتحول هذه الروائح الكريهة من حولي رائحة المسك بمجرد تخيل رؤيتها هنا.. شردت.. أي الطرق سلكت أمي

العمياء في هروبها؟ لو رأيتها لمكثت هنا بقية عمري في رفقتها.. عجبًا! كيف يعشق المرء من لم يره ولو مرة واحدة في حياته؟ كل ذلك الحب في داخلي لامرآة لمستها الوحيدة لي وهي تنتزعني من أحشائها لتموت.

إنها مشيئة الله كما أخبرني عظيم.. ما عرفته في الساعات الماضية غير في نفسي كل شيء.. أزال غشاوة سميكة فوق عقلي وأضاء مصابيح من نور في قلبي.. لقد وجدت ضالتي.

إن كنت عبدًا لله فأنا سيد الأحرار.. هذا ما اهتديت إليه بعد كل ما حكاه لي عظيم.

وصلنا عند المخرج بعد طول عناء.. طلب منا الحارس القفز في مياه النهر أسفلنا.. قفزنا.. رفعتنا أجسادنا نحو السطح وسبحنا إلى الشاطيء.. ارتمينا على الصخور متلاحقة أنفاسنا.. السماء ممتلئة بالسحب عن آخرها والقمر يتخفى ورائها.. كان في انتظارنا رجل يقف تحت شجرة.. هرع إليه الحارس وانحنى له:

--تحت أمرك يا سيدي.

أشار إليه فابتعد.. اقترب الرجل منا.. وقفت في مكاني محاولًا رؤيته في هذا الظلام الشديد..

رأيته مبرق العينين.. أنه آخر رجل أتوقع منه ذلك.. السيد ضرغام الخائن اللدود.

لم أتمالك نفسي و انقضضت عليه أضربه بقوة فوقعنا على الأرض:

--انتظر يا ياقوت.. انتظر سأشرح لك.

تصارعنا ووقعنا في مياه النهر.. أمسكت برأسه وغطستها محاولًا قتله وسط صيحاته:

--أيها المعتوه.. اسمعني أولًا.

--لن أستمع إلى الخونة بعد اليوم.

--لقد أنقذتك.

--أنقذتني وأغرقت الشرق الأبيض.

--اسمعني.

--اسمعه يا ولدي.

قالها رجل آخر على الشاطيء.. أعرف ذلك الصوت جيدًا.. التفت فوجدت العم شاهد واقفًا يناديني:

--اسمعه يا ياقوت.

--العم شاهد!.. ما الذي يجري هنا؟

--دعني وسأشرح لك كل شيء.

تركته.. خرج من الماء وجلس على الشاطيء يلتقط أنفاسه.. خرجت وراءه والشك يفترس صدري.. نظر ناحيتي ضرغام وابتسم:

--مازلت طائشًا في ردود فعلك؟

--هات ما عندك.

نهض ضرغام وترجل ناحية الشجرة الخلفية.. أخرج من حقيبة

من القماش مجموعة أوراق قديمة يربطها حبل سميك.. اقترب مني وناولني إياها:

--ماهذا؟

--ذاك دليل براءتي من الخيانة.. عجائب الأمصار في ذئبستان.

نظرت ناحية تلك الأوراق متعجبًا.. إنه الكتاب الذي حكى لي عنه من قبل.. من أشرف جده على حرقه في السنين الأولى لنشأة ذئبستان.. ومن كان سببًا لمنع تداول الكتب وقصر التعليم على الورثة والبارون شفهيًا فقط.. أزلتُ ذلك الحبل وفتحت أول صفحاته.. مكتوب في منتصف الصفحة..

«لن يُهزَم الشر إلا بالقوة ولا قوة إلا بعقلٍ وريثٍ، وقلبٍ عظيمٍ، وأربعين ليلة من الاغتراب»

نظرتُ له مستفسرًا:

--ما معنى ذلك؟

--اجلس لتفهم.

--اسمع قصته يا بني.. قد سمعتها من قبلك وآمنت بها.

قالها شاهد.. وقف عظيم على مقربة منا يتابع ما يجري ولم يتدخل.. جلسنا على ضفاف النهر وسط الصقيع المتزايد بينما أشعل حارسه بعض الأخشاب للتدفئة وبدأ ضرغام في حكايته:

--لقد أخبرتك أن جدي قد حرق ذلك الكتاب وهذا ما حدث بالفعل ولكن بعد أن قام بنسخه بخط يده وأخفاه.. لنبدأ القصة من بدايتها..

في بداية نشأة ذئبستان كان الناس يمرون عبر سور ذئبستان العظيم معصوبي الأعين بعد موافقتهم على شرائع الذئب و خضوعهم لاختبارات الولاء والطاعة هروبًا من الخراب والدمار خارجها، وهناك أهدى أحدهم ذلك الكتاب لأحد الجنود.. عجائب الأمصار في ذئبستان.. كتاب مؤلفه مجهول يتحدث عن توقعات وأحداث ستحدث في مستقبل ذئبستان.. عن شرائع ستُفرض مع الوقت.. عن حرب كبرى ستدور بين لونين.. الأبيض والأسود.. هكذا جاء في الكتاب.. عن فوز قصير لنبيل شاذ وعن انتصار مستحق لشاب يافع يخرج من صفوف الورثة والغرباء معًا .. وأن أي محاولة لمنع ذلك لن تجدي أبدًا.. وما أن وصل ذلك الكتاب العجيب إلى بعض قيادات البارون حتى انقلبت ذئبستان وحُرقت كل الكتب ومُنع تداولها وقُصر التعليم شفهيًا في الورثة والبارون بينما حُرم منه الغرباء.. الغريب أن ذلك القرار الخاص بالكتب والتعليم ذُكر أيضًا في ذلك الكتاب.. الّذي عثرت على تلك النسخة منه في سرداب خفي في بيت جدي.. في البداية لم أصدق ما فيه.. ولكن مع الوقت تأكدت أن ما به حق وخاصة أنني عاصرت شريعة ممارسة الفضيلة بين الأبناء وأمهاتهن من الغرباء..انظر إلى هذه الصفحة.. فتح لي صفحة تتوسط الكتاب وأشار إلى جملة في منتصف الصفحة

««سيأتي زمان تمارس فيه النساء الفضيلة مع أولادهن بمباركة القانون وبأمره ومن أول رحم جبري يولد الخلاص»

نعم جئت المقاطعة العاشرة بخطة للتجسس لا أنكر ذلك.. وعشت في جوار فهد كالذئب أنتظر لحظة افتراسه.. اخترت بيت الحمام لأعيش فيه وأكون قريبًا من الحمام الزاجل لأرسل معه رسائلي

إلى مارق بسهولة ويسر دون أن يشك فيّ أحد.. كان عليّ توطيد علاقاتي بكل من في القصر من قادة وأعضاء للمجلس الباروني للحكم في المقاطعة.. وتتبع أماكن مناجم الذهب السرية الّتي لم يخبرني فهد بها إلا مؤخرًا قبل عام من الآن.. خطة طويلة الأمد..

ولكن كان في داخلي صوت آخر يناديني بالثورة على ذلك الخط الّذي رسمه لي مارق.. صوت خافت يكفر بالذئب وشرائعه.. صوت يعتنق تلك الحرية الّتي تنبأ بها ذلك الكتاب الّذي دفنته هنا في الغابة منذ ثلاثين عامًا أثناء رحلة تجسسي الأولى في مقاطعتكم خوفًا من العقاب..

ولذلك حرصت على تنشئتك كافرًا بالذئب مؤمنًا بالحرية.. ربما لأرضي ذلك الصوت الخافت في داخلي.. وساعدني على ذلك رغبة فهد في الانقلاب على الذئب لتحقيق الوعد الّذي قطعه لزوجته فيروز على فراش الموت.. حكيت لك قصصًا عديدة تفي بالغرض.. لم أدرك حينها أنك المقصود بتلك الثورة.. للحق توقعت أن فهد سيفشل في مسعاه.. وأن مارق سينجح تبعًا لما ذكره الكتاب.. وبقى سؤال حيرني كثيرًا: كيف يأتي ذلك الشاب المنتصر من الورثة والغرباء معًا؟ حتى أدركت أن القدر منحني دورًا في هذا الحلم البعيد.. الحرية.

--أي دور؟

--أنت.. ذلك الشاب الّذي ربيته على مباديء الثورة والحرية من الورثة أكتشف أنه من الغرباء.. انظر إلى تلك الجملة.

فتح صفحة أخرى وقرأها لي: «ومن أول رحم جبري يولد

الخلاص»

لقد كانت أمك وعد أول الأمهات التي تمارس الفضيلة مع ابنها.. وأنت أول طفل يولد ويولد معك الخلاص.

قاطعته:

--الرذيلة لا الفضيلة.

--ماذا؟

--هذه قصة أخرى.. فلتكمل.

تنهد ضرغام وأكمل قصته:

--ظل فهد محتفظًا بسر مناجم الذهب طويلًا حتى أخبرني في جلسة صفاء.. بعد شفائه من مرض لازمه لفترة وجعله يتوقع الموت في أي لحظة فلم يجد غيري في حمل سره.. تشاجرت معه وقتها ليعلن أنك المُختار لتولي النبالة من بعده ولكنك جمعت لعنات الذئب علانية فلم يستطع ذلك.. ذلك الصراع الدائر في نفسي مزقني.. فهربت في الغابات أبحث عن حريتي لمدة قاربت على عام وهناك تنسمت نسائم الحرية.. وقابلت أولئك الغرباء القلائل الهاربين من نيران الذئب.. من أقنعتهم أنت بالهروب من حكم الإعدام حرقًا وبمرور الوقت بينهم أدركت أن الحرية لن تُمنح إنما يقتنصها من يحلم بها ولن يحلم بها سوى الغرباء.

--لماذا خنتني يا ضرغام؟

--لم أخنك.. عندما عدت من تلك العزلة أرسلت إلى مارق كل

المعلومات الّتي تمكنه من الفوز.. لقد نفذت ما جاء في الكتاب.. كان لابد وأن يفوز مارق ويلوذ بالنبالة الكبرى..

فلأفعلها بيدي دون انتظار.. وما فعلته أنت وفهد من حرية لم تكن لتنجح إلا بعد انتصار مارق.. وها قد انتصر.. وصرت نائبًا له.. مُتحكمًا في مفاصل الدولة.. جديرًا بثقته..

وأوجدت لك طريقًا للهروب قبل أن تصل يديه إليك بعد إقناعه أن إعدامك على رؤوس الأشهاد في حفل التنصيب هو القرار الصائب.. لو كان الأمر بيده لكنت الآن ميتًا على فراش مارق كما فعل مع فهد.

--مات فهد!

--لا مجال للحزن هنا يا بني.

--قتلت صديق عمرك وتريدني أن أثق في قصتك؟

--أنت مسئول عن إنقاذ ذلك الوطن ومنحه الحرية.

--أي حرية تُمنح إلى قطيع يحرسه عبيد الذهب؟

--فليذهب البارون إلى الجحيم.. لا ثورة ستنجح بهم.

--كيف إذًا؟

--لقد منعت وصول رُسل مارق إلى الغرباء الّذين أمرت أنت بتهجيرهم إلى الغابات والأدغال..

مازالوا يعتقدون بأنك تحارب من أجلهم وتبعدهم عن الخطر.. ما يدور الآن في ذئبستان لا يصل إليهم.

--وما الفائدة؟ بمن نحارب؟

--بالغرباء.

قالها العم شاهد واقترب مني ووقف مواجهًا لي:

--الغرباء يا بني.. الحرية ينتزعها الجمع المحروم منها ولا يمنحها فرد.

--الغرباء!

قلتها شاردًا.. اقترب مني ضرغام وربت على كتفي:

--اسمع يا ياقوت.. ما أعرفه هو أنك ستنتصر.. لكن الكتاب لم يوضح الكيفية نحو ذلك، غير هذه الجملة التي عجزت عن تفسيرها:

«»لن يُهزَم الشر إلا بالقوة ولا قوة إلا بعقلٍ وريثٍ، وقلبٍ عظيمٍ، وأربعين ليلة من الاغتراب»

أيمكن أن يكون هذا الكتاب حقيقيًا؟ أنه بين يديّ وقد أثبت عبر مئتي عام صدق ما جاء فيه.. تحسست بيدي أوراقه شاردًا.. لاحظت للتو معنى قد يكون تفسيرًا لتلك الجملة.. نظرت ناحية عظيم وهمست:

--عظيم!

لاحقني ضرغام مشاورًا نحو عظيم:

--لهذا السبب أصدرت أوامري بوضعك في نفس المحبس مع عظيم.. لعلك تجد تفسيرًا.

--كم مضى من أيام منذ أصدرنا الأوامر بتهجير الغرباء؟

--اثنا عشر يومًا.

--لم يتبق أمامنا غير ثمانى وعشرين ليلة.

اقترب الجميع مني غير فاهمين.. تنهدت ممسكًا بذلك الكتاب ضاغطًا على أوراقه والشك يراودني

--سننتصر.

الشرق الأبيض

"سيطغي اللون الأسود على كل الآفاق حتى تخرج بقعة بيضاء يتيمة وتنتشر في سرعة طاغية ليفنى غيرها أبد الدهر»

عجائب الأمصار في ذئبستان

المؤلف:مجهول

ركبتُ جوادي الجديد بعدما بدّلتُ ملابسي بزي ملكي جهزه لي ضرغام.. انطلقتُ في صحبة العم شاهد وصديقي الموخد السيد عظيم على جوادين نحو الأدغال العميقة.. بينما عاد ضرغام إلى موقعه في جوار مارق واتفقنا على التواصل عبر الحمام الزاجل في حالة الضرورة القصوى.

مع شروق الشمس وصلنا إلى أول حشد من الغرباء المتناثرين تحت الأشجار الكثيفة المتعانقة.

هللوا مُحتفلين بي فقد أرسل إليهم ضرغام حراسه المخلصين ليبشرهم بقدومي.. قرابة الأربعمائة مليون غريب وغريبة على طول مساحة الغابات الشاسعة.. درستُ تلك المساحة جيدًا قبل اتخاذ ذلك القرار مُسبقًا وأيقنتُ أنها تكفيهم وتزيد بل وتكفي كل غرباء ذئبستان لو أرادوا ذلك.. فالغابات تشغل أكثر من نصف مساحة البلاد.

-ياقوت.. ياقوت.. فليحيا القائد العظيم.

مهمة شاقة وُضعت على عاتقي.. أن أخرج بهؤلاء من الظلمات إلى النور.. أصبحت مرشدهم الوحيد.. عليّ أن أنفذ ذلك في وقت

قياسي.. الحرب بالغرباء هو طوق النجاة.. على المسلوبة حريتهم أن يقاتلوا بأنفسهم ولكن بعد أن تمتلئ نفوسهم بالرغبة في انتزاعها بقوة من بين أنياب الذئب اللعين.

بدأت تنفيذ خطتي في دقة متناهية.. تولى العم شاهد التدريب القاسي لبعض الغرباء على فنون الحرب من مبارزة بالسيف استغرق خمسة أيام دون كلل أو ملل.. ثم أطلقنا هؤلاء ليدربوا الباقين واضعين في الاعتبار الوقت الذي سيتغرقونه سفرًا حتى آخر نقطة لغربائي.. كان ضرغام قد أرسل ملايين من السيوف قد صنعها خصيصًا خلال فترة بزوغ شمس الشرق الأبيض القليلة وبقيت في صناديقها حتى جاء وقتها.

أكرمث نساء البارون المتعجبات مما يحدث وامتنعث عن إجابة أي من تساؤلاتهن الكثيرة.

شيء واحد تناقله الجميع.. خارج الغابات خرابٌ لا يُحتمل.. وبيدنا نحن سنحارب الخراب في ميعادٍ قريب.. حددث ساعة الصفر مع أولئك المتدربين.. مع شروق شمس اليوم الأربعين ستنطلق جحافلنا نحو كافة أرجاء مقاطعات ذئبستان.. وخلال تلك الفترة استطعث التواصل عبر عيون ضرغام المخلصين مع غرباء المقاطعة التاسعة الّذين أُعيد توزيعهم على ذئبستان بأكملها وبعيدًا عن عيون الذئب انضموا إلى ثورتنا المُحتملة.. فقد نجح ضرغام خلال فترة كبيرة في استقطاب بعض البارون إلى خندقه ممن يكنون البغض والحقد للذئب ويتمنون زوال مُلكه ووثقوا فيه ثقة عمياء حتى بعد أن أمرهم بخيانتي خلال الحرب الفائتة كانوا يدركون أنه يرى

الصواب.. أقنعهم ضرغام بأنها هزيمة مؤقتة وأطلعهم على كتاب عجائب الأمصار في ذئبستان.. فآمنوا بما جاء فيه.

صاحبث عظيم في رحلة التبشير عن الله ووحدانيته.. هكذا طلبث منه.. أن يؤمن الغرباء بالله.. كان يقف وسط الحشود ويحكي وكنت في جواره لا أسلى حكاياته.. سحر يتغلغل في الأنفس بسهولة ويسر وتتلقفه قلوبنا كظمأى أهلكنا العطش فنرتوي عن أخرنا بغتة.. نور يجتاح ظلماتنا دون أدنى مقاومة.. وكأن عظيم رسول الحق إلينا فاتبعنا ما دعانا إليه.. وفي كل مرة ينهي فيها خطبته نهلل كما علمنا:

--الله أكبر.. الله أكبر.

هتافات رجت الغابات وأدغالها لأول مرة على هذه البقعة التي طالما حاوطها الدنس.

حتى نساء البارون قد آمن معنا وانضممن إلينا ناسين أزواجهن.

تدريبات شاقة لأيام لم نذق فيها طعمًا للنوم.. كنت أشاهد الغرباء شيوخًا وصبيةً وشبابًا ونساءً يتهافتون على المبارزة بالسيوف وجنة الحرية الّتي تذوقوا حلاوتها تلوح في الأفق وبالأخص بعد أن صارحتهم بأن جيوش مارق قد سيطرت على ذئبستان وأنهم فقط المسئولين عن حريتهم تحت قيادتي.. بذلوا كل ما في وسعهم وكأن عيونهم تصرخ عاليًا:

--لن نتنازل عن حريتنا وإن كان موتنا هو الثمن.

أهؤلاء من قهرهم الذئب لقرنين من الزمان؟ أهؤلاء من قُطعت بهاريزهم وهُتكت أعراضهم ونُكحت نسائهم غصبًا تحت لواء

مصلحة الوطن؟ أيحطمون كل قيود الذل والمهانة ويسعون نحو حريتهم التي تنسموا عبقها هنا في هذه الغابات؟ أم أنهم اكتشفوا الحقيقة.. الذئب وهمٌ مصنوع.. الله هو مالك الكون بمن فيه.. ذلك الإله العظيم, من تنحني له الرؤوس لتعلو في حرية حتى من كفروا به تُفتح لهم أبواب الدنيا ويُؤجل عقابهم إلى الآخرة.

انتشرت دعوة عظيم للإيمان بالخالق الواحد كالنار في الهشيم.. في غضون أيام كان التوحيد قوة جبارة في قلوبنا أجمعين.

لأول مرة منذ فترة أرى القمر يملأ السماء بالضياء واختفت السحب تمامًا.. استرجعتُ ما مررتُ به في حياتي القصيرة.. حب لؤلؤة وموتها الشنيع.. اكتشافي نسبي من الغرباء ودخولي جحيم الذئب الزائف من أوسع الأبواب.. موت أمي وأبي بتلك الطريقة.. وقلبي الممتليء بالحزن عن آخره.. اغرورقت عيناي بالدموع متماسكًا.. فقد عُلقت مصائر الملايين في رقبتي.

طوال هذه الفترة لم يصلني من ضرغام أي رسالة.. ومن ناحيتي أرسلت له موعد ساعة الصفر من جملة واحدة:

--الليلة الأربعين من الاغتراب.

جلستُ وعظيم عند جدول جانبي للماء قبل شروق شمس اليوم الثلاثين وجهز لنا العم شاهد كوبين خشبيين من عصير التوت الساخن المشروب الرسمي لنا هذه الأيام مع ما تبقى من لحوم الغزلان المشوية.

تدثرنا بفراء دب سويًا وارتشفنا ثلاثتنا وسط سكون النائمين

صامتين حتى قطعتُ صمتنا:

--أتعتقدون أننا سننتصر؟

--جنود الله معنا.

قالها عظيم ناظرًا نحو الأفق..

--جنود الله!

--لله جنودٌ لن تراها تقاتل المستحيل من أجلك وتغير ما لم تتخيل حدوثه يومًا ما.. جنود القدر. --جنود القدر.

كان العم شاهد شاردًا وكأنه ليس معنا ولا يسمعنا.. لاحظتُ ذلك فربتُ على كتفه.. تنهد والدموع تملأ عينيه هامسًا متسائلًا:

--هل عشق أحدكما روحًا من قبل؟

--روح!

--أنا عشقتُ وسافرتُ إلى مدينة دفئها وارتويتُ من نهر عينيها المتدفقتين وتدثرتُ بأحضان شفتيها البعيدتين دون توقف.. عشقتُ روحها ومع ذلك بقيت أجسادنا متنافرة.. لم أتجرأ على البوح لها بأي شيء.

--لقد تآكل قلبك من الغرام أيها العجوز.

قلتها مربتًا بيدي فوق يده في حنان.

--لم أحب أحدًا في حياتي كما أحببتها.

ابتسمتُ له وقد فهمت ما قصد.. أشار لي بالإيجاب مُبتسمًا:

--وعد كانت ملاذي من حبٍ فقدته بسبب الذئب.. لطالما ألقيت بهمومي وأحزاني

في أحضان عينيها.. تحرك قلبي نحوها.. عشقتها لدرجة الجنون.. ربما أكثر من حبي الأول..

وكأنني كُتب عليّ الحب المستحيل.. لا يمكن للبارون عشق الغرباء أو الاقتراب منهم..

الغرباء عبيد الذئب وملكًا حصريًا للورثة.. قهرتْ مشاعري.. حاولت إخفائها عنها..

وأعتقد أنني نجحت في ذلك.. ولكنني لم أنسها يومًا.

ربتْ على كتفه ثم احتضنته.. سالت دموعه مُتنهدًا.. نظرتْ لعظيم المبتسم دائمًا على الرغم من مآسيه الّتي قصّ لي عنها مُسبقًا.. فتحدث بحكمة كعادته:

--العشق موت بلا بعث،والفراق حياة بلا روح.. وبين هذا وذاك يكون التيه.

سألته:

--وأنت أيها الضحوك؟

--أنا ماذا؟

--ألا تخفي سرًا داخل قلبك؟

--إن قلبي يهوى الحياة بكل قبحها ويريد الآخرة بكل جمالها.

--ألم تعشق من قبل؟

--عشقت زوجتي.. وابني حلم.. ووالدي العجوز وتمنيت العيش معهم في أمان تحت شمس الله دون حروب أو دماء مهدرة.

--أين هم الآن؟

--لا أعرف.. لقد غبث في غياهب السجون لأكثر من خمسة وعشرين عامًا..

حينما قُبض عليّ، وفشلوا في معرفة ما يريدون رغم المبالغة في تعذيبي..

رموني في معتقلٍ بعيد وبحثوا عن أهلي ليصلوا إلى مرادهم ولكنهم فشلوا.. لقد فر والدي

وابني وزوجتي بعيدًا عن أعينهم.. ولكن حينما جاءوا بي إلى مخفر ذئبستان.. أخبرني

السيد مندوه رئيس بارونه أن ابني حلم مُعتقل مثلي وأن خروجنا مرهونٌ بالاعتراف بالذنب.

--أحقًا أنت الوريث الأخير لذلك الكتاب (الباحث عن الله)؟

--لا.. كنت مجرد حاملًا للكتاب.. سيأتي بعدي وريث آخر.. هكذا أخبرني جدي.

--لم تحك لي هذه القصة من قبل.

--في زمان جدي بدأت الحكومات تضيق الخناق على الموحدين بشدة.. وصمونا بكل عنف

وإرهاب مختلق في العالم.. هذا بعد اختفاء الكتب السماوية والأديان بزمان لم يحصه أحد.

--تقصد العالم الممتلئ بالخراب خارج ذئبستان؟

--لم أفهم حتى الآن أين ذئبستان من بلادي.

--كيف ضيقوا الخناق عليكم؟

--اضطهاد عرقي بامتياز.. بعد القضاء على الأديان بزمان ظل الموحدون يتوارثون عقيدتهم هكذا شفهيًا.. بيد أنهم اعتقدوا في نجاحهم في القضاء علينا ولكنهم اكتشفوا العكس فصرنا مطاردين مشبوهين كاللصوص والمجرمين.. ذلك الإيمان المجرد لله لم ينطفىء رغمًا عنهم.

كان جدي عالمًا عتيدًا قضى عمره في تأليف كتاب الباحث عن الله من الحكايات المتواترة وغيرها ممن تبقى.. وبدأت الناس تتداولها.. حتى اكتشف الطغاة وجود الكتاب.. فأحرقوا كل ما وجدوه ونبشوا نحو مصدره.. حينها خبأ جدي نسخته الوحيدة في مكان أمين وأورث أبي مكانه.. وأبي بدوره أورثه لي.. وطوال هذه المدة كنا ننتقل من حي إلى حي.. من معسكر إلى معسكر.. فقد صنعوا في الموحدين ما فُعل في اليهود الألمان منذ زمن بعيد.. أغلقوا علينا المدن الصغيرة وحرمونا من الاختلاط بالغير.

--اليهود؟

--هذه قصة أطول سوف أقصها لك في وقت آخر.

--وكيف عرفوا أن تلك النسخة الأخيرة معكم؟

--والدي.. أخذ على عاتقه نشر ما جاء في الكتاب من جديد.. في المقاهي والمجالس المتعددة

حتى أنه كون جماعة المدافعين عن التوحيد.. جماعة سرية كانت مهمتهم نشر التوحيد أكثر وأكثر والدفاع عن وحدانية الله.

أضحوا يكتبون (الله أكبر) على الجدران في كل مكان وشكلت الكلمة شبحًا جن جنون البغاة بسببها حتى رصدوا الجماعة ومكونها وهجموا على بيتنا في المدينة.. وقتها قُبض عليّ وتمكن أبي من الفرار بابني وزوجتي والكتاب.. لقد افتديتهم.. كان عليّ مشاغلتهم عنهم حتى أمنحهم وقتًا كافيًا للفرار.. ولا أعلم أي شيء بعد ذلك.

--يبدو أن الذئب في كل مكان في العالم.

--لا.. كانوا ملاحدة لا يؤمنون بوجود إله.

--وأنت؟ هل مازلت تحفظ بعض ما جاء في هذا الكتاب؟

--القليل.

--علينا إذًا بالبحث عنه وعن ولدك.

--حلم.

--أعدك بالبحث عن حلمك فور الانتصار على الذئب.

مرت الليالي كسابقتها.. وشعلات الحماس تتأجج في داخل نفوسنا.. تدريبات لا تنقطع وقوة قتالية تزداد رغم استحالة ذلك نظريًا.. حتى وصلت الرسالة الوحيدة من السيد ضرغام قبل ساعة

الصفر بساعات:

"مارق سيحرق الغابات"

حاول ضرغام بكل ما أوتي من قوة ومراوغة خداع مارق بشأن رُسله المختفيين من الغرباء.. ولا نساء تعود من البارون.. كذلك لم يقو مارق على فرض شريعة جديدة لممارسة الفضيلة بين بعضهم البعض.. لقد رفضها الذئب.. في غرفة التحكم الكبيرة الّتي ينكشف فيها كل أرجاء تلك المقاطعة الواقع فيها القصر الحاكم شاشة كبيرة يجلس أمامها النبيل الأكبر حينما يريد أن يُحادث الذئب الكبير.. يضغط زرًا صغيرًا وينتظر حتى يظهر ضوء ساطع يملأ الشاشة ثم يتحدث فيما يريد.. يسمعه الذئب واقتراحاته دون أن يراه أو يستمع إلى صوته ثم ينطفيء الضوء وينتظر قرارات الذئب في غضون أيام تُرسل إليه مكتوبة ومختومة بختمه الكبير.. لا يعرف كيف تصل إلى مكتبه ولكنه يعرف أن الذئب في كل مكان.

حذر ضرغام مارق من حرق الغابات لأنها شريان الحياة بالنسبة لذئبستان وحرقها قد يطول مدنهم وقراهم وتحترق البلاد عن بكرة أبيها.. رفض مارق وأصر على فعل ذلك دون الرجوع للذئب.. بات تحرير البلاد أمرًا حتميًا لا رجوع فيه.. الوطن في خطر.

وقف مارق في شرفة القصر الحاكم وألقى خطبته الاستثنائية على حشود من البارون الذئبي.. من كلفهم بتنفيذ أوامر الحرق تلك:

--لقد خرج هؤلاء الغرباء عن طوع الذئب.. ضربوا بشرائعه عرض الحائط وأطاعوا دبهم.. ولهذا فقد حكمث عليهم بالموت حرقًا.. احرقوهم أجمعين.

--فليحيا الذئب العظيم.

بُلغ الجميع بميعاد ساعة الصفر.. وأوشكت خطتي على التنفيذ وتمنيت لها النجاح هذه المرة.. أثق بأن الخيانة مستبعدة تمامًا.. فالجميع يبحث عن حريته.

تقدمتْ جيشي من الغرباء وطلبنا من النساء الخروج معنا في الصفوف الخلفية خوفًا من تنفيذ تهديدات مارق بالحرق.. فلم تعد الأدغال مكانًا آمنًا.

لازمني عظيم المصر على القتال على الرغم من ضعف جسده.. وكذلك العم شاهد..

نظرتُ خلفي والزهو يملؤني.. تلك الجحافل ستدك ذئبستان على رأس الورثة والبارون.. صحتُ عاليًا:

--الله أكبر.. الله أكبر

ورددوا خلفي.

--الله أكبر.

تحركت الجيوش في آن واحد تهاجم كل المقاطعات وتحرك غرباء القرى معنا من الجهة الأخرى لنشكل هجوم مفاجيء من جبهتين ظنوا ضعفهما.. ولكن جحافلنا اقتربت من سبعمائة مليون كطوفان لم يوقفه البارون.. التحمت جموعنا وظيرت رؤوس البارون المرتبكين وصيحاتنا تبلغ عنان السماء:

--الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

مات منا الكثير.. لم أعثر على عظيم أو شاهد وسط المعركة ولم يكن هناك وقتًا للتوقف والبحث.. شحقت جموع البارون بعد اختراقها بنجاح.. وامتلأت شوارع المقاطعات بدمائهم.. وأضحت البلاد ممتلئة بالجثث المتناثرة والرؤوس المنحورة والدماء تخضب أرجل الثوار الحقيقيين.. في غضون خمس ساعات من القتال أحكمت سيطرتنا على المقاطعات بأكملها بمن فيها من مستودعات وقصور النبيل الأكبر.. تقدمتُ بعدها بجيشي نحو الحرس الذئبي المحاوط للقصر الّذي أخبرني ضرغام بأن مارق يمكث فيه.. وبعد اشتباكات عنيفة اقتحمنا القصر.. دخلتُ شاهرًا سيفي والصيحات من حولي:

--الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

بحثتُ عنه حتى وجدته واقفًا وسط متحفه القذر شاهرًا سيفه مواجهًا لي.. أشرت إلى جنودي من الغرباء:

--اتركوني وحدي.

--مرحبًا أيها العبد.

قالها مارق في تحدٍ شديد.

--هذا العبد سيرسلك للجحيم.

وتبارزنا في صراع شديد.. انكسرت خلاله تلك الصناديق الزجاجية ووقعت محتوياتها من جثث محفوظة.. كان بارعًا على الرغم من ذراعه الذهبية تلك الّتي لا يحركها.. وقعت على الأرض فوق جثة أحدهم.. لمحتها سريعًا.. أنها جثة فهد.. رفع مارق سيفه ليُطير

رقبتي فبادرته بسيفي ليخترق بطنه.. ثم سحبته ودبته في قلبه فسقط ميتًا في الحال لتمتزج دمائه النجسة بجثث ضحاياه.

تنفست الصعداء.. لقد انتصرت.. خرجت مترجلًا نحو الشرفة فرأيت الحشود على مدى البصر ينظرون لي.. رفعت سيفي عاليًا مهللًا:

--الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

رُفعت أعلام الشرق الأبيض إلى الأبد.. انتشرت نسائم الحرية في كل مكان.

التفت جانبًا ورأيته أخيرًا.. الرجل الخفي وراء تلك الأحداث.. المُعلم ضرغام.. وقف في جواري رافعًا يده تحيةً للحشود أسفل الشرفة.. وجهت سيفي نحوه.. رفعته تحت رقبته والشك يتطاير من عينيّ.. وحاوطنا جنودي من الغرباء شاهرين سيوفهم أيضًا في وجهه كما رتبت.. برقت عيناه مُحتجًا:

--بعد كل ما فعلت لأجلك.

--مكانك أيها العجوز الماكر.

التجربة

(اليوم التالي للنصر)

"إنه في العام السابع والعشرين بعد المائتين من نشأة ذئبستان هُزم الذئب على أرضه ورُفعت رايات الشرق الأبيض وباتت الحرية شريعة الجميع والتوحيد عقيدة"

كُتب أول سطر في التاريخ المعاصر لدولة (عدلستان-الشرق الأبيض) هكذا أطلقت عليها..

تاريخٌ لم أتوقعه يومًا ليس فقط لانتصار الغرباء على الورثة والبارون بكل قوتهم وعتادهم ولكن لما تكنه نفسي بما لم أفصح به لأحد من قبل.. إن الثورة لم تنته بعد.. مازال أمامنا ما هو أصعب.

احتفل الناس في الشوارع منتصرين وبدأوا ينظفون الطرقات والميادين من جثث القتلى ودمائهم ويدفنونهم خلف أبواب المستودعات الّتي أمرت بتحويلها لمقابر يُدفن فيها الموتى تحت الثرى كما علمني ضرغام.

منحث الأمان لمن تبقى من البارون وكل الورثة على أن تسري عليهم كل القرارات التي اتخذتها تمهيدًا للعدل بين الناس وبعضهم البعض.. أُعلنت في إذاعة عدلستان:

١-يُعلن التوحيد عقيدة رسمية للبلاد.

٢-تُحول معسكرات الرذيلة إلى مصانع ومحطات للكهرباء.

٣-الناس سواسية في عدلستان لا فرق بين ورثة وغرباء وبارون

وتُلغى كل الامتيازات الممنوحة سابقًا لأي طرف أي كان.

٤-يُعمم التعليم على الجميع وتُحول قصور الورثة إلى مدارس يتلقى فيها الجميع التعليم مهما كان سنه.

٥-للجميع الحق في الاشتراك في الحياة السياسية وتخضع كل الوظائف للانتخاب العام المباشر.

٦-يُعاد تشكيل جيش قوي (بارون وطني) من الغرباء فقط.

٧-يُحال من تبقى من البارون الماضيين إلى التقاعد ويُعاد توزيع الجميع في بنايات المدن وبيوت القرى طبقًا لمكان عملهم الجديد.

هتافات وتهليل في كل الأرجاء.. لقد نالوا حريتهم أخيرًا بأيديهم دون رجعة.. شحق الذئب إلى الأبد.

رأيت الفرحة في وجوههم المتشققة الّتي طالما تحملت ما لا يطيقه بشر.. و أشفقت عليهم مما كتبه القدر.. لقد مات عظيم في الاشتباكات شهيدًا.. عثروا على جثته مطعونًا بسيف في بطنه وحملوه إلى قصر الحكم لأنظر في أمره.. وضعوه على طاولة في باحة القصر.. اقتربت منه ووجدته مبتسمًا وكأنه نال ما أراد بعد طول عذاب.. كم تمنيت أن ينعم معهم بفرحة النصر!

كم تمنيت أن يرافقني فيما هو قادم!

سقطت دموعي وأنا أربث على وجهه.. مُتذكرًا آخر كلماته لي:

-إن الله يعطي الدنيا لمن أحبّ وكره لكن لا يعطي الهداية إلا لمن أحب.

قبلت وجنته هامسًا:

--الوداع.

ربت العم شاهد على كتفي.. نظرت إليه ثم احتضنته باكيًا:

--لم يعد لي غيرك يا عمي.

وحدة موحشة شعرت بها.. لقد مات أغلب من تعلق بهم قلبي.. أأنا لعنة تقتل كل من يقترب مني؟

--لن أتركك أبدًا.

ابتسم لي في حنان منقطع النظير.. أمرت بتجهيز جنازة مهيبة نخرج فيها جميعًا في اليوم التالي نودعه إلى المقابر.

غطيت جثته وتنهدت.. ترجلت إلى الطابق العلوي وشاهد يتابعني.. امتلأت عيناي بالانتقام والثأر.. وقفت في الممر العلوي أنظر نحو غرفة التحكم الكبرى الممتلئة بشاشات العرض الموصلة بعيون الذئب الّتي لم آمر بتدميرها إلى الآن.. انحنى لي رجالي.. من يقفون حرسًا في كل مكان.. مررت بينهم وفتحت قفل باب الغرفة ودخلت.. غرفة شاسعة.. تحفظت على ضرغام فيها وغلّقت عليه الأبواب والشبابيك بجنازير حديدية بأقفال مفاتيحها معي أنا فقط.

كان جالسًا على طاولة مستطيلة في منتصف الغرفة.. جلست مواجهًا له في صمت.. نظرت في عينيه بتحدٍ شديد.. وتواجهنا لأول مرة قاطعًا ذلك السكون:

--فلننه هذه المسرحية الدرامية الآن يا ضرغام.

--عن أية مسرحية تتحدث؟

--ما زلت تراوغ.

--أهذا جزائي بعد أن ساعدتك للوصول إلى كرسي الحكم والتغلب على الذئب؟

--قلت لك لا تراوغ.

--لا أفهم ما تريد.

نهضث من مكاني.. توجهت إلى أحد الأدراج الجانبية المُعلقة تحت الشاشات.. أخرجث مفتاحًا من جيبي وفتحته.. أخرجت منه مجموعة أوراق.. ووضعتها أمام ضرغام فسألني:

--ماهذا؟

--إنه كتاب عجائب الأمصار في ذئبستان.

--أعرف ذلك ولكن لا أفهم ما ترمي إليه.

--أوراق قديمة تحمل عبق التاريخ.. للحق كتاب مقنع..

ولكن يبدو أنك قد نسيت أنك أهديتني قصة في السابق..

تلك الرقعة الجلدية التي علقتها على جدار غرفتي في قصر فهد.. أتذكرها؟

--نعم قصة الخلق.

--بخطك.. ألم تتوقع أنني سألاحظ أن الخط المكتوب به ذلك الكتاب هو خطك أنت.

--كلا.. إنه خط جدي.

--بل خطك أنت.

صفعته في عصبية شديدة.. لحظات من الصمت مجددًا قطعها ضرغام:

--حسنًا وإن كان فقد بلغتَ كل ما تمنيت.. ماذا تريد بعد كل هذا؟

--الحقيقة.

--أية حقيقة؟

--من خطط لكل ذلك.. أتفهّم أنك خنت فهد لصالح مارق ولكن ما الذي دفعك لخيانة مارق لصالحي ووضعت عظيم في طريقي.. من ورائك يا ضرغام.. وهل تخطط لخيانتي أنا أيضاً؟ ومتى؟ الآن؟ غدًا؟ بعد عام؟ لصالح من؟ وما الفائدة من تلك الخيانات المتكررة؟

--يكفيك ما عرفت واخرج لتعيش ملكًا وسط من نصبوك زعيمًا.. ولن أخونك.. أقسم بذلك.

انتزعت خنجري ووضعته تحت رقبته:

--ستموت إن لم تعترف بكل الحقيقة.

--الحقيقة لن تزيدك إلا ألمًا وعجزًا.

--انظر في آخر ورقة من الأوراق الّتي أمامك.. افتحها.. إنها ورقة مغايرة لما كتبته.. أليس كذلك؟

أخرجها ضرغام.. ورقة صفراء باهتة رُسم عليها خريطة لذئبستان

ويظهر فيها حدودها وبعض العلامات الحمراء على الجانب الغربي منها فوق سور ذئبستان العظيم.. مكتوب في أعلاها(الطريق السري إلى الخارج)

--يبدو أن النبيل الأكبر السابق قد وقعت منه هذه الورقة قبل فراره من ذلك القصر..

أتذكر حينما أعلنا الثورة على الذئب أنا وفهد بمباركتك بعد حرق لؤلؤة.. وجئنا إلى هذا القصر لنلقي خطابًا إلى الناس.. لقد عثرت على هذه الورقة هنا في نفس الغرفة.. انظر فيها.

--وبعد؟

--هذه العلامات المرسومة بالأحمر هي الممرات السرية لما خارج ذئبستان.. أليس كذلك؟

--نبيل أكبر غبي.. لقد أمر الذئب بحرق هذه الخريطة منذ تعيين جده الأكبر.. يبدو أن الجميع لم يكن في طاعة الذئب كما كنا نظن.

--فليذهب ذئبك إلى الجحيم.. هل ستخبرني بشيء قبل قتلك؟ أم أنك ستنجو بحياتك؟

صرخت في وجهه في عصبية شديدة.

--سأخبرك.. ولكن تذكر جيدًا أنني طلبت منك الكف عن نبش تلك الأسرار وأنت لم تُذعن.

--كلي أذان صاغية.

نهض ضرغام من مكانه.. وذهب إلى أحد أركان الغرفة وأدار تلك

الشاشات لتنقل لنا أماكن عديدة مباشرة من المقاطعة.. شوارع وميادين وقرى ومحال ومصالح حكومية وقصور وبيوت وبنايات وأناس تهلل فرحًا:

--الله أكبر.. الله أكبر.

أشار ضرغام ناحيتهم:

--إنه قدرهم يا عزيزي.. قدر هؤلاء.

.. سأبدأ القصة من البداية.. بعد حروب عديدة عايشها العالم القديم وانتهت بخراب لم يشهده البشر من قبل.. من تبقى من حكامه اتحدوا تحت شعار دولة واحدة انتخبوا حاكمها الأكبر فيما بينهم من مبدأ الاتحاد قوة.. وبات العالم أجمع دولة واحدة لا فرق بين أراضيهم شيئًا..

هذه الدولة سميت(دبستان)

--دبستان!

--دعني أكمل لك.. في العالم القديم طال الخراب الشديد قارة في شرق الأرض.. ومات أغلب سكانها وفر الباقي بعيدًا عنها.. باتت خاوية على عروشها.. ولكن دبستان كان لها رأي آخر.. أُعيد إعمار هذه الأرض من جديد وخاصة أن أكثر ما يميزها تلك الغابات المنتشرة على أراضيها ولم يطلها الخراب.

--هذه هي ذئبستان.

--نعم.. أرض التجربة.

--التجربة!

--نعم.. لقد خطرت لهم فكرة ونفذوها.. أن تكون هذه الأرض مجرد مكان لإجراء تجارب على البشر.. حتى لا ينالهم الخراب من جديد.. فليجربوا كل شيء هنا أولًا ويدرسوا نتائجه.. وضعوا الشرائع ونصبوا الذئب الكبير عليها.. ذلك الحاكم الوهمي الذي لا وجود له.. واختطفوا ملايين الأطفال والرضع من العالم لعامٍ كامل.. وتلك الأعداد كانت كفيلة بنشأة دولة ذئبستان.. وحينما تفتق ذهن أولئك الرضع كان من السهل تشكيل عقولهم كما أرادوا.. البعض ورثة والبعض بارون والأغلبية غرباء.. ولم يُنفذ الإخصاء في الجيل الأول.. أُعفى الغرباء عشرين عامًا من الإخصاء حتى كثُر عددهم وتوالت التجارب.

--عن أي تجارب تتحدث؟

--كل شيء.. سجود الإنسان لحيوان بحثًا عن الأمان من خراب خارجي لم يكن موجودًا في الأساس.. تأثير الجنس على حياة البشر.. تأثير السلطة وشهوتها.. شراء النفوس بالذهب كما حدث مع البارون مرتين.. وبالمناسبة هذه السبائك هنا في ذئبستان مجرد نحاس مدهونًا بطلاء ذهبي اللون.

--أيها الأوغاد.

--دراسة سلوك الإنسان وخضوعه للضغوط ومداها.. مقياس الثورة وإلى أي حد يمكن للمرء أن يتحمل.. شهوة مضاجعة الموتى وتأثيرها على سلوك الفرد.. الشذوذ الجنسي وتأثيره.. مضاجعة الأبناء لأمهاتهم وتأثيرها.. مدى تقبل الناس لكل شيء مهما كانت

قسوته وغرابته.. أتتذكر ذلك الوباء العجيب الذي ماتت به (فيروز) زوجة فهد؟

--لم أكن وُلدت في ذلك الحين ولكنني سمعتُ عنه.

--انتشر ذلك الوباء في دبستان أولًا ومنعت السماء أمطارها وماتت الزروع وانتشر الجدب والعطش.. ولم يخرجهم مما كانوا فيه غير ذئبستان.

--كيف؟

--مجموعة من العلماء الدبستانيين توصلوا إلى أمصال عديدة قد تعالج وكان عليهم أن يجربوا مفعوله وهذا ما حدث في ذئبستان فقد نشروا أولًا الفيروس المسبب للوباء في الهواء وبدأوا يجربون الأمصال بعدما حصد الموت بعض من الذئبستانيين.

--والجدب؟

--بمجرد علاج الوباء زال الجدب وحتى الآن لا يعرفون الصلة بين الاثنين.. باختصار كانت ذئبستان حقلًا لتجارب دبستان.

حتى أنت كنت جزء من التجربة.

--أنا؟

--نعم.. زوال السلطة والذل كيف يقود المرء إلى الثورة.. ياعزيزي النفس البشرية معقدة للغاية وكان عليهم دراستها عن قرب.. للحق لا ينفذون نتائج تلك التجارب كما هي ففي دبستان مثلًا لا يوجد بيوتًا رسمية للرذيلة ولكن يتركون العاهرات يعملون ويغضون طرفهم عن

أفعالهم وهكذا.

--وعظيم؟

--هذه قصة أخرى.

--أريد سماعها.

--التوحيد كان عائقًا كبيرًا أمام دولة دبستان.. اختفت الأديان وراهن الدبستانيون أن التوحيد سيندثر مع جيل أو أكثر بقليل.. حتى ظهر كتاب بعنوان

)الباحث عن الله) كتاب يحكي الكثير والكثير.. شددوا الخناق على الموحدين.. وظنوا أن الأمر سينتهي عما قريب ولكن بعد عقدين من الزمان عاد الناس يتحدثون عن نفس الكتاب من جديد وظهرت جماعة تدعى جماعة الدفاع عن الموحدين..

انتشرت كالنار في الهشيم.. حتى رصدوهم ورصدوا مؤسسها.. ولكنهم لم يعثروا عليه وقبضوا على ابنه ليحاولوا الضغط عليه ليظهر.. ابنه هو عظيم.. ومع ذلك إلى الآن لم يعثروا على الرجل أو الكتاب.. حتى أنهم اعتقلوا حفيد الرجل في غياهب السجون ولم ينطق بشيء.

--وآتيتم بعظيم هنا لتجرى عليه تجربة الإيمان بالذئب بكل طرق التعذيب.

--كلا.. عظيم كان جزءًا من خطة وضعتها ووافقوا عليها.. خطة التمكين المؤقت.

ماذا يحدث لو تركنا الموحدين ليصلوا إلى السلطة.. ذلك التوحيد الظاهري الّذين يعتنقونه من حكايات أجدادهم دون منهج واضح.. ووضعهم تحت اختبار شهوة السلطة الزائفة المضمونة نتائجها.

--ولذلك ساعدتني لأصل إلى السلطة.

--نعم.. تصل بعد قتل عظيم أثناء الهجوم.. تصل بمفردك مع عقيدة هشة لا تعرف عنها إلا القشور.

انظر إلى هؤلاء عبر الشاشات.. إنهم يهتفون: الله أكبر.. هذا ما يعرفونه من التوحيد.. لا شرائع ولا دين.. حينها نستطيع أن نرسم لكم توحيدكم رويدًا رويدًا.. نغير فيه كيفما نشاء بل ويمكن لنا أن نُخرج لكم كتابًا مزيفًا بعد فترة ونقنعكم أنه كتاب الله ونورد فيه ما شئنا من شرائع.. بل والأكثر من ذلك.. يمكننا أن نظهر لكم الله بذاته ونقنعكم به.

--تظهرون لنا الله؟

--نعم.. انظر إلى تلك الصورة جيدًا.

أخرج صورة فوتوغرافية لرجل هزيل من جيبه وناولني إياها.. إنه يشبه عظيم إلى حد كبير.

--من هذا الرجل؟

--إنه عظيم الحقيقي.

--ماذا؟

--من قابلته وصاحبته ومشيت في درب إيمانه رجلًا من رجالنا

يشبهه..

وضعناه في طريقك لتكتمل التجربة وقتما نشاء.

--لا أفهم أي شيء.

--لقد أخبرك عظيم المزيف أن الله لم يُر حتى هذه اللحظة ولكن ربما تراه في المستقبل..

وغير ذلك من معلومات مغلوطة زرعناها في عقولكم عن طريقه.. خطة محكمة سنكملها خاصة بعد التخلص من عظيم المزيف والحقيقي كما حدث.. قد تنتهي بسجودكم لبشر مثلكم نقنعكم أنه الله.

--أيمكن لهذا العالم أن يحوي كل هذا الشر؟

اختنقت الدموع في عينيّ.. وإن كانت ذئبستان حقلًا لتجارب دبستان دون أن ندرك ذلك.. فهل تكون دبستان حقلًا لغيرهم؟ وكأنها دوائر لا تنتهي.. كيف يُجزم المرء أن ما يُعايشه حقيقة غير مدبرة من غيره.. وكأننا ذمى لا حول لها ولا قوة.

--لا شيء هنا خاضع للصدفة.

قالها ضرغام قاطعًا شرودي.. مد يده على أجهزة التحكم وفتح ملفًا مكتوب عليه سري للغاية وُضع في مكان مخفي في خزائنها.. رأيث لؤلؤة فوق بيت الحمام معي..اغرورقت عيناي بالدموع.. ورأيت سيدة تغطيها الدماء مع صبي وسط حشود.. أشار ضرغام ناحيتها:

--هذه أمك وعد.. وهذا فارس أبوك.

ومشهد ل فارس مع شديد الذي ذبحته بيدي.. رأيث وجهه الغائب عن الدنيا رفضًا لما يفعله.. والقهر يمزق قلبه.. وآخرهم لؤلؤة عارية فوق فراش فهد.. رأيته وهو..!!!!

ثارت الدماء في عروقي.. صرخت:

--أيها الوغد.

--أرأيت؟ أدركت الآن أن فهد يستحق الخيانة والموت.

--كلكم أوغاد.

--كل شيء أحصيناه في خزائننا.. ظن الناس أن الذئب عيونه كلها ظاهرة.. لم يدركوا أن له عيونًا خفية تحصى أنفاسهم..

والآن.. بعد أن عرفت كل شيء.. هل ستشاركني تلك التجربة يا بني؟

--أي تجربة يا ضرغام؟ أم أن لك اسمًا آخر أيها الجاسوس.

--لن يُزيدك اسمي شيئًا.. فهناك الكثير مني.. من ضحى بحياته الهانئة مع زوجة تحبه ليقوم بواجبه في بلاد ذئبستان.. ما فعلته هو فخر لي ولأولادي.

--والآن.

--لا شيء.. ستخرج للناس وتصير ملكًا كبيرًا يحبونك وتنشر بينهم العدل حتى إشعار آخر.. وأعدك أنني لن أخفي عليك شيئًا بعد الآن.

--لا لن أفعل ذلك.

--لا تفكر في الخروج عما رُسم لك.. الخروج من ذئبستان مستحيلًا.. فقوات دبستان تنتشر في كل مكان خارج السور ويمكن أن يُبيدوك في لحظة.

--لن أخرج بمفردي.

--ماذا تعني؟

اقتربت منه ونظرت في عينيه ساخرًا..

--نسيت أن أخبرك بأنني حينما جئت إلى ذلك القصر يوم إلقاء الخطبة.. جائتني فكرة.. لماذا لا يراقب الناس حكامهم بدلًا من أن نراقبهم نحن؟ واخترت هذه الغرفة لتكون مكانًا جتماعات الدولة بعد الفوز على مارق ولكن خيانتك أجلت ذلك.. مع أن بعض من رجالي وقتئذ قد بدأ لينفذ فكرتي.. و أوصلوا تلك الغرفة الّتي نحن بها الآن بأسلاك تنقل كل صوت يجرى فيها إلى إذاعة ذئبستان ومن هناك مباشرة إلى مكبرات الصوت في كل أنحائها.. نظر ناحية الشاشات لمشاهد الناس وهي تهتف وكأنه مشهد يتكرر.. ضحكث عاليًا:

--لم تكن قوي الملاحظة يا ضرغام.. هذا مشهد مسجل.. الآن سترى المشاهد الحقيقية.

ضغطت على أحد الأزرار فظهر الناس في الشاشات صامتين ينصتون إلى حوارنا.. صرخث:

--هل أنتم فئران تجارب؟

--لا.

صرخوا بأصوات زلزلت الأرض بأكملها..

--لقد خدعتكم دبستان.

--اللعنة على دبستان.

--لن تهنيء بفعلتك.

دبث خنجري في قلبه.. فسقط مبرق العينين ميتًا في الحال.. مسحت دمائه من خنجري وترجلث ناحية الطاولة وأمسكت تلك الخريطة والتحدي يملأ نفسي مهللًا:

--الله أكبر.. الله أكبر.

--الله أكبر.

تعالت الهتافات سماء ذئبستان.. تلك الّتي لن تنقطع أبدًا ما دمت حيًا.. أدركث حينها أنني ذلك الوريث الأخير لكتاب الباحث عن الله.. أنا المقصود.. ربما أكون رسول السماء للناس كافة في زمان بشع.. ولكنني لا أعرف محتواه.. عليّ بالبحث عن حلم.. الأمل الأخير لوحدانية الله على الأرض.. ولن يتحقق ذلك إلا بغزو دبستان متمنيًا ألا تكون هي الأخرى حقلًا لتجارب من يخفون الحقيقة.

***

(بعد مرور ستة أشهر)

"مازالت الهجمات المتتالية للجحافل البشرية الهمجية الآتية من

الشرق عبر سور كنا نظن ما ورائه خرابًا تجتاح دبستان وتأتي على الأخضر واليابس مع محاولات مستميتة لقواتنا البارونية لردعهم دون فائدة.. إذاعة دبستان من العاصمة"

جلس حلم بعد خروجه من معتقل دام لعشرين عامًا مع ظاهرة العفو عن الموحدين الغريبة على مقهى في العاصمة يرتشف فنجانًا من القهوة ويتابع تلك المشاهد عبر التلفاز لهجوم الهمج كما أطلقوا علينا وذلك المراسل من موقع قريب لتلك الهجمات.. استمع إلى هتافنا البعيد وارتسمت على وجهه ابتسامة أمل:

--الله أكبر.

وفي لحظة صرخ المراسل وألقى بتلك القطعة الحديدية من يده وألقى مصوره عين الدب وفرا هاربين.. أمسك شاهد تلك العين ووضعها أمام وجهي فظهرت عبر شاشاتهم مبرق العينين كثيف اللحية وسألني:

--إلى أين يا ياقوت؟

--إلى الحرية المطلقة.

تمت

د.عمرو البدالي

20-1-2021

شكر خاص لأعضاء لجنة القراءة والنقد على ما قدموه لتخرج الرواية في صورتها الأخيرة:

*محمد سيد أسيوطي.

*الكاتب محمد مسعد.

*مها عاشور.

*رحمة عصمت.

*نسمة البكري.